من تراث أعلام الدعوة السلفية بمصر

المقالات السلفية

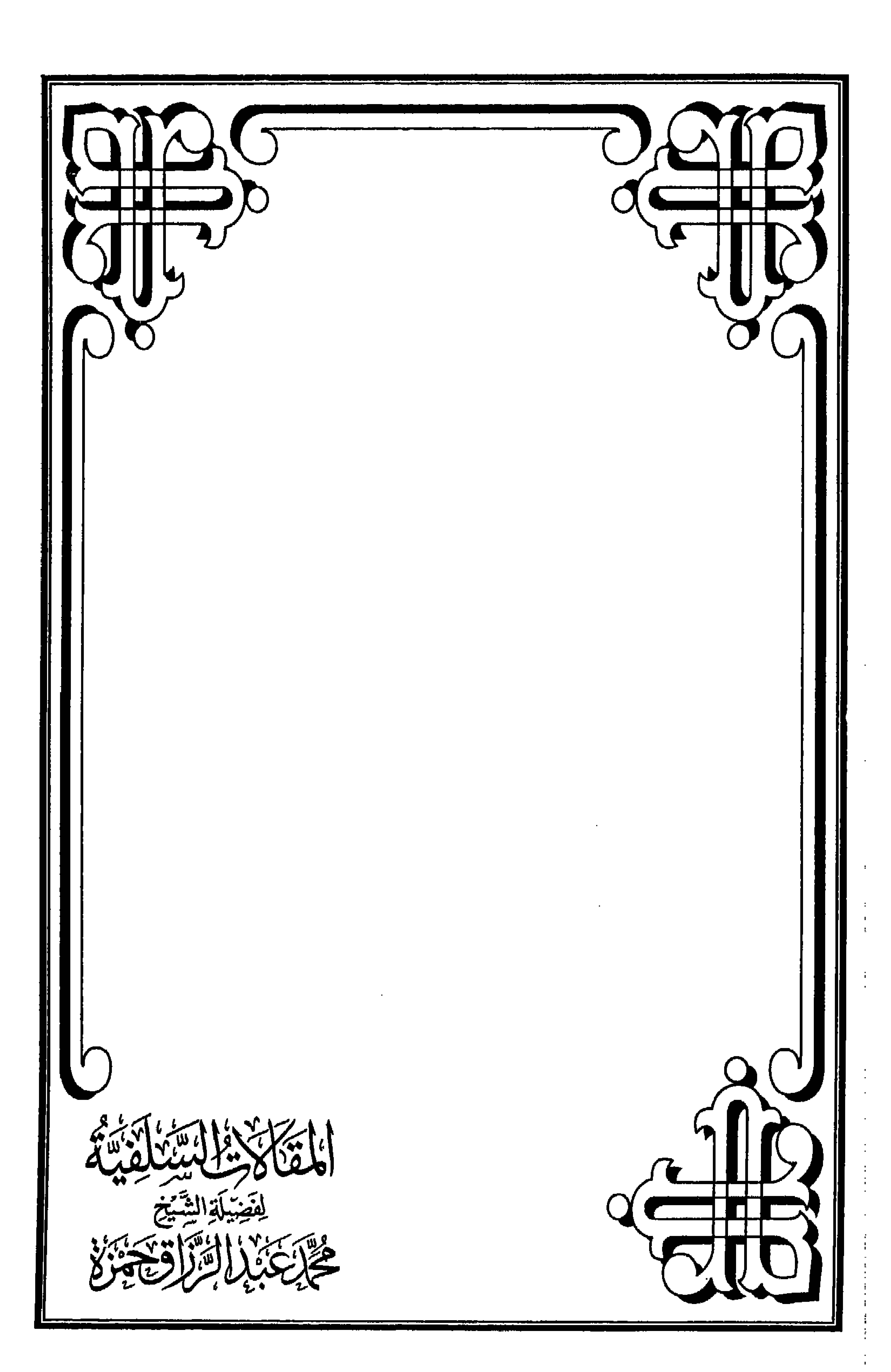
لفضيلة الشيخ

محمد عبد الرزاق حمزة


إمام وخطيب الحرم المكي الشريف

(ومؤسس دار الحديث الخيرية بمكة)

دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع



المقالات السلفية
لفضيلة الشيخ
محمد عبد الرزاق حمزة


الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

رقم الإيداع: ٣٤٣٦/ ٢٠١١م

دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع

عين شمس – القاهرة – جمهورية مصر العربية
جوال: ٠٠٢٠١٠٧٦١٠٠٩٩
البريد الإلكتروني:
Dar_Sabilelmomnen@yahoo.com
Dar_Sabilelmomnen@hotmail.com
موقعنا على الإنترنت:
www. darsabilelmomnen.com




من تراث أعلام الدعوة السلفية بمصر

المقالات السلفية

لفضيلة الشيخ

محمد عبد الرزاق حمزة

دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع



قال تعالى

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

[النساء: ١١٥]

ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة

هو الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة المصري ثم المكي. قال الشيخ عبد الله خياط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينتهي نسبه إلى رسول الله ﷺ. ولد في شعبان عام ١٣٠٨هـ في قرية كفر عامر بمصر.

حفظ القرآن الكريم ومجموعة من مبادئ العلوم، والتحق في المدرسة الابتدائية الأميرية. ثم التحق بالأزهر وبعد تخرجه التحق بدار الدعوة والإرشاد التي أنشأها الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقرأ فيها ما كان مقررًا من العلوم، ثم لازم الشيخ محمد رشيد رضا، وصار معاونًا له في تصحيح ما يطبع في مطبعة المنار، مع ملازمته في حضور دروسه. ودروس غيره من العلماء ومن أبرزهم الشيخ سليم البشري، شيخ الأزهر، والشيخ محمد توفيق صدقي، أحد علماء الأزهر، كما لازم الشيخ عبد الظاهر أبا السمح، ووجهه إلى قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكانت معرفة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة بالشيخ عبد الظاهر أبي السمح بدار الدعوة والإرشاد معرفة قوية ثم توثقت العلاقات بالمصاهرة بينهما.

وبناءً على رغبة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقل الشيخان بأهلهما وأولادهما إلى مكة المكرمة سنة ١٣٤٧ هـ وأصدر الملك أمره بتعيين الشيخ عبد الظاهر محمد أبي السمح إمامًا وخطيبًا ومدرسًا في المسجد الحرام، وتعيين الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة إمامًا وخطيبًا ومدرسًا بالمسجد النبوي بالمدينة. ولم تطل إقامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في المدينة فنقل إلى مكة المكرمة في غضون ١٣٤٨ هـ مدرسًا في الحرم المكي، ومساعدًا للشيخ عبد الظاهر في إمامة الحرم والخطابة. كما عهد إليه التدريس في المعهد العلمي السعودي.

واستأنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشاطه العلمي الإرشادي في مكة، بفتح دروس للعامة بين

العشاءين، وبعد صلاة الفجر في المسجد الحرام في التفسير والحديث.

وكان للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الدروس لأفراد من راغبي العلم في حجرته بباب علي في المسجد الحرام وكانت تعرف بقبة الساعات.

وكان الاهتمام بالحديث وكتبه ودراسته ودراسة فنونه في مقدمة ما كان يحرص عليه الشيخ وبناءً عليه قام مع الشيخ عبد الظاهر بتأسيس (دار الحديث بمكة) سنة ١٣٥٠ هـ.

وبذل الشيخ محمد عبد الرزاق مجهودًا كبيرًا في رفع مستوى طلاب الدار في علوم الحديث. وفي سنة ١٣٧٢ هـ تأسس في الرياض أول معهد علمي، وانتدب الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة للتدريس به، واستمر انتدابه سنة واحدة تقريبًا ثم عاد إلى مكة المكرمة ليواصل التدريس ونشر العلم حيث تخرج عليه كثير من العلماء من أبرزهم الشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط، والشيخ علي بن محمد الهندي، والشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع.

واستمر الشيخ في جهاد علمي متواصل، وخدمة للعلم في مختلف مجالاته، ونشر للمعرفة بكل الوسائل مع زيادة اهتمام منه في التأليف والتعليقات على الكتب وكتابة المقالات في المجلات. حتى الأيام الأخيرة من عمره حيث أصيب رَحِمَهُ اللَّهُ بعدة أمراض واشتدت عليه وطأتها، فأصبح من سنة ١٣٩٠ هـ ملازمًا للفراش، وأخيرًا وافاه الأجل المحتوم في الساعة الثامنة بالتوقيت الغروبي من يوم الخميس ٢٢-٢-١٣٩٢ هـ، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة المغرب، ودفن بالمعلا، رحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه الفردوس الأعلى. ومن مؤلفاته وآثاره العلمية: كتاب الصلاة، وكتاب الشواهد والنصوص، ورسالة في الرد على بعض آراء الكوثري، وكتاب ظلمات أبي رية وغيرها. «الشيخ العلامة المحدث محمد عبد الرزاق حمزة، حياته العلمية» لمحمد بن أحمد سيد أحمد «أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع الهجري» لعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي (١/ ٣٩٧).

حق الله على عباده[1]

عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤخرة الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبادِ عَلَى اللهِ» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكَ بِهِ شيئًا»[2]. الحديث.

اتفق على روايته عن معاذ إماما الدنيا في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في كتابيهما الصحيحين، اللذين هما أصح وأشهر وأبرك وأفضل كتابين بعد كتاب الله تعالى.

والحديث أفاد أن لله على عباده حقًّا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وهذا أمر تواطأت عليه الفطر والعقول والكتب السماوية والأديان الإلهية، وإن اختلفت فيه مشارب الناس وأهواؤهم، فأسعدهم من اهتدى إليه مسترشدًا بنور الفطرة وهداية الوحي وحسبنا في ذلك آخر كتب الله المنزلة وهو كتابه المجيد وما بينه من سنة رسوله الأمين ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[النساء: ٣٦].

وقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعبادة الله أمر جامع لما يحبه الله من عباده ويرضاه منهم، يدخل فيها كل ما تقرب الناس به إلى الله من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وصدقة، ونذر،

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثاني – ١٥/ ٣/ ١٣٤٧ هـ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

وذبح، ودعاء، واستغاثة، وتوكل، وخوف، ورجاء.

قال الإمام شمس الدين ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين»[(١)]:

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلَى هاتين الكلمتين – يعني: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ –، وعليهما مدار العبودية والتوحيد.

وهُما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالَى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفهما لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم قال[(١)]:

و«**العبادة**» **تَجمع أصلين**: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولَمْ تكن خاضعًا له، لَمْ تكن له عابدًا. ومن خضعت له بلا مَحبة، لَمْ تكن عابدًا له، حَتَّى تكون مُحبًّا خاضعًا. ومن ههنا كان المنكرون مَحبة العباد لربِّهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه مَحبوبًا لَهم –، بل هو غاية مطلوبهم، ووجهه الأعلى نِهاية بغيتهم –منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالَمين وخالقًا لَهم، فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولَمْ يَخرجوا به من الشرك، كما قال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، ولِهذا يَحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

ثم تكلم الشيخ على الاستعانة بنحو هذا الأسلوب العذب والمنهل الصافي، وبين النكتة البليغة في تقديم العبادة على الاستعانة، وتقديم المعبود

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨)، وما بعدها.

المستعان على فعل العبادة والاستعانة بكلام شهي، فارجع إليه إن شئت.

ثم قال[١]:

إذا عرف هذا؛ فالناس فِي هذين الأصلين -وهُما العبادة والاستعانة- أربعة أقسام:

أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بِها؛ ولِهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب سبحانه وتعالَى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النَّبِيُّ ﷺ لِحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «يا معاذ، والله إنِّي لأحبك. فلا تنس أن تقول فِي دُبُر كل صلاة: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٢].

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بِهذا المطلوب. وجَميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-[٣]: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثُمَّ رأيته فِي الفاتِحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومقابل هؤلاء: القسم الثانِي: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهُم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. فإنه سبحانه يسأله من فِي السماوات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويَمدُّ هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨)، وما بعدها.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢)، وأحمد (٥/ ٢٤٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى لابن قاسم (١/ ١٧٥).

ومتعه بِها، ولكن لما لَمْ تكن عونًا له على مرضاته. كانت زيادة له فِي شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولَمْ يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بُدَّ.

وليتأمل العاقل هذا فِي نفسه وفِي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومَحبته له، فيمنعه حِماية وصيانة وحفظًا لا بُخلًا.

وهذا إنَّما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن – بِجهله– أن الله لا يُحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حَمله على الأقدار، وعتابه الباطن لَهَا. كما قيل:

وعاجز الرأي مِضياع لفرصته   حَتَّى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتِي، والأمر ليس إلَيَّ؟ والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لَمْ تَجد بُدًّا من سؤاله، فعلقه على شرط علمه تعالَى فيه الْخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة؛ بل استخارة من لا علم له بِمصالِحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلَى تفاصيلها، ولا يَملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلَى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: فسأله أن يَجعله عونًا على طاعته وبلاغًا إلَى مرضاته، ولا يَجعله قاطعًا لك عنه، ولا مُبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يَمنعه لهوان عبده

عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يُمتحن بِهما عباده. قال الله تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكَرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء منِّي، وامتحان له؛ أيشكرنِي فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرنِي فأسلبه إياه، وأخَوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان منِّي له؛ أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق؟ أم يتسخط فيكون حظه السخط؟

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لَمْ أبتل عبدي بالغنَى لكرامته عليَّ، ولَمْ أبتله بالفقر لهوانه عليَّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقدره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته؛ إنَّما يُكرم من يكرمه بِمعرفته ومَحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغنِي الحميد. فعَادت سعادة الدنيا والآخرة إلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

ثم ذكر القسم الثالث وهم من لهم نوع عبادة بلا استعانة.

والقسم الرابع فقال: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لَمْ يشأ لَمْ يكن، ولَمْ يَدُرْ مع ما يُحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بِها، سواء كانت أموالًا أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالًا من كشف وتأثير وقوة وتَمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنَّها من جنس الملك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام، فضلًا عن الولاية والقرب من الله تعالى. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن

استدل بشيء من ذلك على مَحبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يُحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالمُلك والمال، إن أعانك على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره؛ ألحقك بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

أقول: تأمل هذا الكلام النفيس في الأحوال من كشف وتأثير وما يسميه الناس خوارق وكرامات، فقد فتن بها خلق كثير وضل بشر لا يحصون، فضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل، وهذا في الأحوال الحقيقية فما بالك بالمختلق منها الذي يصنعه منتحلوه بحيل وتلبسات وأكاذيب مفتريات، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة، ونحمده على ما عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، ونسأله الهداية ودوامها والتوفيق، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال الشيخ: إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين:

أحدهُما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص لله المعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلَى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة لرسول الله ﷺ: وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة، فأعمالَهم كلها لله، وأقوالَهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم، بل قد عَدُّوا الناس

بِمنْزلة أصحاب القبور، لا يَملكون لَهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فالعمل لأجل هؤلاء وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بِهم ألبتة، بل من جاهل بشأنِهم وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلَهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالَهم كلها وعباداتِهم موافقة لأمر الله، ولما يُحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بلى عباده بالموت والحياة لأجله.

قال الله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وجعل ما على الأرض زينة لَهَا ليختبرهم أيُّهم أحسن عملًا[١].

قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولَمْ يكن صوابًا لَمْ يقبل، وإذا كان صوابًا، ولَمْ يكن خالصًا لَمْ يُقبل، حَتَّى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السُّنَّة، وهذا هو المذكور فِي قوله تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وفِي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُردَ عليه -أحوج ما هو إليه- هباءً منثورًا، وفِي

---

(١) يشير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وكلام الفضيل تفسير لها.

الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[(١)]، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا. فإن الله تعالَى إنَّما يُعبَد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثانِي: من لا إخلاص له ولا متابعة: فليس عمله موافقًا لشرع، ولا هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لَهم بِما لَمْ يشرعه الله ولا رسوله، وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلَى الله ﷻ، ولَهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، يفرحون بِما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويُحبون أن يُحمدوا باتباع السُّنَّة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انْحرف -من المنتسبين إلَى العلم والفقر والعبادة- عن الصراط المستقيم، فإنَّهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويُحبون أن يُحمدوا بِما لَمْ يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مُخلص فِي أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العبَّاد، والمتنسبين إلَى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقده قربة إلَى الله تعالى فهذا حاله، كمن يظن أن سَماع الْمكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة الَّتِي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. أمثال ذلك.

قلت: رحم الله الشيخ فأين المقلدون الذين يعبدون الله بآراء شيوخهم ويعرض عليهم كلام الله ورسوله فيعرضون عنه تقليدًا لمن نهاهم عن تقليدهم.

قال الشيخ: الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله؛ كطاعات المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحَمِيَّة وشجاعة، ويَحج ليقال،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالَهم ظاهرها أعمال صالِحة مأمور بِها، لكنها غير صالِحة، فلا تقبل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فكل أحد لَمْ يؤمر إلا بعبادة الله بِما أمر الله، وبالإخلاص لله فِي العبادة وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾. اهـ.

انتهى ما أردت تلخيصه من كلام هذا الإمام الجليل في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾، وهو لائق بشرح ما جاء في الحديث الذي ابتدأت الكلام به من قوله ﷺ: «**حق العباد على الله أن يعبدوه**». بقي الكلام على قوله: «**ولا يشركوا به شيئًا**». على آخر الحديث نرجئها إلى الكلمة التالية لبسط الكلام فيها على الشرك وأنواعه وما وقع الناس فيه منه وهم لا يشعرون، وجدالهم عنه وشبههم في ذلك مستعينين في ذلك بحول الله وقوته وتوفيقه وهدايته، ثم بكلام أئمة العلوم ونجوم الهداية وفحول البيان المستند إلى كلام الله وسنة رسول الله ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1]

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات: ١٣].

قرر الإسلام هذا الإصلاح العام الشامل وأصل هذا الأصل الأصيل الحق النافع، أن الناس كلهم بنو أب واحد وأم واحدة، أبوهم آدم والأم حواء، فهم إخوة أشقاء يجري في عروقهم جميعًا دم الأخوة الإنسانية عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم والأصفر والأبيض، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح والتقوى والنفع العام للمجتمع البشري، فحطم بذلك أغلالًا من الباطل غلت بها أيدي الإنسانية المظلومة عن التعاون الخيري المؤسس على العدل والإنصاف، فقد قسمت - لأغراض ظالمة - الناس قسمة ضيزى، لا سند لها من عقل ولا فطرة ولا واقع وميزوا بعضها بالوهم والغشم، وجعلوها أجناسًا من حيوانات شتى، وفرقوا بينها بفوارق الأنانية والأثرة والتعالي الكاذب وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، عندك وثنية الهندوس التي قسمت الناس أقسامًا أربعة، أعلاها البراهمة وأدناها شودر، ينفصل بعضها عن بعض في كل شيء من مرافق الحياة في الطعام والشراب والاختلاط والاتصال والزواج، فليس لواحد منها أن يتطلع إلى غير طبقته أو يرفع بصره عنها، حتى لقد اعتقدت كل طبقة بنجاسة من دونها، فالشودري مثلًا: عليه أن يخلي الطريق لمن فوقه كالبرهمي، ولا يصح له بحال من الأحوال أن يمسه، ولا أن يتعبد معه في معبد. دعى الحكيم أجمل خان زعيم الهند السياسي ورأس أطبائها لمعاينة مرض أحد الرجوات الهندوس، وعندما جس نبضه، دعا الراجا بماء لغسل يده، مما مست يد الحكيم أجمل

---

(١) مجلة «الحج» - رجب - ١٣٦٧ هـ - السنة ٢.

خان، فدعا أجمل خان خادمه – مقابل للعمل بمثله – فغسل يده وانصرف عن الراجا بازدراء حتى دهش الراجا وانبهر.

هكذا يعامل الإنسان أخاه الإنسان كمعاملة متفيهق موسوس لكلب أو خنزير! وقد سرى هذا العنت والظلم إلى وثنيات أخرى فترى مثل هذا أو شبيهًا به لدى جاهلية الفراعنة والأكاسرة والأباطرة، حتى عرب الجاهلية الذين صهرتهم خشونة الصحراء وساوى بينهم شظف العيش لم يسلموا من هذه النعرة الجنسية والتفاخر بالأحساب والاعتزاز بشرف الأنساب، حتى جاء الإسلام بهذا الانقلاب والإصلاح وبالثورة على هذا الظلم الصارخ، فدك تلك الحواجز الوهمية، وأبطل تلك الفروق الجاهلية، فنادى في صريح كتابه وعلى لسان رسوله أن الناس كلهم بنو آدم، ففي القرآن ما لا يعد كثرة من قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

وهذه الآية في صدر المقال تنادي بصريح العبارة أن الناس خلقوا من ذكر وأنثى فهم أشقاء الأبوة الآدمية والأمومة الحوائية، وإنما جعلهم الله شعوبًا وقبائل للتعارف بالانتساب لا للتفاخر بالأنساب ولا للتباهي بالأحساب وختمها بالقول الفصل: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجاء في السنة النبوية ما هو ضياء ونور وشرح لكتاب الله تعالى، فعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، لينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان أو الجعل**»[1]. ويقول العامة: الجعلان دويبة خسيسة تندس في الأقذار وتتغذى بها.

---

(١) مسند البزار (٢٩٣٨). قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٥٦٨ في صحيح الجامع.
وقد ورد في الحديث: «الْجِعْلَان الَّتِي تَدْفَع بِأَنْفِهَا النَّتْن» أخرجه أحمد (١٠٧٩١)، وأبو داود (٥١١٦). قال في عون المعبود (١٤/ ١٦): قَالَ الْعَلَّامَة الدَّمِيرِيّ فِي حَيَاة الْحَيَوَان: الْجُعَل كَصُرَدٍ وَرُطَب وَجَمْعه جِعْلَان بِكَسْرِ الْجِيم وَالْعَيْن سَاكِنَة، وَهُوَ يَجْمَع الْجَعْر الْيَابِس وَيَدَّخِرهُ فِي بَيْته وَهُوَ دُوَيْبَة مَعْرُوفَة تَعَضّ الْبَهَائِم فِي فُرُوجهَا، فَتَهْرُب، شَدِيد السَّوَاد، فِي بَطْنه لَوْن حُمْرَة يُوجَد كَثِيرًا

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية -أي: كبرها- وتعظمها بآبائها فالناس رجلان؛ رجل بر تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى، إن الله ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾» [الحجرات: ١٣]، ثم قال ﷺ: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». نقله الحافظ ابن كثير[(١)] عند تفسير هذه الآية من تفسير ابن أبي حاتم وعبد بن حميد، قال: وروى الإمام أحمد في «مسنده»[(٢)] بسنده إلى عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طَفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيًّا بخيلًا فاحشًا». قال: ورواه ابن جرير، ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يَمْلَؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

قال الجزري في «النهاية»[(٣)]: قوله: «كُلّكُم بنُو آدم طَفُّ الصاع ليس لأحد على أحد فَضْلٌ إلاَّ بالتَّقْوَى» أي: قَرِيبٌ بعضُكم من بَعْضٍ. يقال: هذا طَفُّ المِكْيال وطِفَافه -بكسر الطاء وضمها- وطَفَافه: أي ما قَرُب من مِلْئه. قال: والمعنى كُلُّكُم في الأنِتساب إلى أبٍ واحدٍ بمنزلةٍ واحدةٍ في النَّقصِ والتَّقاصُر عن غاية التَّمام. وشبَّههُم في نُقْصانِهم بالمَكِيل الذي لم يَبْلُغ أن يَمْلأ المِكْيال ثم أعْلمهُم أن التَّفاضُل ليس بالنَّسَب ولكنْ بالتَّقْوَى. اهـ.

= فِي مَرَاحِ الْبَقَرِ وَالْجَوَامِيس وَمَوَاضِع الرَّوْث، وَمِنْ شَأْنه جَمْع النَّجَاسَة وَادِّخَارهَا. وَمِنْ عَجِيب أَمْره أَنَّهُ يَمُوت مِنْ رِيح الْوَرْد وَرِيح الطِّيب فَإِذَا أُعِيدَ إِلَى الرَّوْث عَاشَ. وَمِنْ عَادَته أَنْ يَحْرُس النِّيَام فَمَنْ قَامَ لِقَضَاءِ حَاجَته تَبِعَهُ وَذَلِكَ مِنْ شَهْوَته لِلْغَائِطِ لِأَنَّهُ قُوته.

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٦).

(٢) أحمد (٤/ ١٤٥، ١٥٨).

(٣) النهاية ٣/ ١٢٩.

وروى الإمام أحمد(١) عَنْ دُرَّةَ بِنْتِ أَبِي لَهَبٍ قَالَتْ: قَامَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لله ﷻ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ».

وفي حديث حبيب بن خراش القصيري أن رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى». رواه الطبراني(٢).

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عند مسلم(٣) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وروى الإمام أحمد(٤) عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «انْظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى».

هذا ولو لم تكن تلك الرذيلة إلا أنها من اختراع رأس كل شر، وينبوع كل ضلال، أعني: إبليس لعنه الله إذ يقول: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]، لكفى بها رذيلة، وحسبك بها مقتًا وحقارةً وعارًا.

وقد جاءت سنة النبي ﷺ العملية تطبيقًا لهذا الإصلاح تنظيمًا لهذا المبدأ وجريًا على هذا المنوال الحكيم فقد اشمأزت عصبية قريش وعبيتها من التفاف الموالي من السابقين الأولين حول النبي ﷺ كبلال وخباب وصهيب، فطلبوا منه أن يطردهم عنه ليجالسوه بنعرتهم الحسبية وتعظمهم بالنسب والجاه والمال، ومال النبي ﷺ إلى شيء من ذلك حرصًا على هدايتهم وطمعًا في جلبهم إلى الخير، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٣٢). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٨٩٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٤٧)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٣٤): (موضوع).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٥٨)، وحسنه الألباني في «غاية المرام» (٣٠٨).

رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩].

وقال للذي لم تظل الخضراء ولم تقل الغبراء أصدق لهجة منه أزهد الناس في الدنيا وحطامها الفاني أبي ذر الغفاري عندما عير أحد الموالي بأمه فقال له: يابن السوداء، فقال النبي ﷺ في غير محاباة ولا مداورة: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**». فقال أبو ذر: على كبر سني يا رسول الله! فكان أبو ذر بعد ذلك يقسم قطعتي الحلة بينه وبين مولاه فيلبس شقها ويلبس مولاه شقها الآخر، وهو الذي روى الحديث: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ**»[١].

وزوج عبد الرحمن بن عوف الزهري أحد سراة الصحابة أخته لبلال بن رباح الحبشي المولى. رواه الدارقطني[٢]. وبنو زهرة هم بنو زهرة من علياء قريش، وأصهار بني هاشم، وأخوال النبي ﷺ.

وزوج رسول الله ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش الأسدية القرشية مولاه زيد بن حارثة الكلبي، وزوج فاطمة بنت قيس بنت عم عبد الله بن أم كلثوم وهي قرشية وخطبها معاوية بن أبي سفيان فأشار عليها النبي ﷺ بمولاه وحِبه أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي فتزوجته واغتبطت به، وقالت: جعل الله لي في ابن زيد خيرًا كثيرًا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠، ٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦٠، ١٦٦١).

(٢) الدارقطني (٣/ ٣٠١).

وزوج النبي ﷺ بنتيه رقية وأم كلثوم الواحدة تلو الأخرى من عثمان بن عوف الأموي العبشمي، وزوج ابنته زينب من أبي العاص العبشمي.

وزوج علي بن أبي طالب بنته أم كلثوم الفاطمية الهاشمية من عمر بن الخطاب العدوي.

وقال النبي ﷺ لبني بياضة من الأنصار وهم من خالص العرب: «أنكحوا أبا طيبة»[1] وهو مولى لهم حجام ...إلخ.

وزوج أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي سالمًا – مولى امرأة من الأنصار – زوجه بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة وتبناه.

وروى الترمذي[2] وحسنه عن أبي حاتم المزني عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِير». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا؟ قَالَ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وقد رأينا ذلك الفساد الكبير وتلك الفتنة التي أشار إليها ﷺ فيمن انحرف عن هذه السنة القديمة وأحيا النعرة الجاهلية وأنبت جذور الشجرة التي اجتثها الإسلام، فأعنس العواتق، وعجز الفتيات اللاتي أعدتهن الفطرة أن يكن سيدات بيوت، وأمهات رجال المستقبل، وشقائق الرجال، فأفسد تلك الفطرة القويمة وعوج الصراط السوي.

حكى المقبلي اليمني في كتابه «العلم الشامخ»[3] أن ضيفًا نزل برجل نسيب عنده فتاة ناهد، فسأل المضيف ضيفه: أسيد أنت؟ ليصاهره. فأشارت إليه الفتاة من طرف خفي قل: نعم. فقال الضيف: لا. فصاحت الفتاة: فعل الله بك وفعل، تقع في إمام وقتها الذي أحيا تلك السنة الجاهلية بعدما أماتها الإسلام.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢١٠٢). وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٤٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (١٠٨٥)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٦٨).

(٣) «العلم الشامخ» (ص ٣٥٥).

استقام المسلمون أولًا على صراط الإسلام حقًّا ظاهرًا وباطنًا، قلبًا وقالبًا، جسدًا وروحًا، فاستقام لهم عز الدنيا والآخرة، وملكوا مقاليد العالم. ولما غيروا وبدلوا غير الله عليهم وصرف نعمته عنهم مما نجني ثماره المرة اليوم، بل ما نحصد إلا بشوك وقتاد.

والدين هو الدين في جوهره ولبه ومعناه ومبناه، ولو عدنا إليه حقًّا لعادت إلينا سيادة الناس وقيادة العالم وعز الدنيا وسعادة الآخرة، ولقد قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

يعني: بالدين. ولنا رجاء نرجوه في رحمة الله أن يستدير الزمان ويعود للمسلمين عزهم بالتمسك بدينهم، وما ذلك على الله بعزيز.

ولقد تغنى الشعراء بهذا الإصلاح الإسلامي وأشاعوا هذا المبدأ الحق، فقد قال قائلهم[1]:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا ... يغنيك محموده عن النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... ووضع الكفر النسيب أبا لهب

ولله أبو الآخر إذ يقول منفرًا عن غرور العظامية:

لئن فخرت بآباء ذوي حسب ... فقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

هذا، وأرجو أن لا يكون في هذا الكلام مساس بشعور أحد من خلق الله تعالى وإساءة إلى إحساس فرد من الناس، فما كان إلا بيانًا للإصلاح

---

(١) «جمهرة الأمثال» (٢/ ٣١٢).

الإسلامي، وشرطًا لما صرحت به الآية الكريمة، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم، وما بينها وفصلها من سنة النبي الكريم قولًا وعملًا وإصلاحًا وتطبيقًا.

ولسنا ننفس على العظاميين ما تعلقوا به من عظام ونسب، فلو شئنا لسابقناهم في هذا المضمار، وقد نسبقهم فيه، ولكنا دفنا عظامنا كما أمر الإسلام، فمعاذ الله أن نحيي ما أماته من عبية الجاهلية، أو نحيا بين الناس إلا بما تصح به شرعًا وقدرًا من العمل النافع المفيد للهيئة الاجتماعية، وأن نتنافس إلا فيما حث الله ورسوله على التنافس فيه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فهذا هو الصراط المستقيم وذلك هو دين القيمة.

نسأل الله العظيم الهداية إليه قولًا وعملًا وعقدًا والثبات عليه إلى الممات. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان

(١)

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت: ٥٣].

خواطر سانحة في الإيمان بالله تعالى والإذعان لربوبيته

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧) ﴾.

وبعدُ: فهذه خواطر سانحة وإحساسات عقلية ووجدانية في الإيمان بالله وصفاته، مقتبسة من القرآن الكريم وثمرات قرائح المفكرين من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قيدتها تذكيرًا لنفسي، ولمن يذكر فتنفعه الذكرى ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولم يغب عني ما قالته تلك العجوز حينما مر بها حفل حاشد إعظامًا برجل عالم ذكروا لها أنه أقام ألف دليل ودليل على وجود الله تعالى ... فقالت العجوز: أكان الله ضائعًا فوجدوه، أم غائبًا فآب إليهم... فقال العالم عندئذٍ: اللهم إيمانًا كإيمان العجائز. وتلك المرأة التي راودها فاسق عن نفسها وسهل عليها الأمر وأنه لا يراهم إلا الكواكب، فقالت له: وأين مكوكبها.

وقول الآخر: إن البعرة تدل على البعير، والأثر على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدلان على اللطيف الخبير.

وقول الآخر: إن سفينة تبحر من الهند إلى بلاد العرب لا ترى إلا السماء والماء لا يعقل أن تكون بلا ربان يوجهها ويسيرها ... إلى آخر ما جاء في ذلك من كلام العقلاء المؤمنين.

بين مؤمن بالله وكافر به ... بين موسى وفرعون

فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)﴾ [الشعراء: ٢٣].

سؤال منكر لرب العالمين رب السموات والأرض، جاحد لما أقرت به الفطر والعقول والرسل والسموات والأرض وما بينهما.

موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤)﴾ [الشعراء: ٢٤]، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الشعراء: ٢٨].

فهذه السموات بنجومها وكواكبها وشموسها وأقمارها والأرض بجبالها وجناتها وحيواناتها وآدميها، والسحاب والرياح والبحار والصحاري، كلها خلق الله تعالى وتدبيره وترتيبه وتنظيمه وآياته ومظهر علمه وإرادته وقدرته وحكمته ورحمته: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

خلقه بعد أن لم يكن وهداه بالسنن والفطرة والغرائز والإحساس والفكر والعقل والدين إلى ما يصلحه ويوصله على الغاية التي خُلق لها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن هذا التدبير المحكم والآيات البينات دليل عقلي فطري وجداني على مدبر عالم حكيم رحمن رحيم شهدت بذلك العقول، وأقرت الفطر، آمن به جميع البشر إلا شرذمة حقيرة.

تحاور جاحد مع زوجه في سبب موت ولدهما، فقالت له الزوج: إن ولدنا كنا نربيه على أحدث أساليب التربية من غذاء ونظافة ورياضة، فما سبب موته؟

قال الجاحد: فأرادت المرأة أن تقهرني على الإيمان بالله... خالق الأسباب

والمسببات ففررت منها إلى بحث آخر. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فرعون: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾ [الشعراء: ٢٥]، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾ [الشعراء: ٢٧]، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٥١].

يشهر بموسى أنه يقول ما ليس بمعقول عندهم؛ لأنه ينفي الدهرية التي تواطؤوا عليها وارتسموها فيما بينهم، ويظنونها في القرون السالفة كذلك، وأنهم لا يعرفون إلا ما يشاهدونه من عالم المشاهدات، ولا يؤمنون بما وراءه من عالم الغيب الذي هو روح هذه المشاهدات.

موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، والقرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٢-٥٤].

فالقرون الأولى كافرهم ومؤمنهم، وما انطوت عليه صفحات تاريخهم، وسجل أعمالهم، لا يخفى على خالقهم، علمه وكتبه في كتاب عنده لا خطأ ولا نسيان ولا [illegible] ولا إهمال...

ربي الذي جعل لكم الأرض ممهدة صالحة للسكنى، فليست كلها بحارًا لا تصلح لحيوانات البر وأناسيه، ولا هي جبال كلها وصخور لا تصلح للنبات والمعيشة وما تحتاجه الحياة من طعام وشراب.

ومن تمهيده هذه السفن والطرق فيها برية وبحرية يتصل بها مشارق الأرض بمغاربها بالأسفار والتجارات والقوافل والفلك المشحون.

وأنزل من السماء ماءًا عذبًا حلوًا، استخلصه من ماء البحار المر الأجاج، يحيا به النبات والحيوان والإنسان، ولولاه لأقفرت الحياة على وجه الأرض، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل: ١٠-١١].

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق: ٧-١١].

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١].

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨].

سقنا هذه الآيات في سياق احتجاج موسى على فرعون في جحوده لرب العالمين؛ لمناسبتها لحجج موسى وتفصيلًا لما أشار إليه الكليم ﷺ مما جاء في القرآن الكريم بيانه وتفصيله مصداقًا للحديث: «**ونحن معاشر الأنبياء ديننا واحد**»[1].

حقًّا فإنهم سفراء الله إلى خلقه، وشموس هدايته إليهم، فالطرق والعصور متعددة والهدف والصراط واحد، وهي معرفة الله والإيمان به وعبادته وحبه والخضوع له.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان[1]

(٢)

قيام حجة الله تعالى على الجاحد المكابر

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦]. وهرب فرعون من حجج العقل ونور الفطرة إلى جبروت الطغيان فقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]. وهكذا النور يطرد الظلام ويغشى أبصار الجاحدين.

موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٠]. يعني: آية حسية تراها بعينك إذ غلظ حجابك عن دلائل العقل وبداثة الفطرة أو اضطرك كبرياؤك عن الإيمان بما جئت به ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

فرعون: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء: ٣١].

موسى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٣٢-٣٣]. عصا من عصاة البادية، كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى من دفع عاد من وحش ولص وقتل عقرب وثعبان. فألقاها أمام فرعون وملئه فإذا هي ثعبان مبين لا شك فيه، وحية تسعى كأنها جان، ووضع يده في جيبه ثم أخرجها منه بيضاء من غير سوء ولا برص على خلاف بشرته الآدمية وسحنته القمحية.

آيتان يراهما الناس لا لبس ولا تمويه انخرقت بهما العادة وعجز عنهما الخلق، فمن يقدر عليهما غير الخالق المقتدر خالق العوائد القادر على خلافها.

---

(١) الحج – جمادى الآخرة – ١٣٧٦ هـ.

قصة العصا:

وللعصا قصة مع موسى حينما شرفه الله بالرسالة وتكليم الله إياه، فإنه وهو راجع من مدين التي كان قد فر إليها هاربًا من إهدار دمه بمصر فأنجاه الله من القوم الظالمين، وآواه في مدين وزوّجه بها بعرق جبينه وعضلات يديه ورجليه وبدنه، فسبحان من يكرم عباده المخلصين فييسر لهم سبل الخير.

وبينما هو راجع من مدين إلى منبته ومسقط رأسه مصر: ﴿رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: ١٠]. أي: هداة عند النار يدلونه على ما يحتاجه من طريق أو نحوه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١١-٢٣].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل: ٧]. أي: توقدون نارًا تدفئون بها، ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ [النمل: ٨] – أي: النار – ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ٨-١٠]. أي: لم يلتفت وراءه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٠-١٤].

رجل فر هاربًا بدمه ناجيًا بنفسه يهديه الله سواء السبيل ويؤويه إلى صهر

كريم، يزوجه بنته ويرعى له غنمه أجلًا مسمى، ويرجع بعد الأجل ويدرك أهله المخاض -كما تقول الروايات- ويحتاج إلى نار يستدفئون بها، فيرى النار على بعد، فيترك أهله في رعاية الله؛ ليقتبس من النار جذوة أو يجد عليها هداة يستهديهم الطريق، فيجد النار المقدسة نورًا يتلألأ في أعصار الشجرة المباركة، قبس من نور الله، كما تقول التوراة: ينجلي الله من فاران، وفاران جبال مكة، إشارة إلى رسالة خاتم المرسلين (وساعير) طور سيناء. إشارة على نبوة الكليم وفي القرآن الكريم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ (٣)﴾ إشارة لذلك.

فهذا مبدأ تشريف موسى بالكلام الإلهي، والرسالة السماوية وتأييده بالآيتين العصا واليد مع ما انضم إليهما بعد ذلك من الآيات التي تكملت تسعًا كما قال الله عنها: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء: ١٠١]. أي: ساحرًا له، ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. أي: هالكًا لمكابرة الحق والكبر عليه.

ولو لم يكن لموسى غير تقريعه لفرعون بهذه الصراحة الصريحة لكفى في صدقه، وأنه رسول الله المؤيد من الله بعين الله ورعايته.

٣- عود إلى العصا مع فرعون:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٢-٣٥]

تمويه على الطغام من قومه ليصرف عقولهم وفطرهم عن الإيمان بهذه الآية العظيمة.

الملأ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف: ١١١]. أي: أخرهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦)﴾ [الشعراء: ٣٦]. جلاوزة وشرطة ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾ [الأعراف: ١١٢]. نكاثره بهما، ونموه على العامة بما يتوهمونه من معارضة للحق الصارخ.

فرعـــون: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) ﴾ [طـــه: ٥٧، ٥٨]. أي: في ميدان واسع يراه الجميع حتى يعرفوا الحق من الباطل ويشهدوا لنا أو لك.

موسى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ [طه: ٥٩]. أي: العيد الذي يتزينون فيه ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾ [طه: ٥٩]. فيجتمعون في ضحوة النهار لا في طرفيه.

فرعون: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ [طه: ٦٠]. السحرة الذين يكايد بهم موسى، ثم أتى موسى ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه: ٦١]. من عارض بسحره ودجله آيات الله تعالى والسحر تمويه ودجل بخلاف آيات الله السماوية، ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) ﴾ [طه: ٦٢-٦٥]. اعتداد منهم بما جاءوا به من السحر وارتكانًا إليه.

موسى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ [طه: ٦٦]. وثق بأن الحق يأتي على الباطل فيدمغه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [الأنبيـــاء: ١٨]. ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) ﴾ [الـــشعراء: ٤٤]. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه: ٦٦].

فهل كانت حيلة خفيفة من حشو العصى والحبال، أو الزئبق الذي يتمدد بالحرارة فيستقيم القلوي ويتحرك، وتتجمع الحركات فيتخيل من يراها أنها تسعى، أو أنهم سحروا أعين الناس فرأى الناس ما ليس له حقيقة؛ كأن حبالهم وعصيهم تسعى في أعينهم بسبب السحر، لا في واقع الأمر؟ رأيان في تصوير هذا الخيال... من رؤية حبالهم وعصيهم تسعى...

موسى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه: ٦٧]. أن ينخدع الناس بما أدهشهم من سحر السحرة فلا يعودون يصدقون آية موسى إذ أكثر الناس

ينخدع بأول ما يدهشه ويغطي على عقله، وأكثرهم أسرى الخيال مجانبوا الحقائق، وللنظرة الأولى السلطان الآثم على حكم العقل عند أكثر الناس.

٤- النجدة الربانية:

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾ [طه: ٦٨-٦٩]، ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء: ٤٥].

لقفت العصا إفكهم فبلغت العصى والحبال جميعًا على قول الجمهور، ولم ينتفخ لها بطن أو مرت على العصى والحبال فردتها إلى حقيقتها لا سعي ولا حركة، ورجع الناس بصرهم وعقلهم بلا تخييل ولا سحر، فرأوا عصا موسى ثعبانًا حقًا، وعصى السحرة وحبالهم عصيًا وحبالًا فقط، وانكشف الحق وزال التمويه والخيال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، لذلك يضرب الله الحق والباطل.

ظهور الحق وهزيمة الباطل:

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢].

غلبت الفطرة وصرخ الوجدان واستضاء العقل ولمع الحق، واعترف السحرة بالآية الكبرى عصا موسى التي أبطلت سحرهم وأنها معجزة ربانية لا يخلقها إلا رب العالمين، ولا تجيء إلا من رب العرش العظيم، وأن موسى صادق، إنه رسول رب العالمين، وكليم رب السموات والأرض، أرسله الله لهداية الضالين، وإرشاد الغاوين، وإنقاذ المستضعفين من ظلم الظالمين، فأذعنوا له وأعلنوا إيمانهم به وسجدوا لله رب العالمين رب موسى وهارون رب المشرق والمغرب، وأمسوا به موقنين، فكانوا أول النهار سحرة كذابين معارضين للحق، وفي آخره مؤمنين مذعنين لله رب العالمين، فسبحان مقلب القلوب والأفئدة والأبصار.

مكابرة الباطل واضطرابه بحركة المذبوح:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

هكذا موه فرعون على الطغام من قومه، إن هذا تواطؤ من السحرة مع موسى، وكيد كادوه للدولة؛ ليذهبوا بعرش مصر، ويتمكنوا في المدينة ويخرجوا أهلها منها، وفرعون يعلم في قرارة نفسه وسويداء قلبه أن موسى الذي شرد من مصر إلى مدين في عنفوان شبابه وغاب عن مصر أكثر من عشر سنين، وقد تربى قبل ذلك طفلًا في دار فرعون لا يعرف واحدًا من السحرة الذين جمعهم فرعون من مدائن مملكته فضلًا أن يكون كبيرهم.

فموسى الذي تربى في قصر فرعون طفلًا وشابًّا وفرَّ إلى مدين كهلًا، وعاش فيها راعي غنم كهلًا، وشرفه الله بالرسالة والكلام راجعًا إلى مصر، من أين له أن يعرف السحر والسحرة؟ أو يتواطأ معهم على الكيد للمملكة وإخراج أهلها منها؟!

إنما هو التقرير والتمويه وتضليل العامة الذين اجتمعوا ليروا صراع الحق والباطل وعصا موسى وعصى السحرة وحبالهم الخيالية. فظهر الحق وانتصر وهزم الباطل وانخذل.

فماذا يقول زعيم الباطل والغرور والطغيان حتى لا يفلت الحبل من يده ولا تنفتح عيون الناس إلى نور الحق والهدى.

قال فرعون: إن موسى كبير السحرة، وإنه كبيرهم الذي علمهم السحر، وإنهم مكروا مكرًا، وكادوا كيدًا للمدينة؛ ليخرجوا أهلها منها ويستولوا على زمام الحكم، وأزمة السلطان عرش الجبروت والطغيان.

ولجأ إلى سيف الجبروت ووعد بالتهديد والتخويف لهؤلاء السحرة الذين عرفوا الحق فآمنوا به وأذعنوا له وأعلنوه بلا خوف ولا وجل ولا مواربة ولا مداهنة.

الله سبحانه وتعالى في الفطر والعقول والأديان[1]

(٣)

حياة موسى وما فيها من الآيات والعبر:

١- طفل يولد في شعب مضطهد يسومه آل فرعون سوء العذاب، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويسخرونهم في أشق الأعمال فتحتار أمه فيه أيذبح في حجرها وهي تنظر إليه أم ماذا العمل؟ فيوحي الله إليها بالمخرج من هذه الطامة الكارثة والقارعة المحيرة.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ٧]، أي: من الذبح من زبانية فرعون ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، أي: في النيل ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٧-٣٩]، هو فرعون عدو الله وعدو بني إسرائيل مضطهدهم في المهن الشاقة، ومسيمهم سوء العذاب، وذابح أبنائهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تتوفر لهم قوة للخلاص، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

٢- رمته أمه في النيل حيث التماسيح والحيتان والسلاحف والأمواج؛ ثقة منها بوحي الله لها أن لا تخاف ووعده إياها أن يرد إليها ويجعله رسولًا يخلص على يده شعب بني إسرائيل من العبودية والعذاب.

٣- ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩]، حمل اليم تابوت الطفل الرضيع فلا تماسيح ولا حيتان ولا أمواج طافية، بل حفظ الله وعده لأمه وقدَّره لخلاص بني إسرائيل.

---

(١) مجلة الحج – صفر – ١٣٧٧ هـ.

٤ - وسار تيار النيل حتى ألقاه بالساحل في فرضة القصر الفرعوني حيث الخدم والجواري يستقين الماء.

٥ - ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، التقطوه ليتخذوه ابنًا ويتبنوه صفيًّا، والمقادير أعدته ليكون له عدوًّا وحزنًا يخلص بني إسرائيل من الاستعباد، وتزول دولة الظلم على يديه، ويتحقق وعد الله لإبراهيم في بنيه، وتتم كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ويورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها.

تآمروا بقتله إذ لم يخف عليهم أنه لقيط إسرائيلي رماه الخوف من ذبحه إلى لجة البحر، فألقى الله محبته على من يراه ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٩]، ما يخبئه القدر على يديه لهم.

ورضخوا لإرادة امرأة فرعون في إبقائه وتبنيه ورجاء نفعه وهي الملكة، تقول فيسمع لها. ومن ورائها قدر الله المقدور الذي لا يرد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧].

طفل رضيع لا يعيش بلا رضاعة، فهل ترضعه الفرعونيات بلبن فرعون ينمي فيه الظلم والجبروت؟ لا، بل كما قال الله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، فلم يفتح فمه لثدي فرعوني، ولا مصت شفتاه حلمة امرأة منهم، ولا فتقت أمعاءه قطرة من لبنهم.

٦ - ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠]، أي: من الصبر والاحتمال، وغلبت عليها غريزة الأمومة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠]، وتعلن أمره وتصرخ لفقده ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠]، فقلب رباط الإيمان بوحي الله لها ووعده إياها على هلع الغريزة وطيش

الأمومة وعواطف النساء وطبائع البشرية: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١]، واقتفي أثره وانظري أين حمل النيل تابوت أخيك، هل ابتلعه اليم أو التقمه تمساح أو حوت أو رماه الموج إلى الساحل حيث الأعداء وذابح الأطفال الإسرائيلية، أم ماذا كان أمره.

٧- اقتصت الأخت أثر أخيها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: ١١]، أنها أخته، ورأت حرمانه من رضاع أثداء الفراعنة.

٨- فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢]، ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾ [طه: ٤٠]، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣].

رجع موسى الرضيع إلى أمه لترضعه وتأخذ أجرها من فرعون، إنها ظئر متبنية رسميًّا وهي أمه حقًّا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فيا للحظ، أمٌّ ترضع ابنها وتأخذ أجر إرضاعها من عدوهما وهو لا يعلم. ويتربى موسى على لبن أمه في بيت نعمة عدوهما فرعون، إن هذا لهو البلاء المبين.

٩- تربى موسى بين الشعب المضطهد في بيت النعمة والرفاهية، بيت فرعون؛ مضطهد شعب موسى ومذله، وقاتل أبنائهم ومستحيي نساءهم، وسائمهم سوء العذاب.

ولكن إرادة الله التي لا ترد أرادت من موسى الخلاص لشعبه، فصنعه الله على عينه في بيت النعم والرفاهية حتى يشب قوي البدن والروح والعقل، صحيح البنية ماضي العزيمة قائدًا عظيمًا، وعلم الله أن فرط النعيم وغلواء الترف لهما شرور وميوعة وكبرياء واحتقار للضعفاء والمساكين فأراد نقل كليمه إلى خشونة عيش البادية وخشونة الحياة في الصحراء والقرى ويرعى الغنم ويجري وراءها ويسقيها بجر الدلو، فقدر له ما تسمع.

١٠- ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ [القصص: ١٥]، مدينة فرعون ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ [القصص: ١٥]، بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، آل فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥]، دفع موسى عدوه الفرعوني؛ ليخلص منه الإسرائيلي، دفعًا لم يقصد فيه إلى قتله، وإنما كان تخليص المظلوم المستعبد من ظالمه ومذله الذي قيل إنه كان يريد سخرته لحمل حطب المطبخ لقصر فرعون، وكزة لدفع الظالم تقضي عليه؛ لأنها من سوي البدن صحيح البنية ربيب النعمة الذي أعدته العناية الإلهية قائدًا عظيمًا في الحق والخلق ليخلص شعبًا مسكينًا مضطهدًا. وهكذا كانت وكزة قاضية لم تكن مقصودة للقتل، ولكن موسى يأسف لها ويعتذر إلى الله منها ويستغفره فيغفر له.

١١- موسى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ [القصص: ١٥-١٧]، من نعمة الصحة والعافية وتسخير الأعداء لخدمتي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص: ١٧]، ولا عونًا للظالمين.

١٢- موسى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ١٨]، ماذا سيكون من عواقب قتل الفرعوني لتخليص الإسرائيلي منه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص: ١٨]، وهو الإسرائيلي ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القصص: ١٨]، يستغيثه للخلاص من قبطي آخر يسخره على جاري العادة واطراد الحال ومألوف العرف، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨]، لما سببت لي من قتل بالأمس ثم تجرني إلى عمل آخر اليوم، ولكن نجدة المظلوم هي من سجايا من خلقوا لنصر الحق وإعلانه، فتدخل موسى مرة أخرى لنصر المظلوم ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ [القصص: ١٩]، أراد دفع الظالم القبطي عن فريسته الإسرائيلي ولو بالبطش والضرب لدفع عدوانه، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن

تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩)﴾ [القصص: ١٩]، الظاهر أن القائل لموسى هذا الكلام هو الإسرائيلي، وإن كان كلامًا بذيئًا ونكرانًا للجميل؛ لأنه هو الذي علم بقتل موسى للقبطي بالأمس.

ويحتمل أن يكون القائل هو القبطي لما تدل على عبارته: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩] ويكون قد علم بحادثة الأمس وقتل أخيه القبطي مما أشاعه الإسرائيلي في أهله وذويه، اعتزازًا بموسى وقومه ومقامه ومركزه عند فرعون؛ ظنًّا منه أن ذلك لا يضره، لما للأسرة المتألهة من الارتفاع فوق القانون، ولما لموسى من حظوة التبني الفرعوني.

وهنا نقف فنسأل كيف عرف موسى أن الإسرائيلي شيعته والفراعنة عدو؟ هل رضع ذلك من ثدي أمه ولقنته إياه في طفولته، أم السحنة والدم والوجدان والفطرة أوحت إليه بذلك؟

قد يكون كل ذلك طبع موسى على حب شيعته بني إسرائيل وبغضه في عدوه آل فرعون، والغرائز لها حكمها، والحاسة السادسة قال بها أهل التجارب، وأم موسى لا تدخر وسعًا في تلقين ابنها حقيقة الأمر وتعريفه أرومته وأصله.

١٣- النتيجة: تواترت الأخبار لدى فرعون بقتل موسى لفرعوني وهمه بقتل آخر، فلم يعد عندهم ريب أنه إسرائيلي تجري في عروقه دم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأنه هو الذي تتوقعه بنو إسرائيل لخلاصهم، ولأنه كان مخدوعًا فيه إذ صدق امرأته حينما رجت أن ينفعهما أو يتخذاه ولدًا، فقد أفصح اللبن عن زبدة ورجع الفرع إلى أصله، فأهدر فرعون دم موسى وأباح قتله، ونفض يديه عن تبنيه وحمايته.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

سخر الله هذا الناصح لموسى بالخروج فأبلغه تآمر القوم بقتله، ولا يكون هذا الناصح إلا من آل فرعون وحاشيته وحاضري جلسته حتى يتسنى له أن يعرف ما تآمروا عليه وما وضعوا قرارهم لتنفيذه من قتل موسى، وذلك كله إثر إرادة الله تعالى إذ قال فيها: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فموسى الذي صنعه الله على عينه هو عنوان دمار الظلم والغشم وتتبير مُلك الجبار فرعون، فلن يسلطهم الله عليه، ولو عقدوا لذلك مؤامرات، ولو قرروا ما قرروا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١]، هكذا دعا موسى ربه وقت الضيق فاستجاب له ونجاه.

١٤ - (أرض الله واسعة للمهاجرين بحريتهم ودينهم ودمائهم).

موسى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢]. وقد هداه الله إلى السبيل السوي والصراط الموصل إلى مدين.

١٥ - (إيواء الله للمهاجرين بدينه وطريقه).

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]. أنعامهم من إبل وبقر وغنم شأن الرعاة البادين في براريهم، وما أجمل الحياة البدوية في حريتها وطلاقتها وبعدها عن ترف المدن ورفاهة المجرمين.

١٦- صنيع المعروف يثمر الجزاء الحسن.

موسى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]. أي: تمنعان غنمهما وتكفانها، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]. ما شأنكما تكفان غنمكما ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣]. ويفرغُ الرجال الأقوياء ويرجعون عن البئر فتخلو لنا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣]. فليس عندنا من يقوم عنا بهذه المهمة الأليق بالرجال، فلا إخوان ولا فتيان عند الوالد الشيخ الكبير، فللمرأة أن تكسب رزقها عند الحاجة من مهنة شريفة ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤]. شأن المروءة والمعروف الذي يجبل الله عليه عظماء الأخلاق ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤]. شكا فقره وحاجته إلى الله الذي يغيث عباده، فلم يسأل الرعاة مذقة لبن، ولا شكا إلى المرأتين اللتين سقى لهما غنمهما جوعًا ولا فقرًا، واحتسب مروءته معهما عند الله الذي لا يضيع عمل عامل ويجزي بالحسنة حسنات كثيرة من عشر إلى ما شاء الله تعالى، والله لا يضيع أجر المحسنين، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

* * *

الله رب العالمين

في الفطر والعقول والأديان المكابرة[1]

فرعـــون: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥]، الرب الأعلى عندهم يقول لعبيده: فماذا تأمرون؟... الخروج من المأزق بعد ما أضلهم عن الإيمان، وموه عليهم أن هذه الآيات الإيمانية سحر مبين، وأن ما جاء به موسى لهدايتهم إلى الله ودلالتهم عليه تمويه وخداع وسحر مبين. فكيف نسي أنه ربهم الأعلى! وما علم لهم من إله غيره! إله يعجز أمام عباده، ورب يطيش عقله من ضعيف أمامه!

الملأ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ - أخرجوا بهما للفصل فيما جاءوا به. ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٦] جلاوزة وشرطًا وجنودًا ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٢] يجمعون لك السحرة المهرة من عموم البلاد؛ تكاثر بهم هذين وترد سحرًا بأكثر منه.

هكذا أخرج العبيد ربهم من حيرته، وفرجوا كربته وهمه، وأخرجوه من غمه وكربه ودهشته، وأمسكوا له زمام الموقف وحبل السلطان.

الباطل بجيوشه والحق بمفرده:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٩-٤٣]، هاتوا ما عندكم من السحر والبهتان الذي تعارضون به الحق المبين ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٣-٤٥].

---

(١) مجلة الحج – رجب – ١٣٧٧ هـ.

رموا حبالهم وعصيهم تتلوى في أعين المسحورين ويخيل للناس أنها تسعى. لقفت العصا إفكهم، وألقوا من حبال وعصي ابتلعته على قول الجمهور، أو أبطلت سحره فعادت عصيًّا وحبالًا لا سحر فيها ولا خداع، وبطل ما سحروا به أعين الناس. وبقيت العصا، عصا موسى، آية حية وبرهانًا قائمًا ومعجزة بينة، تروح وتغدو بما ابتلعت من عصي وحبال، أو تسعى وتمشي فوقها، فوق حبال باطلة كالتراب والحصى، غثاء لا حركة ولا سحر، بل حطب ونبل وليف لا حياة فيها ولا حركة ولا سعي.

اعتراف السحرة وإيمانهم:

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨]، فرعون ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٩]، تغطية للهزيمة ومكابرة لرد الحق وإصرار على التمسك بالباطل واعتزاز بالسلطان الغاشم وطغيان على الحق الأعزل وصولة بالجبروت الطاغي.

السحرة المؤمنون:

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١].

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١١٩]، دمغ الباطل بصيحة الحق، وما يبدئ الباطل وما يعيد بها، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٧].

واستمر الصراع بين الحق والباطل، واحتدم النضال بين الكفر والإيمان، ورب العالمين يؤيد كليمه ورسوله بالآيات، وسياط العذاب على ظهور الكفر والظلم والطغيان، كما مر بيانه في أول القصة حتى كان ختام النزاع.

الخاتمة:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، أي: ليلًا، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، سيتبعكم فرعون وجنوده ليلقوا ما ينتظرهم في البحر وليمة للأسماك والحيتان ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٣]، جامعين للجنود ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٤-٦٨]، ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

هكذا انتهت الرواية بين أكبر معطل جاحد دهري لا يعترف إلا بالعالم المشهود، ويجحد رب الوجود، وألقى التاريخ ستار الخزي والعار والهزيمة على صرح الظلم والعلو والجبروت، على جبار عظيم وطاغوت فظيع ومفسد في الأرض كبير، وبقيت لموسى آيات كثيرة شرقي البحر في شبه جزيرة سيناء في تربية بني إسرائيل، وتدوين شرائع الله وإقامة الدولة وتكوين الأمة وإخراج شعبه من الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى الحرية، ومن الموت إلى الحياة، مبينة في كتاب الله تعالى، لتفصيلها في موضع آخر، إذ كان الغرض هنا ذكر آيات الإيمان التي تدمغ الكفر، وتعلي حق الإيمان على باطل الكفر.

ومنها: إحياء النفس التي قتلوها وتدارءوا فيها فأمروا بذبح بقرة وضرب القتيل ببعضها، فأحياه الله وأخبر بقاتله.

ومنها: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

ومنها: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ومنها: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

ومنها: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ٦٠] إلى آخر الآيات التي كانت لا تفارق حياة موسى كل وقت وحين، فالله كان مع موسى أينما حل وارتحل ومنها: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

ولو كان موسى في زمان ضلال النصارى الراضين لوثنية اليونان لنسوا يسوعهم (عيسى ابن مريم) وألهوا موسى بدلًا عنه، وقالوا: إن الله نزل إلى الأرض وتجسد ليهلك فرعون.

ولكن شعب إسرائيل الغليظي الأكناف القساة القلوب الذين آذوا موسى وأتعبوه، ولقي منهم كل عنت، وذاق منهم الأمرين، تمردوا عليه مرارًا، وطلبوا منه ما لا يطلبه الأطفال المدللون من آبائهم إذا تدللوا عليهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ [البقرة: ٦١]. -المن والسلوى- ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ ﴾ [البقرة: ٦١]. ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]. وقالوا في عجل السامري ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه: ٨٨]. ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه: ٩١] إلخ.

* * *

مثل آخر في الدلالة على الله

(عيسى ابن مريم) [1]

عيسى ابن مريم الذي ولدته أمه من غير أب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] وأيد بآيات الله تعالى؛ يبرئ الأكمه الذي ولد أعمى وعجز فيه الطب فيرد إليه بصره، والأبرص الذي لا علاج له يمسح جلده فيعود بشرة جميلة لا تشويه فيها، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيرًا بإذن الله، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنين: ٥٠].

فهذه الآيات العيسوية؛ خلقه بلا أب، وإبراؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى، ونفخه في الطين المصور طيرًا فيصير طيرًا بإذن الله، كلها آيات من الله تعالى لتأييد عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وصواعق منزلة من عند الله لحرب الكفرة الجاحدين الذين لا يؤمنون بالله، وآخرها رفعه إلى السماء حيًّا يعيش بين الملائكة كملك كريم، ثم ينزل في آخر الزمان حكمًا مقسطًا وإمامًا عادلًا، فيقتل مسيح الضلالة الذي ضل وأضل الناس بخوارقه الشيطانية، فيقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الدجال الذي لا يستحي من عور عينه اليمنى، والسمة التي بين عينيه (ك ف ر) يقرؤها كل مؤمن قارئ، وغير قارئ.

ومع هذا يوجد من أشباه الأنعام ممن يمشي على قدميه من يصدقه في كفره وضلاله من أجل خوارقه، وقد أمرنا بالاستعاذة من فتنته وإن لم نره، لأن من صدق الخوارق على حساب العقل والدين فقد أصابته فتنة الدجال

(١) تابع للمقال السابق.

وإن لم يره فمن يرى دجالًا يترك الجمعة والجماعة ويأكل أموال الناس بالباطل فيؤمن له أنه ولي الله مع هذا، فقد أصابته فتنة الدجال الأكبر وإن لم يره، فالمسألة كلها إما عقل ودين أو تمويه وتدجيل، والله المستعان.

* * *

الخليل إبراهيم أبو الحنيفية السمحة
دين الجود والنظافة والتوجه إلى الله تعالى
وحج بيت الله الحرام

بعث الله سبحانه خليله إبراهيم ليعرف من الكلدانيين والأشوريين والبابليين وعبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر والأصنام التي تمثل النجوم عند غيابها. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٤- ٧٦] كالزهرة أو المشترى ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] على طريقة قومه ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

فالرب لا يأفل ولا يغيب عن عباده ومخلوقاته ولا يحجبه الأفق ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ [الأنعام: ٧٧] مشرقًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] فهو أكبر من الكوكب وأضوأ في رأي العين ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وأدركه ما أدرك الكوكب من الغروب والأفول ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] الذين لهم كل وقت معبود من المخلوقات يبهرهم بريقه ويدهشهم نوره ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨] طالعة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨- ٧٩].

كان قوم إبراهيم من الكلدانيين والأشوريين والبابليين يعبدون الكواكب والنجوم والشمس والقمر، ويعتقدون أنها أحياء عقلاء تتحرك بإرادتها واختيارها، وتدبر شئون أهل الأرض بقدرتها، وتتصرف فيهم بإرادتها واختيارها، فبرعوا في علم الفلك؛ لمعرفة حركاتها ومواقعها، واخترعوا التقرب إليها بأنواع القرابين والأدعية والعزائم والبخورات، فنشأ فيهم

السحر الذي هو عبادة النجوم والأجرام العلوية؛ من دعاء الشمس والقمر والكواكب السيارات، والعزائم والقرابين والبخورات؛ لإرضائها واستجلاب النفع منها ودفع الضرر.

منهم انتشر السحر في العالم، ومنهم اليهود أيام أسرهم ببابل أيام تسلط عليهم «نبوخذ نصر» الشهير عند العرب باسم «بختنصر» الذي خرب بيت المقدس، وأسر عظماء اليهود وعلماءهم وأجلاهم إلى العراق.

ومن اليهود سرت عدوى السحر إلى المسلمين، حتى ألف بعض علماء المسلمين كتابه «السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم»، ونحو ذلك مما تجده في كتب السحرة من مخلفات عباد الكواكب والنجوم؛ «كشمس المعارف الكبرى» وأبي معشر الفلكي... إلخ.

فبعث الله خليله إبراهيم إلى قومه يعلمهم أن الأجرام العلوية والكواكب السماوية مسخرة بأمر الله تعالى، لا حياة فيها ولا عقل ولا تدبير، وأنها تتحرك وتشرق وتغرب بأمر الله وبيده التي تحرك كل شيء، واستدل لهم بذلك على أفولها الذي يدل على تسخيرها وتصريف رب العالمين لها، وأنها لا تعبد ولا تدعى ولا يتقرب إليها بشيء من القرابين والعزائم، وأعلنهم بخالص التوحيد، ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٨٣]، ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧- ٨٩] سليم من الشرك والضلال وعبادة المخلوقات؛ من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأصنام صورت لروحانيتها بزعمهم.

هل سكت المشركون على إبطال شركهم وبطلان معبوداتهم؟ لا. قال الله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ [الأنعام: ٨٠] أي جادلوه دفاعًا عن شركهم، وفرارًا من حنيفيته وتوحيده ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨٠] في إفراد العبودية له ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى توحيده ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠] خوفوه من آلهتهم إذ أنكرها وأعرض عن عبادتها وهزأ بعبادتها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] لكن إن أصابني شيء فليس من آلهتكم، الجماد الموات التي لا تعقل ولا تفعل، وإنما هو بإرادة ربي الفعال لما يريد ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] إنه الخالق العليم الفعال لما يريد، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، القاهر فوق عباده الذي يجير ولا يجار عليه ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ [الأنعام: ٨١] من جماد وأجرام لا تملك لنفسها شيئًا فضلًا عن غيرها ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٨١]، فأنتم تشركون بالله رب العالمين، شديد البطش، جبار السموات والأرض، القهار الشديد العقاب، فتجعلون له أندادًا من خلقه التي لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وهو سبحانه يكره الشرك ويبطله ولم ينزل به حجة ولا سلطانًا ولا برهانًا ولا يرضاه لعباده ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ [الأنعام: ٨١] المؤمنين الحنفاء الموحدين أو المشركين المتخذي الأنداد لله رب العالمين ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١] ورضاء الحق، ورحمته، ورعايته، ورأفته ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

والجواب فيمن هو أحق بالأمن عند من يعقل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] لم يلبسوا إيمانهم ولم يخلطوه بشرك، بل صفوا إيمانهم من كدر الشرك، وأخلصوه لله رب العالمين، فلم يعبدوا إلا رب العالمين، ولم ينذروا إلا له، ولم يذبحوا الذبائح من هدي وأضحية وقرابين إلا تقربًا لله رب العالمين، ولم يدعوا في شدة أو رخاء إلا رب السموات والأرض رب العالمين ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

إن ما تراه اليوم من تعظيم القبور والمقبورين بالطواف حولها وتعليق السرج ووضع الأنصاب والستور عليها ودعاء أهلها والخضوع أمامهم وطلب الحاجات منهم والاستغاثة بهم، ما هو إلا الشرك غير مقنع، ودين آزر وأبي جهل وأبي لهب بلا خفاء ولا مواربة.

فلسفة عبادة الأصنام والأوثان، وحافز نحتها(١)

هال المشركون من قوم إبراهيم وأفزعهم غياب الكواكب والنجوم عنهم بالأفوال والغروب، فاخترع لهم الضلال والهوى والخيال أن يشيدوا لها الهياكل والمعابد والأصنام التي تذكرهم بها في غيابها، وتحل روحانيتها - بزعمهم - فيها حينما تأفل وتغرب، فكانت هياكل الزهرة والمشترى وزحل والشمس والقمر .... إلخ، في حران وآشور وكلدان والموصل ونينوى.... إلخ.

مهاجمة الخليل الأصنام وتحطيمها

إبراهيم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨- ٨٩] لم يشأ الخروج معهم لعيد لهم، لما يضمره لآلهتهم من الدمار والبوار والتجزير ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠] خوفًا من العدوى، أو إسراعًا إلى حفلهم وعيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١]؛ تهكمًا بها واستهزاء بما يشيعه سدنتها من أخذ القرابين من الطعام والعطور لأجلها، ولإطعامها. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢] هزئ ببكمها وصخريتها، وأنها لا تنطق فلا تعقل، فلا تعدو أن تكون صخرًا أو نحاسًا لعبت فيه يد النحات.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ

---

(١) تتمة المقال في مجلة «الحج» - رمضان - ١٣٧٧هـ.

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٨-٦٠].

محاكمة إبراهيم أمام مجلس عسكري
الخصم فيه هو القاضي

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ليذهب إليه الجلاوزة لإحضاره إلى المحكمة العسكرية: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، ولم يكن لهم عقل يهديهم إلى أنها لو كانت آلهة لما حطمها فتى من الناس - المتهم إبرهيم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، استهزاء بعقولهم التي غطاها الشرك، وكشفٌ للتراب عن أفهامهم، لعلها تعود إليهم؛ أنها لو كانت آلهة حقًّا لدافعت عن نفسها أو - على الأقل - لنطقت بمن حطمها جذاذًا فشكته إليهم وأخبرت عنه. ألا يجوز أن يكون كبيرهم قد غار منهم فلم يردها شريكة له، وأراد الانفراد وحده بعبوديتكم إن كان غار منها فكسرها، فالله رب العالمين أغير منه وهو أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معه فيه غيره تركه.

وربما أراد إيقاظ عقلهم فيفيقوا من غفلتهم، ويعرفوا أن الكبير فضلًا عن صغارهم لا يفعل شيئًا كما لا ينطقون، وإذا تسجل عليهم العجز وعدم النطق كانت جمادات لا تعبد؛ إذ لم تدافع عن نفسها ولم تنطق بمن حطمها.

- المحكمة: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤] ظلمتم الفتى إبراهيم بتهمة تكسير الأصنام، وشهرتم به وأهنتموه؛ إذ جررتموه وأتيتم به على أعين الناس فشهدوا إحضاره للمحكمة مهانًا مكبلًا.

- المحكمة: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، علاهم الخزي والعار ونكسوا رؤوسهم فاعترفوا بالحقيقة المرة التي ليست في صالحهم، فقالوا: لقد علمت وعلمنا وعلم الناس جميعًا أن هؤلاء

الأصنام لا تنطق، ولا كبيرهم يستطيع تكسيرها، فله يد لا تبطش، ورجل لا تمشي، وعين لا تبصر، وأذن لا تسمع، وإنما صورت لتمثل الكواكب في غيابها، وقولك لنا عنها: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢- ٧٣]، حق، فهي لا تسمع إذ ندعوها ولا تضرنا ولا تنفعنا، ولكنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون من عبادتها تعظيمًا فورثناهم في ذلك بغير عقل وقلدناهم بغير بصيرة.

إعلان الحق

إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦- ٦٧] تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب الداعي كما اعترفتم؛ وتكسرت وتحطمت فلم تدفع عنها التكسير الذي صارت به جذاذًا، ولم تنطق بمن فعل بها ذلك، واتهم كبيرها بتكسيرها فلم يحر جوابًا ولا دافع عن نفسه الاتهام، وكسرت شركاؤه أمام عينيه الحجريتين، فلا إحساس ولا علم ولا دفاع ولا صراخ ولا كلام ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، أين عقولكم حتى تبين لكم أنها أصنام لا تضر ولا تنفع فلا تعبد ولا تؤله؟!

المحكمة: لقد اعترف المتهم ضمنًا بفعلته الشنيعة؛ إذ شتم الأصنام وتأفف منها وهزأ بها؛ من بكمها وعجزها عن النفع والضر. فمن يعلن للأصنام بهذا الإعلان ويشجبها هذا الشجب ويجرحها هذه الجروح لا يبعد منه أن يكسرها هذا التكسير ويحطمها هذا التحطيم. وقرائن الأحوال مؤيدة لذلك، فقد تخلف عن الخروج معنا إلى الاحتفال بالعيد بدعوى السقم والمرض، فتجمعت عليه أدلة الاتهام؛ تخلفٌ عنا، وبقاءٌ عندهم، وأصنامٌ محطمة دليل الجريمة، وتهكمٌ بها أمامنا وقت المحاكمة أنها لا تنطق ولا تضر ولا تنفع، والتأفف منها ومنا لعبادتها، كل أولئك أدلة صريحة على

الجريمة والمجرم، فماذا أنتم حاكمون في هذا الجرم الشنيع؟ تداولوا وأصدروا حكمًا صارمًا يردعه وأمثاله.

الحكم

المحكمة: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩٧] ليس أشفى لصدورنا وأدفع للعار عن آلهتنا من حرق المتهم حيًّا في نار الجحيم.

التنفيذ

جمعوا من الأحطاب ما يقدرون عليه، حتى لقد كانت العجوز تبيع غزلها وتشتري حطبًا لإحراق إبراهيم؛ تقربًا إلى الآلهة التي كسرها وأذهب حرمتها، وبنوا البناء الضخم وأوقدوه نارًا حتى صار جحيمًا لا يمكن القرب منه، وارتفع لهبه في أجواء السماء حتى إنه لا يمر به طير في الطبقات العليا من السماء.

وبقيت مشكلة رميه في النار، إذ لا يمكنهم القرب منها، وحرها يشوي من اقترب منها، ولو بقدر ميل.

فاخترع لهم الغيظ والحنق والإسراع بنصر آلهتهم بوحي الشيطان آلة يرمونه بها على بعد، هو المنجنيق الذي ورثه الناس عنهم لهدم الحصون والقلاع وتطور مع الزمن إلى مدافع الهاون وقنابل الحصون وقذائف جهنمية إلى الدبابات والطائرات وقاذفات القنابل، ثم القنابل الذرية.

ووضعوا الخليل في المنجنيق ليرموه في الجحيم وهم من الجحيم بعيدون، وقذفه المنجنيق إلى نار الجحيم، وضجت السموات والأرض والملائكة لحرق خليل الرحمن مكسر الأصنام نبي الحنيفية البيضاء عبادة الرحمن؛ ورفع الخليل بصره إلى السماء وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، ضارعًا إلى رب العالمين، فكانت الآية وظهرت المعجزة وكانت النجدة أسرع من لمح البصر.

النجدة الآية الكبرى

نصر الخليل رسول رب العالمين

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾، ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٨] خسار وسفال باءوا بهما، نار تأرجحت إلى جو السماء لو رمى فيها الحديد لأذابته، لم يُستطع القرب منها، ولا رُمي من أرادوا حرقه فيها إلا بالمنجنيق، قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فتحولت من جحيم لهب يتأجج إلى برد سالم من الأذى، فأصبح البناء الذي بنوه جحيمًا، وأمسى على إبراهيم فردوسًا ونعيمًا وبردًا وسلامًا، (وأرادوا كيدًا) أي: كيدٌ بنار يمسي فيها في غمضة عين رمادًا، فبردت النار بردًا وسلامًا، وجعلهم الله الأخسرين والأسفلين وجعل لإبراهيم لسان صدق في الآخرين.

فهذه ديانات السماء؛ دين موسى الكليم، وعيسى ابن مريم، ومحمد خاتم المرسلين، تجل الخليل وتصلي وتسلم عليه وعلى آله كل وقت وحين، ويسيرون على منهاجه المستقيم؛ من وفقه الله منهم. ولم يبق لآشور وما حولها إلا الذكر السيئ، وخرافات السحر والكهانة، وما يفسد فطر العالمين....

أليس ذلك آية رحمة الله رب العالمين؟ ودليل صدق وبرهان حق على الرحمن الرحيم مالك يوم الدين؟.

حواشي القصة

جاءت الآثار بأن الخليل حينما ألقي في النار ضجت الملائكة إلى الله تعالى: إن خليلك يحرق في النار، واستأذنت بحار الأرض وغيوم السماء في إطفاء النار، وعرض جبريل الروح الأمين على الخليل معونته، فقال الخليل:

أما إليك فلا، وأما إلى الله فعلمه بحالي يغنيني عن سؤالي.

وقال الله للملائكة والسموات والبحار والغيوم: إن استغاث بكم فأغيثوه، وإن استغاث بي فأنا أرحم الراحمين منكم. ومغزى - هذه - الإشادة بكمال خلة الخليل إبراهيم وأنه عبد الله حقًّا.

وصح عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم حينما ألقي في النار - يعني فكان من أمره ما كان - وقالها محمد وأصحابه حينما قالوا لهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] شاغب الكافر في الحياة والموت، فكتم الخليل نفسه بطلوع الشمس وغروبها، فبهت الذي كفر.

كمال خلة إبراهيم في الأمر بذبح بكره إسماعيل

وقال بعض العلماء: إن الحكمة في أمر إبراهيم بذبح بكره وفلذة كبده إسماعيل (أن الله اصطفاه وجعله) خليلًا، والخلة لا تزاحم، ورزق إسماعيل على كبر، فأحبه، فزاحم حبه في قلبه خلته لله تعالى، فأمره الله في المنام بذبحه، فلما امتثل وأسلم تله للجبين وناداه الله: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وصفت الخلة، ولم يزاحمها حب ولد ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٥-١٠٧] وسارت الضحايا في عيد الأضحى سنة ماضية عند الحنفاء من ذريته؛ ذكرى لذلك الحدث العظيم.

دعوات الخليل إبراهيم
أثرها البين إلى اليوم

١- قال الخليل: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فأجاب الله دعاءه وامتن علينا بذلك فقال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وهكذا هو إلى اليوم وإلى يوم القيامة حرمًا آمنا... إلخ.

٢- وقال الخليل مع ولده إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩] فاستجاب الله له وكانت الأمة الإسلامية التي سدت الخافقين من مشارق الأرض إلى مغاربها، وبعث الله فيهم رسولًا منهم؛ محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم، يتلو عليهم آيات الله من الكتاب والحكمة، ويعلمهم الكتاب والقرآن وكتابته والحكمة، فزالت عنهم الأمية وأصبحوا علماء الدنيا وحكماء العالم، ويزكيهم ويطهرهم من درن الشرك وخبائث الأخلاق فللّه الحمد والمنة.

وجاء في الحديث[1]: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم** - يعني قول عيسى ابن مريم كما حكاه الله عنه في سورة الصف: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦] - **ورؤيا أمي؛ رأت نورًا خرج منها فأضاءت له قصور بصرى بالشام**» ﷺ.

٣- ومن دعاء الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٦٥٦، رقم ٤١٧٤) وابن عساكر (١/ ١٧٠).

ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: ثناءً حقًّا على ألسنة الناس بعدي، وقد أجاب الله دعاءه، فأي ذكر أذكر من ذكر الخليل الذي هو أبو أنبياء بني إسرائيل والعرب؟ يجتمعون على احترامه وتعظيمه والصلاة عليه والسلام مع أنبيائهم إلى يوم القيامة، والختانُ وإكرامُ وحجُ بيت الله الحرام ذكريات طيبات لخليل الرحمن ﷺ.

٤ - ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨٥] فاستجاب الله له وأثنى عليه فقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

٥ - ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فاستجاب له وجنبه وبنيه إسماعيل وإسحق وإخواتهما عبادة الأصنام، ولا يزال في ذريته من يعبد الله وحده مخلصًا له الدين.

لذلك [illegible] الله تعالى على ما أنعم عليه فقال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ [illegible] إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

أما دعوته لأبيه بالمغفرة فلم تستجب؛ لأنها كانت معلقة بشرط إيمان أبيه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، أي: حينما قال له: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٦].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهذا التبين من حال أبي إبراهيم آزر لإبراهيم هل كان في الدنيا فيتبرأ منه في الدنيا؟ أو في الآخرة حينما يلقاه وعلى وجه آزر قترة؟. فقال له: ألم أنهك أن لا تعصيني؟ فيقول له آزر: فالآن لا أعصيك فيقول إبراهيم لله: يا رب ألم تعدني أن لا تخزيني؟ وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال له: انظر تحت قدميك.

فإذا بذيخ ملطخ بروثه - أي: ضبع ذكر، يمسخ آزر إلى صورته - فتنتزع

محبته من قلب إبراهيم ويرمى آزر في النار[1].

٦- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي لم تصدق بأني أحيي الموتى ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي أؤمن بأنك تحيي الموتى، ولكن طلبت الرؤية والمشاهدة؛ لأصل إلى عين اليقين فوق حق اليقين، فليس الخبر كالعيان، والإيمان فوقه المشاهدة بالأعيان ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٦٠] قطعهن كما يقول الجمهور: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] أجناحها أو رجلًا أو صدرًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا (أحياء) واعلم أن الله عزيز حكيم، فأراه الله إحياءه للموتى رؤية العين والبصر في هذه الطيور الأربعة؛ إذ ذبحها وقطعها قطعًا ثم دعاها فجاءت إليه سعيًا حية. فقال الخليل: أعلم أن الله عزيز حكيم، يقول للشيء كن فيكون، ويحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

وفي الأنبياء والرسل من بعد نوح في دعوتهم لأقوامهم وحجاجهم معهم وهم أممهم بهم ونصر الله لرسله ومن آمن بهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

في ذلك كله آيات بينات وحجج واضحات على الإيمان بالله رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم تعقلون؛ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم مؤمنين.

* * *

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٥٠).

نوح عليه الصلاة والسلام[1]

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه ليلًا ونهارًا ويعلن لهم ويسر لهم إسرارًا، فيرفضون دعوته ويجعلون أصابعهم في آذانهم ويصرون على الكفر ويستكبرون استكبارًا، ويتهددون بالرجم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] ويرمونه بالجنون ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

لقد كانت دعوة نوح واضحة نيرة لا لبس فيها ولا اشتباه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٣] احترامًا وخشية ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]. من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى جنين إلى مولود إلى رضيع إلى طفل إلى شاب إلى شيخ، ثمن الموت والحياة بعده ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٥- ٢٠]. فرقعة الأرض التي يعيش عليها كل قوم مبسوطة تحت الأقدام فيها السبل والفجاج، ومهدت لمعايشهم وسكناهم، فبسطها تحت الأقدام وفي رأي العين وتمهيدها للسكنى والمعيشة لا ينافي كريتها وأنها كوكب سيار.

فأعرضوا واستكبروا واستكبارًا، وقالوا: ﴿يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]. وأوحى الله إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٦- ٣٨] واستهزءوا به وبعمله الفلك، ولا عهد للبشرية حينئذ بفلك، لا يعرفون إلا الصحراء التي يجتازونها

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - محرم ١٣٧٨هـ.

والبحار التي يقفون على سواحلها، والغرق لمن تحدثه نفسه بالدخول فيها.

ما هذا يا نوح؟! ألواح من الخشب تشقها وتركبها على أضلاع من الخشب كأضلاع الإنسان والحيوان يمسكها عمود فقري كعمود ظهر الإنسان والحيوان وتمسك بعضها على بعض بالدسر والمسامير... يا للعجب لما تصنع! ويا للسخرية من عمل لا مفهوم له!.. أكوخ تسكنه، وليس هو كالأكواخ، فلا سقف ولا أعمدة ولا أركان، أم سقف مقلوب على الأرض؟ هذا هو الهذيان! قل لنا بالله ما هذا الذي لا نفهمه ولا نعقله؟ أخشاب مجمعة على هيئة هيكل عظمي!

نوح: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨- ٣٩].

قومه: تتوعدنا بماء يغرقنا ولم نر ولم نسمع بما يغرق الصحراء والجبال، وإنما رأينا وديانًا تسيل بعد الأمطار، فنهرب منها إلى بيوتنا والهضاب والظراب والآكام، بله الجبال.

وإن كان كما تقول فكيف النجاة منه بألواح متجمعة تغرق براكبها قبل أن يغرق الناس؟. هل سمعت بإنسان أو حيوان ركب البحر قبلك ولو على ألواح مجمعة ركبت تركيبًا لا يفهمه الناس؟ ولم يسبق لهم به عهد ولا ورثوه عن آبائهم الأولين؟!

نوح: اسخروا ما شاءت لكم السخرية اليوم، وغدًا سيعم الدنيا الطوفان ونركب سفينتنا باسم الله مجريها ومرساها. ونسخر منكم حينئذ كما تسخرون منا اليوم وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه حينما يفجأه الطوفان وقد ركبنا سفينتنا ويحل عليه عذاب مقيم من غرق إلى نار الجحيم.

* * *

الطامة الكبرى... الطوفان التاريخي العظيم

حتى إذا جاء أمرنا بهلاكهم بالطوفان وفار التنور الذي يخبز فيه – بالماء – فقد تفجرت الأرض عيونًا بعد ما أرسلنا السماء بماء منهمر.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] ذكر وأنثى؛ جمل وناقة، ثور وبقرة، كبش ونعجة، ديك ودجاجة، حصان وفرس.... إلخ، مما تعمر به الأرض من إنسان وحيوان. ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠] منهم: ابنه وزوجته اللذان لم يؤمنا به ولم يصدقا رسالته ووعيده لقومه ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠] به من قومه، وما أقلهم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣- ١٤]، ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤١- ٤٣]، – بالإيمان والركوب معنا – ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣- ١٥]، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤] عموا عن الحق والإيمان برسالة نوح إليهم، واستكبروا استكبارًا.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أقعلي أيتها السماء عن ميازيب[١]، وابلعي أيتها الأرض، وقضي الأمر.

وأهلك الله الظالمين الذين كذبوا نوحًا وتحدوه. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ

---

(١) الميازيب جمع مِيزَابٌ بكسر الميم وبالزاي معروف، وهو ما يسيل منه الماء من موضع عال.

﴿مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أهلكهم الله بدعوة نوح ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] أي أحدًا يسكن الديار ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] يتربى الصغير على ما رباه الكبير.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥] هكذا أغرق الله الأرض بكفرهم بنبيه نوح ودعوته عليهم بعدما أعرضوا عن دعوته وأصروا واستكبروا استكبارًا، وهددوه بالرجم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] بعدما رموه بالجنون وزجروه ليكف عن نصحهم ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩] فكان الطوفان الذي علا رءوس الجبال جزاء لنوح الذي كفر به قومه وزجروه وهددوه بالرجم ورموه بالجنون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

شفاعة نوح لابنه الغريق

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾

[هود: ٤٥]

الـرب: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فتشفع فيمن كذب المرسلين، ولو كان ابنك لصلبك فليس عند ربك محاباة ولا مجاملات لأجل خاطر فلان.

نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] تاب نوح وأناب من شفاعةٍ لم يرضها الله تعالى، فشرط الشفاعة رضا الله عن المشفوع له وإذنه للشافع، وذلك لم[1] يتوفر في شفاعة نوح لابنه.

نهـايـة وبـدايـة

نهاية القوم الظالمين بهلاكهم وبداية عمارة الأرض بقوم صالحين. ﴿قِيلَ

(١) سقطت «لم» من الأصل.

يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

هبط نوح من السفينة هو ومن معه من ذريته والمؤمنين به، والأزواج التي حملها معه؛ ليعمر بها الأرض مرة أخرى، هبطوا جميعًا بسلامة الله وحفظه وبركاته عليهم لتعمر بهم الدنيا مرة أخرى.

وأمم تنشأ بعد ذلك كعاد وثمود سنمتعهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم منا عذاب أليم في الدنيا والآخرة لكفرهم وتكذيبهم الرسل، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا.. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦].

عبـــرة

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

حجة للنبي الأمي العربي على قومه، أن يعلم من أمر نوح وقومه وطوفانه وفلكه، وأخبارهم الغائبة في جوف التاريخ الماضي السحيق، ما لم يكن يعلم هو ولا قومه، فاصبر على أذى قومك فالعاقبة للمتقين، كما كانت لنوح ومن آمن به.

حواشي الحادثة التاريخية العظيمة:

١- حدث الطوفان الذي طغى على كل حوادث البشر، هل كان عامًا، عم وجه الأرض وغطى جميع أقطارها، وطاف على جميع قاراتها، أم كان جزئيًا حيث كان قوم نوح فقط؟

للباحثين المتعمقين فيه آراء، كل يدعم رأيه بما يراه مؤيدًا له من آثار وحفريات وقواقع وأصداف.

٢- وأين كان قوم نوح؟ هل كانوا بجزيرة العرب أم بصحراء العراق بين دجلة والفرات؟

تعمق لم تتعرض له كتب السماء، ولنا من ذلك العبرة أينما كانوا.

٣- سفينة نوح التي تركها الله آية، وأخبر أنها استوت على الجودي، وذهب من ذهب إلى أنه جبل بالعراق، وجاء عن قتادة أحد علماء التابعين أنها بقيت حتى رآها أوائل هذه الأمة - يعني المسلمين.

وقد ذكرت الصحف أن بعثة أمريكية تريد السفر إلى جبال أذربيجان أو أرمينية، حيث ذكر لها أن سفينة نوح ترسو هناك، وأبت عليها روسيا، متهمة إياها بأن الغرض من ذلك سياسي حربي للتجسس عليها، فالله أعلم.

٤- اشتغل مفسرونا بذرع سفينة نوح؛ طولا وعرضًا، وإحصاء راكبيها وركابها من الأناسي والحيوانات، مما هو فضول لا حاجة إليه، إلا إذا جاء من وجه صحيح يعتمد عليه، وأنى وأين هو؟ والعبرة قائمة بما ذكر الله ولا حاجة لما سكت عنه.

٥- قول قوم نوح: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان هؤلاء قومًا صالحين بين آدم ونوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم أوحى إليهم الشيطان أن صوروهم؛ ليكون أدعى لتذكرهم فلما طال الزمن ونسي العلم، عبدت الصور، وكان الشرك وترك التوحيد. أو ما هذا معناه.

ولذلك جاءت شريعة الإسلام خاتمة الشرائع بالوعيد الشديد على تشييد القبور وبناء المساجد والمعابد عليها، «**ولعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما فعلوا**»[١]، «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد**»[٢]، «**لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[٣]. أحاديث ثابتة، معروفة لدى أهلها.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٢٩- ٥٣١).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٥)، والطبراني (١٠/ ١٨٨)، وقال الهيثمي (٢/ ٢٧): إسناده حسن.

(٣) رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠).

رسول الله هود إلى قومه عاد

عمرت الأرض ممن حمل نوح في فلكه المشحون، وانتشر العمران حتى جنوب الجزيرة العربية حيث الأحقاف من حضرموت، وكانت عاد الأولى ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١- ١٢]، وأعادوا وثنية قوم نوح التي كانوا عليها قبل الطوفان وقالوا فيها: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾، ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وهم ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٧- ٨] أي كانوا أقوى قبيلة على وجه الأرض حينئذ.

فأرسل الله إليهم نبيه هودًا عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الله وإلى عبادته ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] كاذبون على الله في اتخاذكم معه شركاء ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥١- ٥٢]، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٣٥].

عاد: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦- ١٣٨]، ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. تخديش في وجه الحق، وترديد لما يقوله في كل زمان ومكان المبطلون المصرون على باطلهم، المعرضون عن النور والهداية.

هود: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ

سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١]، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٤- ٥٧].

العاقبة[1]

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٨- ٦٠]، ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩]، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ - له صرير من شدته - ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ١٨- ٢١]. ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٦].

فجحد آيات الله يعمي الأبصار ويصم الأسماع ويطبع على القلوب والعاقبة الجحيم ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - ربيع الأول - ١٣٧٨هـ.

أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦] أخزاهم الله في الدنيا بتصديق وعيده على لسان نبيه هود عليه الصلاة والسلام، فأهلكهم بالريح الذي لا حياة لحيوان ولا إنسان إلا به، ألا تراه في هدوئه وسكونه متنفس الإنسان والحيوان، بل الأشجار والنبات، ولكنه في ثورته وهياجه يقلع الأشجار والبنيان وينزع السفن من ظهر البحار إلى العراء والصحراء، ويخرب العامر ويدمر كل شيء بأمر ربه فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فلا بساتين، ولا أنعام، ولا زروع، ولا قوم عاد الذين قالوا من أشد منا قوة، فسبحان من يضع سره وقوته في أضعف خلقه! ومن يجعل من سبب الحياة سببًا للهلاك والدمار، هواء به حياة النفوس ينقلب ريحًا تدمر كل شيء!.... آمنت بالله العظيم... ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٨].

نبي الله صالح ورسوله إلى ثمود

تحول العمران إلى شمال جزيرة العرب؛ إلى الحجر ديار ثمود والذين عمروا الأرض من بعد عاد، ونحتوا من الجبال بيوتًا فارهين، وأوغلوا في الترف والإسراف، وأصابهم ما أصاب من قبلهم من الفساد والإجرام، والشرك والضلال، والطغيان في البلاد والإكثار فيها من الفساد، فأرسل الله إليهم نبيه صالحًا عليه الصلاة والسلام ينصحهم ويعظهم قائلًا: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٣-١٥٣]، ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]، ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ [النمل: ٤٦]،

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف ٧٤]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

ثمود: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٤]، ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥]، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

فأعلنوا كفرهم بصالح الذي آمن به ضعفاء قومه ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] تشاءموا به وبدعوته، نسبوا ما يصيبهم من الشر لكفرهم؛ نسبوه إلى صالح ودعوته والمؤمنين به كما فعل قوم فرعون من بعدهم ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

آية صالح الناقة

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧- ٢٨]، ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥- ١٥٦]، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]. طلبوا من صالح آية على رسالته وصدقه فكانت الناقة.

وذهب المفسرون إلى أنها أخرجت لهم من صخرة حجرية، وإذا استبعد المألوف ذلك فقد سماها آية، فاعلم أنها آية صالح على أي وجه كانت،

وعلى كل حال أهلكوا بكفرهم بها فلا تكن من الكافرين.

التمـرد والعصيـان

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩]، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾، ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩].

الفاصلة، الصاخة، الصيحة

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣٠، ٣١]، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] رجفة من الأرض وصيحة من السماء قطعت نياط قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين، جثوم الطير في أوكارها كهشيم داسته الماشية في حظيرتها بأقدامها فمزقوا شر ممزق ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]، ومتى كان المفسدون يحبون الناصحين وأين هذا؟ فانظر قصص الله عن الأمم وأنبيائهم ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وجاء في المأثور خروج الناقة من صخرةٍ صماء، وأوصافها وأوصاف

فصيلها، وكمية لبنها، إلى غير ذلك مما تجده في كتب الآثار والسير والتفاسير. دار الزمان وتحول العمران بعد ثمود إلى العراق؛ بابل وآشور وكلدان، وكانت بعثة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما كان من أمره معهم، وقد قدمنا خلاصته منها في قصة الخليل مع قومه.

ومن تمام قصة الخليل قصة لوط الذي آمن به وهاجر معه من العراق والشام، ولما نصر الله الخليل إبراهيم على قومه ونجاه من النار التي أوقدوها لإحراقه قال: إني مهاجر إلى ربي سيهدين، فآمن له لوط وهاجر معه من العراق إلى جنوب الشام، حيث بيت المقدس الآن، وعمروا الأرض بما وهب الله لإبراهيم ولده إسحق وحفيده يعقوب وابن أخيه لوط وبقية ذرية إبراهيم على ما جاء في التوراة وسير الأولين.

* * *

لـــــــوط

أكرم الله لوطًا بالرسالة إلى أهل «سدوم» من قرى فلسطين بقرب مساكن آل إبراهيم حيث البحر الميت الآن ذي البوتاس الكثير.

وكانت قرية سدوم تعمل الخبائث التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، كانت تأتي الذكران من العالمين، وتدع ما خلق الله لها من النساء، إنهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين، فأرسل الله إليهم رسوله لوطا ناصحًا واعظًا ناهيًا عن تلك الخبائث والرذائل إذ يقول لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف ٨٠- ٨١]، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٩- ١٨٠]، ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥]، ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨] المبغضين ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩].

قومه: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] يتنزهون عن أعمالكم ويعدونها قذرًا يتطهرون عنه – هذا وهو غريب عنكم، لصيق بكم – فما لهذا العراقي واستقذار أعمالنا والنقد لأعمالنا والنفرة عما أحببناه والتشهير بشهواتنا وإتيان الرجال دون النساء.

* * *

ضيف إبراهيم وهلاك قوم لوط

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٦] جاء بعجل سمين حنيذ مشوي ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، فلم يأكلوا ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] هو إسحاق ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] - ضجيج - ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٩- ٣٧] عظة لمن يؤمن بعذاب الله للمجرمين، ودليلًا على أن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] مشوي على الحجارة المحماة بالنار وهو ما يسمى في الحجاز «بالمندي» وهو أطيب أنواع اللحوم المطهية.

فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛ لأنهم ملائكة لا تأكل ولا تشرب وتقول التوراة إنهم أكلوا. وهذا غلط من كاتبها ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] لأن من لا يأكل طعامك ربما كان يضمر لك شرًا.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٠- ٧٥]، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، أي فكيف تقلبونها؛ عاليها سافلها ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

[العنكبوت: ٣٢]

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ ﴾ [هود: ٧٦] الجدل في هلاك قوم لوط ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٧٦]، ولا يرد بأس الله عن القوم المجرمين.

مقدمات الهلاك وأسبابه[1]

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ [هود: ٧٧] استاء من مجيئهم إليه وضاقت نفسه أين يؤويهم من قومه الخبثاء.

وقال: هذا يوم عصيب شديد كريب؛ لما يتوقعه من قذارة قومه وخبائثهم، فاسمع القصة للنهاية. ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ [هود: ٧٨] – يسرعون إلى صيد ثمين؛ شبان حسان، سال عليهم لعابهم، وراودوه عن ضيفه؛ يا لوط: إن عندك ما نتوق إليه ونحن فيه؛ ضيفك هؤلاء الشباب الجمال المرد الحسان.

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ٧٨] فليست هذه أولى خباثاتهم، وذلك ديدنهم طوال أيامهم فليسوا حدثاء عهد بذلك.

لوط: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: ٧٨] عرض عليهم بزواجهم ببناته، أو الاقتناع بزوجاتهم اللائي وصفهن بأنهن بناته ترغيبًا فيهن، هن أطهر من الرجال فقد خلقن لذلك ﴿خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨] يحس بفظاعة هذا الخبث، ويعلم أن إهانة الضيف سخف، ولا سيما بمثل هذا النوع من الإهانة.

قومه: ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] ياللسخافة! لا حق لهم في البنات ولهم حق في الضيف وإهانته أشنع هوان!! هذا هو

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» – جمادى الأولى – ١٣٧٨هـ.

المسخ وانحراف الفطرة.

لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، كان غريبًا بينهم، فلا عصبية، ولا أقارب يحمونه، فقد كان مهاجرًا عراقيًا عاش بينهم، وليس فيه له ركن يركن إليه؛ من جوار أمير وحماية عظيم، وفي الحديث: «يرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1]. هو الله سبحانه وملائكته الذين نزلوا لنصرته، ولكنه كان لم يعرفهم بعد، وفي الحديث الآخر ما معناه: «ما بعث الله نبيًّا بعد لوط إلا في عصبية من قومه»[2] - أي ليحموه من سفهائهم - وما بعد الشدة إلا الفرج ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الملائكة: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. تفرج كرب لوط حين أخبره الضيف أنهم رسل ربه، وأمروه بالخروج ليلًا من هذه القرية الظالم أهلها، وأن لا يرجعوا إلى الوراء حيث الهلاك والزلازل والخسف، والهرب بأهله إلا امرأته، عجوز السوء التي كانت على دين قومه، وتخون لوطا، فتخبر بضيوفه وتمالئ قومه ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ [هود: ٨١] من الخسف ورمي الحجارة ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

إن موعدهم في الهلاك الصبح؛ صبح تلك الليلة، أليس الصبح الذي لا يبعد عنك سوى ليلة واحدة قريبًا، أي قريب.

العقـــاب الأليـــم

أوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

جاءوا بأعين مفتوحة للشر والخبث، فرجعوا بها مطموسة يتلمسون الطريق بأيديهم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] عمى بعد بصر، ما أشده من عمي!

وثانيًا: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢] ائتفكت فقلبت

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٨٧، ٤٦٩٤).

(٢) رواه الترمذي (٣١١٦).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] قرية قوم لوط أفكها، فقلبها [1] وأهوى بها في جوف الأرض. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ [الأعراف: ٨٤] أي من الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

قال ابن كثير في «تفسيره»[2]: وبقي موضع القرية بحيرة مالحة، لا يعيش فيها حيوان من سمك وحيتان، لشدة ملوحتها، تسمى بحيرة لوط. اهـ.

وهو ما يسمى الآن بالبحر الميت، شديدة الملوحة بأملاح الفوسفات التي تقتل الأحياء من حيتان وأسماك، وفي الآثار أن جبريل رفع القرية بريشة من جناحه إلى السماء، حتى سمعت الملائكة صياح ديوكهم، ثم قلبها. وهو تصوير للقوة الإلهية التي اقتلعت القرية من أسسها ورفعتها في الجو إلى ما شاء الله، ثم قلبتها، وكان من لوازم ذلك مطر الحجارة المسومة من سجيل وطين ... إلخ.. وكيف يتصور ذلك العقل العصري؟ من بركان كان تحت القرية، فثار فجعل عاليها سافلها، فقد كان ما أخبر الله به عنهم وثوران البراكين أمرًا معروفًا للبشر في كل زمان ومكان، وقد حدث في إحدى البلاد قبل العام الماضي خراب عظيم في القرى والبيوت لا تزال حكومتهم مشتغلة بتعميره إلى الآن، وقد قدروا خسارة ذلك بملايين الليرات، فسبحان القاهر فوق عباده الذي يرسل من آياته ما يخوف به عباده لعلهم عن غيهم يرجعون.

* * *

(١) في الأصل «فقبلها».

(٢) لم نجد هذا النص في تفسير ابن كثير.

نبي الله شعيب رسول الله إلى مدين والأيكة

ومدين شرقي بحر القلزم البحر الأحمر، حيث يلتقي الحجاز بالشام، وفيها كان هرب موسى من فرعون، ولعلها بقرب العقبة أو أيلة أو تبوك.

ولقد سار العمران من العراق إلى الأرض المقدسة من جنوب الشام مع الخليل إبراهيم وبنيه، وسار من بلاد العرب من الحجر ديار ثمود بعد هلاكهم ونجاة صالح ومن آمن به حتى التقيا بمدين، فازدهر فيها تجارة وبيعًا وشراء وكيلًا ووزنًا، غير أن أهل مدين أساءوا المعاملة وبخسوا الكيل والميزان وبخسوا الناس أشياءهم وعثوا في الأرض مفسدين، فبعث الله إليهم نبيه شعيبًا يذكرهم بالله وينصحهم في حسن المعاملة ويأمرهم بالعدل في الأخذ والعطاء فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤] - فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف - ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤]. ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٨٥- ٨٦] ما يبقى لكم من ثمرات طاعة الله - الباقيات الصالحات - خير لكم مما تكسبونه بالسحت ونقص الكيل والميزان.

أهل مدين: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

تهكموا بدينه وصلاته وأوغلوا في الحرية الشخصية، ولو كانت تخرب العمران وتهلك الاجتماع، مثلما تراه اليوم في أشباههم ممن يهلكون الحرث والنسل بدعوى الحرية الشخصية.

شعيب: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨] فأنا واثق من ديني ومتبين أمره وصلاحه لي ولكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ [هود: ٨٨] فنصحي خالص لكم لا تشوبه شائبة حسد لمكاسبكم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ

أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨] شأن الناصح الأمين يكون أول من يعمل بنصحه كما قال صاحب يس: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١]، والواعظ إذا خالف ما يقول هدم وعظه من حيث لا يشعر ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]، ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٨- ٨٩]. حذرهم ما أصاب الأمم قبلهم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وقوم لوط قريب منهم زمانًا ومكانًا.

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] هذا غاية ما ينصح به الناصح قومه، وهذا آخر ما يشفق الشفيق عليهم.

المدينيون: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١] أعرضوا عن نصيحته وزعموا أنهم لا يفقهون ما يقول كإخوانهم قوم نوح حينما جعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارًا.

ثم هددوه برجمه؛ لأنه ضعيف في نظرهم لولا رهطه وقبيلته وعصبيته التي يخافونها.

شعيب: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢] كان يجب أن تحترموني لأني رسول الله إليكم وهاديكم إلى الصراط المستقيم لا أن تخافوا رهطي، فالله ربكم هو الأحق بالخوف والرهبة واحترام رسوله، وقد اتخذتم الله وراءكم ظهريًا وأعرضتم

عن شرعه ودينه، مع أنه محيط بكم وبأعمالكم يحصيها عليكم ليحاسبكم بها.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ [هود: ٩٣] سيروا على ما تختارون لأنفسكم من هداية أو ضلال، من رشاد أو غواية فالدنيا مزرعة والحصاد في الآخرة ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود: ٩٣] قريبًا تعلمون من يخزيه الله بعذاب. جزاءً وفاقًا، وقريبًا تعلمون من هو الكاذب على الله ومن هو الناصح لكم، ترقبوا حكم الله بيننا وبينكم فأنا مترقب ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

حوار آخر بين شعيب وأهل مدين

شعيب لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾ [الأعراف: ٨٦]، طريق ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: ٨٦]، فالجلوس في الطرقات من آدابها؛ هداية المار بها، لا إضلاله وصده عن السبيل التي يريد الهداية والاستقامة، فإن أصر على البحث عن الخير والحق توعدتموه بالأذى والشر، فكنتم قطاع طريق الله على مريدي الخير والدين الحق، تريدون تعويج طريق الله حسب هواكم وما تعودتم من الشر، تبغونها عوجًا والله يحب لطريقه الاستقامة وعدم الاعوجاج.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]. اذكروا نعمة الله في الكثرة بعد القلة فهذا دليل الرخاء وإسباغ

النعم والأمن والطمأنينة، واعتبروا بعاقبة المفسدين وما أصابهم من سيئات أعمالهم وفساد أحوالهم، فهذه حال قوم نوح وقوم هود وصالح وما أصابهم بكفرهم وتعذيبهم رسله ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] في الزمان والمكان ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] تعليل للمؤمنين به أن يصبروا على أذى من لم يؤمن به؛ من توعدهم بأذى من آمن به وصدهم عن سبيله وابتغاء تعويجها، وتسلية لهم بانتظار حكم الله في المتخلفين من خلقه، وهو خير الحاكمين.

ملأ مدين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] تهديد لشعيب وقومه بالطرد والإخراج من الوطن إذا لم يعودوا في ملتهم ويسكتوا عن كفرهم وفسادهم، بعد التهديد بالرجم بالحجارة والوعيد بالأذى والشر لمن آمن به.

شعيب: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] لملتكم تعيدوننا فيها كرهًا، وقد أنكرناها وتبرأنا منها وأعلنا بطلانها والبراءة منها ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فمن ينكر شيئًا ثم يعود فيه ويقره أهله عليه فهو كاذب مفتر، كيف ينكره ثم يقره؟!.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] بتسليم الأمر لحول الله وقوته الذي بيده القلوب وتصريفها ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وفي الحديث: **«القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»**[1].

---

(١) مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

«اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. ربنا احكم بيننا وبين قومنا هؤلاء الذين ندعوهم إلى دينك الحق فيهددونا بالرجم وبالإخراج من الوطن إن لم نعد إلى ضلالتهم وملتهم الباطلة - وأنت خير الحاكمين - خير من يحكم بالحق بين الخصماء قدرًا وشرعًا ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] موضحًا فيه طرق الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر.

أهل مدين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] أوتتركون دين الآباء وما عرفتم عن سلفكم؟ وتتركون حريتكم في التصرف في أموالهم بما تشاءون من نقص في الكيل والميزان وتطفيف وبخس، مما تسوله لكم حريتكم الشخصية؟!.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، نراك مسحورًا أنكرت ديننا، ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قطعًا من العذاب الساقط من السماء ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

شعيب: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨] وإليه الأمر في عذابكم ومتى يكون وكيف يكون؟ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ٩٣] على ما اخترتم لأنفسكم من كفر وضلال ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ [الأنعام: ١٣٥] - بما أمرني ربي من دين ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

* * *

---

(١) أحمد ٢/ ٤١٨، والنسائي في الكبرى (٧٧٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحكم الحق

والفتح بين الخصمين(١)

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود: ٥٨]- إهلاك المبطلين - ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٩٤- ٩٥]، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢- ٩٣]، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

رجفة من الأرض، تحرك بركان فيها فكانت صيحة عظيمة، تبعها دخان وغبار وحرارة قاتلة، فاجتمع عليها غضب الله المتفجر من الأرض، رجفة وصيحة صارت فوق رؤوسهم دخانًا وغبارًا وحرارة جزاء كفرهم واستهزائهم بوعيده إذ قالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧] جثوم الطير في أوكارها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٨].

الحزن على الهالكين

هلكت مدين ومن حولها من أصحاب الأيكة والزراعة؛ من ريفهم وبدوهم، كأن لم يغنوا فيها، فأصبحوا أثرًا بعد عين، وأحاديث لمن بعدهم، فكأنهم لم يوجدوا في مدين ولا فيما حولها من قراهم الزراعية.

شعيب: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وأعرض عن كارثتهم وقال مسليًا لنفسه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣] كيف أحزن على هلاك من كذب الرسالة وتوعدني بالرجم

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - شعبان - ٢/ ١٢/ ١٣٧٨هـ.

والإخرج من الوطن والديار. إنما نصحي لهم لعبادة الله وتوفية الكيل والميزان وإنصاف الناس في عدم بخس الناس أشياءهم وتأمين الطرق للسالكين وعدم الصد عن سبيل الله المستقيمة وعدم بغيها عوجًا، ومن خالف ذلك لا يحزن عليهم ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

العبـــرة

والعبرة: أن لله صراطًا مستقيمًا ودينًا حقًا يرسله على ألسنة رسله وسفرائه إلى خلقه كما قال لآدم وحواء وإبليس: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨- ٣٩].

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] – آدم وإبليس – ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٨].

وهكذا توالت هداية الله إلى خلقه على ألسنة رسله، وجاءت رسل الله تترى، وصدق الله وعده ووعيده فيمن اتبع هداه أن لا يضل ولا يشقى ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وفيمن كفر وكذب بآيات الله وأعرض عن ذكره أن له معيشة ضنكًا ويحشر يوم القيامة أعمى ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]. هكذا قص الله علينا قصة أنبيائه ورسله مع أممهم لنعتبر ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

العبر والآيات في رسالة خاتم المرسلين

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ

لقد كان فيما سقت من بعض قصص المرسلين نوح فمن بعده من العبر والآيات الدالة على الله ربهم ورب العالمين ومرسلهم، شموس هداية لخلقه، ما يكفي من هداه الله تعالى ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. والآن نسوق من آيات الله وعبره في بعثة خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ ما فيه عبرة وذكرى لمن يتذكر.

ولد محمد في مكة يتيمًا فكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] إلى جد رحيم به، وعم عاقل شفيق عليه، ثم شب في قريش أميًّا بين قوم مشركين، فلا قراءة ولا كتابة ولا تعليم، وكان يعيش من رعاية الغنم صغيرًا ومن الأجرة في مال خديجة شابًا، فنشأ فقيرًا في قومه بين شركهم وضلالهم فهداه الله بالرسالة وأغناه بالمضاربة في مال خديجة ورغبتها في التزوج به ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٧، ٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

عاش محمد بين قومه الضلال المشركين أربعين سنة، لا شعر ولا خطابة ولا محافل، ثم شرفه الله بالرسالة تصديقًا للتوراة (تجلى الله من فادان): أي جبال مكة التي سكنها إسماعيل مع أمه هاجر، وإجابة لدعوة الخليل إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقالت التوراة أيضًا: (وسأبعث في بني إخوتهم – بني إسماعيل – نبيًّا مثلك).

وقال عيسى ابن مريم: «مبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» ولا تزال هذه البشارة تلوح في إنجيل عيسى بلفظ: «وسأذهب ويأتيكم الفارقليط يعلمكم كل شيء» والفارقليط أوبر كليس: هو محمد أو أحمد كما اعترف بذلك المنصفون من

النصارى، خلافًا لمن صرفها منهم على عادتهم بالمعزى أو المخلص، ومن الذي جاء بعد عيسى مخلصًا ومعزيًا يعلمهم كل شيء يوبخ العالم على خطيئته غير محمد العربي الهاشمي.

نتوج هذا البحث بحديث عائشة في «الصحيحين» كيف بدئ رسول الله ﷺ بالوحي، روى الشيخان البخاري ومسلم[1] من حديث محمد بن شهاب الزهري شيخ المحدثين، عن عروة، عن خالته عائشة أم المؤمنين قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الوحي كرؤياه الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - أي مثل ضوء الفجر وضوحًا - ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - أي يتعبد - الليالي ذوات العدد، ثم يرجع لخديجة ويتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ». قال: فأخذ فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: «ما أنا بقارئ». فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: «ما أنا بقارئ». فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

قال: فرجع بها ترجف بوادره - فؤاده - حتى دخل على خديجة وأخبرها الخبر. وقال: «لقد خشيت على نفسي» فقالت له: كلا أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب بالعربية من الأنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم! اسمع من ابن أخيك.

---

(١) البخاري (٣، ٣٣٩٢)، ومسلم (١٦٠).

فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله - فيما بلغنا - حزنًا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي بنفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًّا فيكن بذلك جأشه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. اهـ.

قال ابن كثير[1]: وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» من حديث الزهري... إلخ.

نقف هنا وقفة قصيرة فنقول: لقد كانت خديجة بنت خويلد وابن عمها ورقة بن نوفل أعقل ألف مرة ومرة من عميد كلية الطب بالعراق اليعقوبي[2].

خديجة بما عرفته من أخلاق محمد وسيرته ظاهرًا وباطنًا وعشرتها له قبل النبوة وبعدها، وورقة بن نوفل بما قرأه من أحوال الأنبياء في التوراة والإنجيل في لسانهما العبراني، وبما اضطره مما عرف من فساد وثنية العرب إلى التنصر وفراق دين قومه وآبائه.

خديجة وورقة والسابقون الأولون إلى تصديق محمد في رسالته كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأمثالهم، بل النجاشي وهرقل والمقوقس وعقلاء الدنيا قديمًا وحديثًا من رجال العلم والدين والسياسة أعلم وأعرف وأنصف وأعدل في الحكم على محمد وصدقه ورسالته من هذا المقلد لأعداء الإسلام الذي يقرر بحماقة أن محمدًا كان مصابًا بصرع في دماغه

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٤٥٩.

(٢) بعده في الأصل نقط.

وهذي فسمى الناس هذيانه قرآنا.

يالتضحية الطب من انتساب مثل هذا إليه، ويالخسارة من يسلمون أولادهم لهذا المفتري، وكيف رضي قطر إسلامي لمثل هذا أن يتربع على كرسي العميد؟! نترك هذا للعقلاء في ذلك القطر العربي الإسلامي، ونقول لهذا الباهت الأفاك الأثيم: إن مأوى المصروعين مستشفى الأمراض العقلية يُجر إليها أمثال هذا ليعالج من هذيانه ولا يترك لإفساد عقول النشء.

هذا هو محمد رسول الله ﷺ الذي لم تنجب البشرية ولن تنجب مثله، تلقى من السماء أكمل دين أنشأ به دولة وامبراطورية فشملت[1] وجه البسيطة من الصين إلى المحيط الأطلسي؛ من مطلع الشمس إلى مغربها، دين اعتنقه الملايين باختيارهم؛ فيهم العقلاء والحكماء والقواد والعظماء والملوك والساسة والجماهير.

لقد تولى الله الدفاع عن نبيه لما وصفه سفهاء قومه فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ١-٢]، وقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١- ٥٢]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ إلخ سورة المؤمنين [المؤمنون: ٦٨- ٧٤] أفهذا هذيان أيها الرجال؟! وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٤- ٣٧] فالمجنون يجيء بأعمال أحط من أعمال الصبيان، ومحمد جاء بالحق وصدق المرسلين الذين بشروا به من قبل؛

---

(١) في الأصل «فسمت».

موسى في التوارة إذ يقول: (تجلى الله من فاران) أي: جبال مكة. وتقول عن الله تعالى: (وسأبعث فيهم في بني إسماعيل نبيًّا مثلك) أي: مثل موسى. ويقول عيسى ابن مريم: (وسأذهب ويأتيكم الفارقليط - بركلس - يعلمكم كل شئ). ويدعو إبراهيم ربه: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

[(١)] ونسأل أعداء الإسلام؛ باهتي رسوله محمد ﷺ هل كان دين العرب من عبادة الأصنام ووأد البنات والغارات بعضهم على بعض كل وقت وحين وتفرقهم شيعًا وفرقًا وانتقاص الفرس لشرق جزيرتهم والأحباش لغربها، هل كل ذلك كان حقًا وخيرًا؟ والإسلام الذي جمعهم على عبادة الله، وحرم الفسوق والعصيان والفواحش ما ظهر منها وما بطن من ربا وزنى وخمر وأكل أموال الناس بالباطل وظلم الضعيف والمسكين وحرمان النساء وأكل أموال اليتامي بالباطل؛ هل كان هذا وأمثاله خيرًا على البشرية؟.. حتى يجئ أعداء الإسلام والبشرية فيبهتوا رسول الله بل رسول البشرية بهذا البهتان الذي استحى منه أعداؤه الأولون؟!.

إن كان المصروعون يستطيعون أن يعملوا ما عمل محمد فليت جميع الناس مصروعون، إذًا لكان الناس غير الناس، ولكان البشر ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين، ولما كان الناس في حاجة إلى رسل مبشرين ومنذرين.

إن الشرق والغرب والعالم قديمه وحديثه من أوروبا إلى أمريكا ومن آسيا إلى إفريقا يعيش في النور الذي جاء به خاتم المرسلين، سواء منهم من اعترف به ومن جحده.

وإن أوربا التي عاشت في ظلمات الجهل والعمى أبصرت الشمس التي طلعت عليها من سماء الأندلس - شمس الإسلام - وبما استفادت من

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - شوال - ١٣٧٨ هـ ١٣/ ٤.

الاختلاط بالمسلمين أيام الحرب الصليبية، فكسرت الأغلال التي غلهم بها الملوك والرهبان، ووضعت لنفسها قوانين الرقي ودساتير التقدم مأخوذة عن الإسلام، وإن لم يعترف به.

قل - بربك - ما الذي هدى أوربا إلى مجالسها الرسمية وتقرير الحكم فيها بالشورى ومحاربة الظلم والاستعباد وإبطال الرق وتجارة الرقيق الأبيض وحرية الفكر والعمل وفك قيود العقل من أسر الكنيسة والكهنوت؟ إن كنت في شك من ذلك فسل أحرار أوروبا وعقلاءها المنصفين.

ونعود إلى سيرة محمد خاتم المرسلين في قومه بعد ما شرفه الله بالرسالة والنبوة فنقول ومن الله نستمد العون والتوفيق:

وسار محمد في تبليغ رسالة ربه بمكة ثلاثة عشر عامًا، صبر فيها على أذى المشركين امتثالًا لأوامر ربه ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

تعنتوا عليه في رسالته فطلبوا منه ما لا يطلب من البشر ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ - يقابلوننا وجها لوجه - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى

ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٦].

طلبوا هذه المطالب التي ليست من مقتضى رسالته ولازم نبوته، بل هي العنت والصد عن سبيل الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ [الزخرف: ٣١]- مكة والطائف - ﴿ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾، ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٦-٩].

ولقد ج[illegible] [illegible] وثنيتهم وأصنامهم ودين آبائهم أشد الجدال ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ١-٣] أي فنادوا وقت ما حاق الهلاك بهم وما كان الوقت وقت فرار من الهلاك ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ مقصود مدبر ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ [ص: ٤-٨]. ما ذاقوا العذاب على كفرهم الآن، وسيذوقونه قريبًا إن بعثوا على هذا الكفر. ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ

رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

وكما تحيروا في شأن الرسول وجادلوه أشد الجدال تحيروا في أمر القرآن أشد الحيرة فقالوا: شعر. وقالوا: سحر. وقالوا: كهانة. وقالوا: أضغاث أحلام.

وقالوا: تعلمه من قين حداد. وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا.

والقرآن يحكي حيرتهم وترهاتهم حكاية الواثق بنفسه المطمئن إلى أنه الحق، وأنه سينتصر، ويتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم يتنزل إلى عشر سور مثله ثم ينزل إلى سورة واحدة، ويسجل عليهم أنهم لن يفعلوا.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ١-٦]. أي أن الأمم الماضية جاءتهم رسلهم بالآيات البينات وكفروا فأهلكوا، فهل يؤمن هؤلاء إذا جاءتهم الآيات أم يكفرون فيهلكهم الله كما أهلك من قبلهم؟.

ثم رد على اعتراضهم على بشريته وقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] أي فلا يكون رسولًا ولا يتبع؛ لأنه بشر.

فقال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧] أي من أهل الكتاب – إن كنتم لا تعلمون أن الرسل السابقين رجال من آدم ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨] فالجسد لابد أن يطعم ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ﴾ [الأنبياء: ٨- ١٠] شرف لكم بلسانكم وعلى لسان رجل

منكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠] أي ما في هذا من الخير والشرف والسعادة لكم.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وما كان للأعجمي أن يأتي بهذا القرآن، أو أن يعلمه من يأتي به. رأينا الأعجمي لا يستطيع أن يقرأ القرآن فضلا أن يأتي به أو يعلمه من يأتي به ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

لقد جاء فيه من أخبار الأولين ما لم يكن يعلمها هو ولا قومه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] فصبر فكانت له ولمن آمن العاقبة، ثم من هم هؤلاء الذين أملوا على محمد القرآن؟. أما كان من العقل أن يواجهوا به الناس بدل إملائه على أمي لا يكتب ولا يقرأ ويكون لهم شرف القرآن بدله؟.

ثم هذه الأسرار في القرآن من علوم الكائنات والمخلوقات؛ أناس وحيوانات ونبات وسحاب وسموات وأرض، من ذا الذي كان يعلم منها قليلًا أو كثيرًا من العرب قبل النبوة ووقتها؟.

من الذي كان يعرف قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] تلقح أزهار النباتات أنثاها من ذكرها كما قال: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] حتى عرف ذلك قريبًا، وعرفوا أن في النبات الذكر والأنثى؛ منفصلين كالنخل، أو متصلين كسائر النبات في زهره أعضاء التذكير والتأنيث، ولقحوا أنواعًا منه بطلع نوع آخر، واستحدثوا من ذلك أنواعًا جديدة من الثمرات والفواكه والحبوب نتيجة ما عرفوا من أنواع التلقيح التي تقوم به الرياح قديمًا ولا تزال تقوم به إلى اليوم وإلى ما شاء الله، وماء الروائح الزكية وغير الزكية التي تشمها من أزهار النبات لإلقاح الذكور لبويضات الإناث في النبات، فتبارك

الله أحسن الخالقين.

سمعت أن ربانًا إنكليزيًا قرأ ترجمة القرآن حتى أتى على هذه الآية في وصف أعمال الكفار ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فقال الربان: هل ركب محمد البحر في حياته؟ فقيل: لا. فقال: أشهد أن هذه الآية لا يقولها ويعرفها إلا من ركب البحر ورب راكبي البحر وخالق البحار والعليم بأحوالها، ويقال: إنه أسلم أو اعترف بأن لا يمكن أن يقول هذا من عند نفسه.

جلس الوليد بن المغيرة المخزومي إلى النبي ﷺ ليسمع منه شيئًا من القرآن، وكانوا قد اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يقدم عليهم وفود الحج ليصدوهم عنه. فقال قائلون: شاعر. وقال آخرون: ساحر كاهن، وقال آخرون: مجنون. كما قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨].

فسمع الوليد من النبي ﷺ أول سورة ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢] حتى بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] فأخذ بفم النبي ﷺ وناشده الرحم أن لا يفعل، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، وقال أبو جهل: أقسم لقد رجع الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، قال الوليد: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلي. ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبأن قريش. وكان يقال: الوليد ريحانة قريش.

فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه. فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزينًا،

فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا ابن أخي. قال: وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم. فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولدًا. وقال: هل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل، ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخلط قط؟.

قالوا: اللهم لا. قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن قط؟ قالوا: اللهم لا. قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟. قالوا: اللهم لا.

قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ قالوا: لا. وكان رسول الله يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه.

فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس وبسر فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر، فذلك قوله: إنه فكر في محمد والقرآن وقدر في نفسه. ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن، وأنزل الله في ذلك ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا (١١) وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴾ [المدثر: ١١-١٣] حضورًا عنده يكفيهم مواليه وعبيده مؤونة العمل والسفر في التجارة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا (١٤) ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا (١٦) سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (٢٤) إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (٢٥) سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ (٢٩) عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ [المدثر: ١٤-٣٠] إلخ.

[1] ومن الغريب أن يقرأ هذه الآيات ابنه خالد بن الوليد ويسلم مختارًا

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - ذو الحجة - ١٣٧٨هـ.

ويذهب إلى المدينة مهاجرًا ولم تمنعه عصبيته لأبيه أن لا يسلم رغم ما أنزل الله في أبيه.

وشبيه بهذا عمرو بن العاص، وقد أنزل الله في أبيه العاص بن وائل السهمي: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧- ٨٠].

روى البخاري[1] أن خباب بن الأرت كان قينًا في الجاهلية، يصنع السيوف ويحليها، وأنه جاء إلى العاص بن وائل يطلبه ما له عنده من ثمن تلك السيوف.

فقال العاص: والله لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقال خباب: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث. فقال العاص: أوهناك بعث وقيامة بعد الموت؟!

قال خباب: نعم. قال العاص هازئًا: إذن سيكون لي مال هناك وولد فأقضيك ثَمَّ ... فأنزل الله الآية ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

وقال ابن الجلندي – أمير عمان وقطر – لعمرو لما ذهب إليه رسولًا بكتاب رسول الله ﷺ: ما فعل أبوك يا عمرو؟ قال: مات على كفره، أو نحو ذلك، ولم يمنعه ذلك من الإسلام وترك ملة أبيه وكفره.

ومثلهما عكرمة بن أبي جهل الذي علم من سيرة أبيه في معارضة الإسلام والصد عن سبيله وأذى الداعي إليه بكل ما يملك من حول وطول حتى قتل كافرًا ببدر، وأسلم ابنه عكرمة وصار كخالد وعمرو بن العاص بطلًا من أبطال الإسلام وسيفًا من سيوف الجهاد في سبيله كزميليه خالد وعمرو.

حتى درة بنت أبي لهب وقد أنزل الله في أبيها وأمها سورة تتلى في كتاب الله تعالى صباح مساء: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٠٩١، ٢٢٧٥، ٢٤٢٥).

كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

ومع هذا تسلم وتهاجر إلى المدينة، ويتساءل الناس: درة بنت أبي لهب أسلمت وهاجرت! ... ويواجهونها بما نزل في أبيها صراحة، فتذهب إلى رسول الله وتقول: يا رسول الله، ما كان أحدًا غيري أبوه كافرًا حتى أسمع من الناس ما أسمع؟! فوعظ رسول الله ﷺ الناس عن أذاها[1].

وهذا أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وشقيق أبيه وكافله بعد موت جده عبد المطلب يدافع قريشًا عنه مع موافقته لهم على دينهم، وهو القائل:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو مخاف مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

إلى آخر ما قال من شعر في الشهادة لمحمد أنه لولا عار ترك دين الآباء لأسلم وآمن، ولما حضرته الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وقال: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك به عند الله**». وكان حاضرًا عنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، قالا: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فكان آخر كلمة: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**». فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤]، وأنزل الله في شأن أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] [2].

ولما مات جاء ابنه علي إلى النبي ﷺ وقال: إن عمك الشيخ الضال قد

---

(١) رواه الطبراني (٢٤/ ٢٥٩، رقم ٦٦٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٤) ومسلم (٣٩).

مات. قال: «**اذهب فواره التراب**»[١].

ولم يمنع عليًا ضلال أبيه أن يكون من خيار خلق الله ورابع الخلفاء الراشدين، وابنته أم هانئ بنت أبي طالب من خيار المؤمنات.

والعباس عم النبي ﷺ الذي شرفه الله بالإسلام كأخيه حمزة يسأل النبي ﷺ عن أخيه أبي طالب: يا رسول الله، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينفعك من المشركين، فهل نفعته بشيء؟ قال: «**نعم كان في غمرات**[٢] **من النار فأخرجته منها إلى ضحضاح**[٣] **من النار، يلبس نعلين من نار يغلي منهما دماغه، وهو أخف أهل النار عذابًا**»[٤].

وانتقل الجدل والمراء إلى وعيد وعدوان وظلم وبغي، فروى البخاري وغيره[٥] أن النبي ﷺ خرج إلى الصلاة في وجه الكعبة، فقال أبو جهل: أيكم يذهب إلى سلا جزور بني فلان - أي مشيمتها - فيضع على ظهر هذا المرائي - يعني النبي ﷺ - عد صلاته لله علنًا عند الكعبة أمامهم رياء.

فذهب أشقى القوم عقبة بن أبي معيط وجاء بالسلا ووضعه على ظهر النبي ﷺ، وابن مسعود الهذلي يرى ولا يستطيع تنحية السلا، ولكنه ذهب إلى دار النبي ﷺ فأخبر فاطمة بنت النبي، وهي فتاة دون الناهد، فجاءت ونحت الأذى عن ظهر أبيها، وسبتهم، وأتم النبي ﷺ صلاته ثم التفت إليهم وقال: «**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بفلان وفلان**». وسمى ثمانية منهم: أمية بن خلف، وأبو جهل، وعقبة بن أبي معيط، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس. إلخ.

---

(١) رواه أحمد (١٠٩٣)، وأبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (١٩٠) وصححه الألباني في الإرواء (٧١٧).

(٢) الغمرات بفتح الغين والميم واحدتها غمرة بإسكان الميم وهي المعظم من الشيء. شرح النووي.

(٣) «ضحضاح» بضادين معجمتين مفتوحتين، والضحضاح ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين. شرح النووي على مسلم.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٠) ومسلم (٢٠٩).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٢٤٠، ٥٢٠، ٢٩٣٤).

قال ابن مسعود: فرأيتهم صرعى يوم بدر وسحبوا جثثًا هامدة إلى القليب؛ قليب بدر، ووقف النبي ﷺ على القليب صبيحة بدر أو بعدها بيوم وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأخذ يقول: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا**». وقال له عمر بن الخطاب: كيف تناديهم وقد جيفوا؟ فقال النبي ﷺ: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إلا أنهم لا يجيبون**».

ولما رويت قصة ندائهم لعائشة أولت ما قاله النبي ﷺ بأنه قال: إنهم ليعلمون أن ما أقوله لهم حق؛ ذهابًا منها إلى ظاهر قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وللعلماء في الجمع بين ما رواه عمر وغيره في هذه القصة وما ذهبت إليه أم المؤمنين عائشة كلام طويل مبسوط في شروح الحديث كشرح النووي لمسلم وشرح الحافظ ابن حجر للبخاري المسمى «فتح الباري»[١] فارجع إليه إن شئت لأن الغرض هنا ذكر عبر السيرة النبوية.

ومن ذلك أن أبا جهل قال: هل يصلي محمد أمامكم علنا عند الكعبة؟ لئن رأيته لأطأن على عنقه. فذكر ذلك للنبي ﷺ فخرج غير مبال بوعيده وأحرم بالصلاة، وجاء فرعون قريش أبو جهل لينفذ وعيده، ثم رجع ممتقعًا لونه، يدفع بيديه ويلقي بها فقيل له مالك - أبا الحكم - كنيته عندهم - قال: رأيت فحلًا من الإبل يريد أن يلتقمني، ورأيت أخدودًا من النار بيني وبين محمد. وذكر للنبي ﷺ ما قال فقال: «**ذاك جبريل ولو اقترب مني لابتلعه**»[٢] وأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ٩- ١٩].

---

(١) شرح النووي (١٢/ ١٥١)، وفتح الباري (١/ ٣٥٠).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

واشتد أذى قريش على النبي ﷺ وأصحابه بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة، فرأى أن يذهب إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى الإسلام لعلهم يجيبونه فيكونوا حماة له، ولما كلمهم في ذلك ردوا عليه أشنع الرد؛ فقال أحدهم: ما وجد الله رسولًا غيرك يرسله. وقال الثاني: لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا فأنت أعظم من أن أكلمك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من ذلك. وقال الثالث: هو يمزق أستار الكعبة إن كان الله أرسلك.

فخرج من عندهم حزينًا وقال دعاءه المشهور يومئذ: **«اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهمني – يعني ثقيف – أم إلى قريب ملكته أمري – يعني قريش – إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى»**[1].

وعندئذ نزل عليه جبريل وقال: يا محمد إن ربك أسمع علي ما فعل بك قومك، وها هو ملك الجبال تحت أمرك. فسلم عليه ملك الجبال وقال: إن شئت أن أطبق عليهم – يعني أهل مكة الذين أحوجوك للخروج إلى ثقيف يفعلون معك ما فعلوا – الأخشبين – جبلي مكة: (أبي قبيس وقيقعان) – فعلت. فقال: **«إني أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده»**[2]. وأنزل الله ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

ومن حواشي القصة أن عتبة وشيبة ابني ربيعة كانا في بستان لهما بالطائف ورأيا ما فعل سفهاء الطائف بالنبي ﷺ، فرقا له – وكانا مشركين – وأرسلا له قطفًا من العنب مع مولى لهما يسمى «عداسًا» نصرانيًا، فلما شرع النبي ﷺ يأكل من قطف العنب قال: «بسم الله»، فقال عداس: ما سمعت هذا من أحد

---

(١) انظر فقه السيرة للغزالي، وقد ضعفه الألباني ص ١٢٥.

(٢) البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

من أهل تلك البلاد. فقال له النبي ﷺ«ممن أنت؟» قال: من نينوى - بلد في العراق يوازي الموصل بينهما نهر- فقال النبي ﷺ: «بلد العبد الصالح يونس ابن متى».

فقال عداس: من أدراك به. قال: «ذاك أخي في النبوة» وقرأ عليه شيئًا من قصة يونس ذي النون ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٨]، وقول الله في قوم يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس: ٩٨].

فإنهم لما كذبوا نبيهم يونس توعدهم بعذاب الله قريبًا، فلما رأوا العذاب وبادرته ندموا على التكذيب، وجاءوا إلى الله فرفع عنهم العذاب، فخرج يونس من بينهم حتى لا يعدوه كاذبًا فيما توعدهم به، وركب سفينة تقلع من فرضة العراق إلى الهند فوقفت السفينة حيث لا موقف فقال ربانها: فيكم عبد آبق من سيده، لا تمشي السفينة إلا برميه في البحر، ومن ذا الذي يرضى لنفسه بالغرق، فعملوا قرعة كتبوا أسماءهم على أوراق بعددهم ووضعت في جعبة وأخرجت منها ورقة حيثما اتفق فكانت باسم يونس ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] ورمى في البحر ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤٢]، مرتكب ما يلام عليه، ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصافات: ١٤٣] - المصلين لله الذاكرين إياه - ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٤] فحينئذ نادى في الظلمات؛ ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وفي الحديث: «دعوة ذي النون ما دعا بها مكروب إلا استجيب له؛ لا إله

إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[١].

صدق رسول الله ﷺ، جربناها فما أخلفت معنا قط.

سمع عداس ما ذكره رسول الله ﷺ من قصة يونس وقومه، فأكب على قدمي النبي ﷺ ويديه يقبلهما، ولما رجع لمواليه؛ عتبة وشيبة، قالا له: مالك! سحرك محمد. قال: إنه رسول الله، وذكر لي من قصة يونس ما لا يعلمه إلا رسول، قالا له: يا عداس دينك خير من دينه[٢]. عصبية جاهلية لصده عما ظهر له من الحق، وإلا فما بالهما يصران على دين الأصنام إذا كان يؤمنان أن دينه خير من دين محمد.

جمع القرشيون جمعهم وتشاوروا فيما يخرجهم من مأزقهم الذي حشرهم فيه الإسلام؛ من سب آبائهم واحتقار دينهم وأصنامهم وأنها لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]. ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

---

(١) أحمد (١٤٦٢)، والترمذي (٣٥٠٥) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦٠٥ في صحيح الجامع.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٦٩٠).

إن المشركين جعلوا أنفسهم جنودًا للأصنام ينصرونهم إذا اعتدى عليها كما قالوا لإبراهيم لما كسرها، ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فهذه الآلهة التي ينصرها عابدوها ولا تنصرهم ما قيمتها وما الفائدة من عبادتها؟ أما الله فيقول: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] فهذا الإله الذي ينصر عابديه هو الإله الحق. ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١] فإذا مسك الله رزقه عن خلقه فحبس المطر من السماء ومنع نبات الأرض فمن ذا الذي يرزقهم غيره؟ ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فقطعت على المشركين عروق الشرك، فليس لآلهتهم ملك ذرة في السموات ولا في الأرض[١] ولا مشاركة في ذرة منهما ولا معاونة ومظاهرة لمالكها، بقيت الشفاعة وهي لا تنفع عنده إلا بإذنه، فما ذا بقي لهم من سبب يتعلقون به في شركهم؟ لا ملك ولا مشاركة ولا معاونة للمالك ولا شفاعة عنده بغير إذنه.

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.

فمن يعبد الجن التي هي أحقر من الإنس وأجهل منهم وأظلم – وإن تمثلت تتمثل في صورة قط أو كلب أو حية من حقائر الحيوان – فمن يعبد أمثال هذه كيف يذل نفسه لها؟ وقد كرمه الله تعالى وفضله على كثير ممن خلق الله تفضيلًا.

---

(١) سقطت «ولا في الأرض» من الأصل.

ضاقت قريش بهذه القوارع وأصعقتهم هذه الصواعق، فجمعوا جموعهم وذهبوا إلى أبي طالب، وشكوا إليه ما سمعوا من ابن أخيه في تحقير آلهتهم وسبها ورمي آبائهم بعدم العقل ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فقالوا لأبي طالب: كف عنا ابن أخيك أو اختر شابًّا من قريش ندفعه إليك وسلم إلينا ابن أخيك نفعل به ما نريد، فقال لهم: يا معشر قريش، ما أحمقكم أسلم لكم ابن أخي تقتلونه لقاء شاب منكم أكفله وأغذوه وأقوم عليه! هل سمعتم بناقة ترضع غير فصيلها؟!

فرجعوا خائبين، ثم نادى أبو طالب رسول الله، وقال له: يا ابن أخي تعلم كبر سني وضعف جسمي وقلة ذات يدي وقد شكا منك قومك إلخ.. فلو تركت ما يؤذيهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك ما جئت به أو أموت دونه ما فعلت وبكى**» فقال له عمه: اذهب فبلغ ما أرسلت به، فو الله لا أسلمك إليهم ولا أخزيك وأنا لك ناصر ما حييت.

(الهجرة: مقدمات ونتائج) [1]

اشتد أذى قريش على النبي ﷺ بعد ذهابه إلى الطائف مستنصرًا بثقيف، وخذلان ثقيف له، حتى لم يقدر أن يدخل مكة بدون حماية تحميه من قريش، فأرسل إلى عدي ابن مرة - رهط عمر بن الخطاب - في طلب حمايته فاعتذروا أنهم من أخريات قريش لا يقدرون أن يجيروا على قريش.

فأرسل إلى المطعم بن عدي بن نوفل وهو من أبناء عمومة بني هاشم، جده نوفل أخو هاشم، وهو الذي ذكره أبو طالب في لاميته المشهورة مستثيرًا

(١) تتمه مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - ربيع الأول - ١٣٧٩هـ.

حماسته للقرابة بقوله:

أيا أخوينا عبد شمس ونوفلا

فتقلد المطعم وبنوه سيوفهم ورماحهم وخرجوا لحماية النبي ﷺ من أذى قريش ودخلوا معه حتى طاف ورجع إلى داره فسكنت قريش على مضض لما رأوا حماية المطعم بن عدي بن نوفل لابن عمه النبي ﷺ. وكانت حماية المطعم بن عدي بن نوفل للنبي ﷺ حمية قرابة لآل عبد مناف ابن قصي جدهم الرابع.

وقد حفظ النبي ﷺ هذه اليد البيضاء للمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي لابنه جبير بن مطعم حينما ذهب إلى المدينة بعد غزوة بدر يفاوض النبي ﷺ في أسرى بدر، فقال النبي ﷺ لجبير بن مطعم: «**لو كان المطعم** -يعني والد جبير صاحب اليد البيضاء في حماية النبي ﷺ - **حيًّا وسألني هؤلاء لأعطيتهم إياه**»[1] عرفانًا بالجميل - جميل حماية المطعم بن عدي لابن عمه النبي ﷺ - حينما اشتد الغضب من قريش على النبي ﷺ وخاف دخوله مكة عليهم في سورة غضبهم وشدة حنقهم.

ذهاب النبي ﷺ لحفل العرب بسوق عكاظ

لم يثن النبي ﷺ ما لقي من خذلان ثقيف عن المثابرة في تبليغ رسالة ربه، فقد عزم على لقاء العرب في أعظم مجتمع لهم بسوق عكاظ، وكانت سوقًا عظيمة يحضرها العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية؛ شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، حتى من أطراف العراق من الجزيرة وغيرها، يرسل المنذر ابن ساوى وغيره من أشراف العرب؛ يرسلون إلى هذا السوق ما يرفع رءوسهم من تجارة وخطابة وشعور وفخار بالأحساب والأنساب ومكارم الآباء وشرف القبائل.

---

(١) البخاري (٣١٣٩).

وحفظ التاريخ خطبًا تاريخية لفصحاء العرب وحكمائهم مثل قس بن ساعدة الإيادي في هذا الحفل السنوي التاريخي العام كقول قس بن ساعدة الإيادي حينئذ: أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا وقولوا، وغذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات وأحياء وأموات، ليل داج وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر[1] وبحار تزخر، وضوء وظلام وليل وأيام وبِرٌّ وآثام، إن في السماء خبرًا وإن في الأرض عبرًا، حار فيهن البصر، مهاد موضوع وسقف مرفوع، ونجوم تمور[2]، وبحار لا تغور، ومنايا دوان ودهر[3] خوان، كحد النسطاس ووزن القسطاس[4]، أقسم قس قسمًا لا كاذبًا فيه ولا آثمًا، لئن كان في هذا الأمر رضى ليكونن سخط. ثم قال: أيها الناس إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه وهذا زمانه وأوانه، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا.

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر .... إلى آخر ما روى عنه في ذلك الحفل العربي العظيم.

ذهب النبي ﷺ مع مولاه زيد بن حارثة إلى هذا الحفل التاريخي العظيم، وفي الطريق وقعت للنبي ﷺ حادثة عظيمة يحسن الإشارة إليها[5].

فقد نزل النبي ﷺ نخلة اليمانية، وهي المسماة الآن «بالزيمة» وشمالها على مقربة منها نخلة الشامية، نزل نخلة لصلاة الفجر مع أصحابه، ولا يعرف منهم سوى مولاه زيد بن حارثة، ولما قرأ القرآن استمع له نفر من الجن الذين كانوا يطوفون الجزيرة العربية للبحث عما منعهم من استراق

---

(١) في الأصل «تزهو».

(٢) في الأصل «تغور».

(٣) في الأصل «ودهو».

(٤) في الأصل «كحد القسطاس ووزن القرطاس».

(٥) البخاري (٧٣٩)، ومسلم (١٤٩).

السمع ورميهم بالشهب إذا تجرأوا على ذلك، فقال لهم كبيرهم إبليس: ليس هذا إلا لأمر[1] عظيم حدث في الأرض فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الحدث، فقسموا أنفسهم روادًا سواحًا في الجزيرة، وكان نصيب رواد تهامة التقاءهم بالنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فقال بعضهم لبعض حينما سمعوا القرآن: هذا هو الذي حال بينكم وبين خبر السماء. وقال الله تعالى في تسجيل هذه الحادثة العظيمة: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

لقد كان وفد الجن الذين كانوا رواد إبليس في البحث عما قطعهم عن استراق السمع؛ كانوا أعقل من قريش الذين نزل القرآن بلسانهم على رجل منهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فعرف الجن القرآن وأنه كتاب أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ودعوا قومهم إلى الإيمان به وإجابة داعي الله ليغفر لهم من ذنوبهم ويجيرهم من عذاب أليم، ولم يركبوا رءوسهم كما فعلت قريش في الكفر بكتاب الله ورسوله؛ لأنهم كانوا طلاب حق وباحثي حقيقة بخلاف قريش الذين أعمتهم عصبيتهم لدين الآباء والإصرار على المألوف وتقليد كبرائهم عن رؤية الحق الواضح والنور المستبين الذي أنزله الله على رجل منهم بلسانهم العربي الفصيح البليغ والذي تحداهم أن يأتوا بسورة منه فعجزوا.

وأنزل الله في ذلك سورة الجن الخالدة التي بينت كثيرًا من أحوال عالم الغيب في الجن ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى

(١) في الأصل «ليس هذا الأمر».

﴿ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ١-٣] - جلاله وعظمته - ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣] ردًّا لضلال النصارى في عيسى وأمه، ولضلال مشركي العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله من سروات الجن ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤] يحكون ضلال من أشركوا بالله ونسبوا إليه ما لا يليق بجلاله من سفهاء قومهم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٥-٦] كان الإنسي إذا نزل بواد قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه. على عادة المشركين في الاستجارة بأحد العظماء والاحتماء به من قومه، فاستطالت الجن على الإنس بذلك وقالوا: تخافنا الإنس وتستجير بعظمائنا فلنزدد في إرهاقهم وتخويفهم منا حتى يبقوا دائمًا عبيدًا لنا.

وجاء في الحديث: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامة، لم يضره شئ حتى يترحل**»[1].

فعلمنا الإسلام الاستعاذة بكلمات الله تعالى التي تحفظنا من الجن وغيرهم وتزيدنا إيمانًا بالله تعالى واحتقارًا لغيره من الجن والإنس ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧] ظن الجن كما ظن الإنس أن لن يبعث الله رسولًا، بل تمتد فترة الجاهلية إلى ما شاء الله وذلك مما رده الله بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩] مرصدًا معدًا لرميه؛ وهذا هو الذي جعلهم يطوفون أنحاء الجزيرة للبحث عما منعهم خبر السماء حتى وصلوا إلى نخلة وسمعوا القرآن من فم النبي ﷺ في صلاة الفجر عندما كان ذاهبًا إلى سوق عكاظ لتبليغ كتاب الله تعالى لقبائل العرب المجتمعين هناك وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٨).

إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦- ١٠]، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥].

وهنا يحسن أن نقول: إن شهب الرمي غير النجوم الثوابت؛ البروج والمجموعات النجمية، فقد روت السيرة أنه لما كثر رمي الشهب، وقت البعثة، فزع أهل الطائف ظنًّا منهم أن ذلك مقدمات للقيامة، فهموا بالخروج من أموالهم وأنعامهم، فقال لهم حكيم منهم، وكان أعمى: انظروا يا قوم إلى السماء وتأملوا هل تنقص المجموعات الكوكبية وتختل البروج والمنازل عما تعرفون منها قبل ذلك، فنظروا وقالوا له: البروج والمنازل والمجموعات النجمية كما هي، فقال: إذن لا شأن لها بالقيامة، ولعله تنبأ لهم ببعثة سماوية لهداية أهل الأرض، وفي الآية الأخرى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

وقال قتادة مفسر التابعين ومحدثهم: خلق الله النجوم لثلاث؛ زينة للسماء، ورجوم للشياطين، ويهتدي بها المسافرون، فمن تأول فيها غير ذلك يعني من الكهانة والتنجيم فقد ضل وأضاع نصيبه من الهدى، وما لهذا النجم وسعادة فلان وشقاء علان؟! والنجم الواحد يولد فيه الأبيض والأسود والأحمر والشقي والسعيد وطويل العمر وقصيره، إلخ ما قال أو ما معناه هذا.

وهنا نقف عند قوله تعالى: ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقوله: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦] فنذكر ما عرف الآن من الملاحة البحرية والجوية أنه لا يسير ربان بباخرة ولا طائرة إلا بعد ما يدرس نجوم السماء ومواقعها ومطالعها وميولها وكيف يمكن معرفة موقفه في البحر والجو، يرصد أي نجم في السماء أو الشمس أو القمر مع الاستعانة بالجداول الفلكية السنوية المسماة (نوتيكال)، وبالآلات الفلكية كالسكستان البحري أو السكستان ذي الفقاعة، ونحوهما من الآلات المعينة على رصد الشمس

والقمر والنجوم بدقة فائقة تمكن من تسيير السفن والبواخر والطائرات في البحر والجو وقد كان لآبائنا القدح المعلى في ذلك ولكنا أهملنا وسعى بعضهم لإحياء هذا العلم؛ فهمًا لقوله تعالى: ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ولكن الفكرة كانت سابقة لأوانها فنامت حتى يوقظها الله متى شاء وتنبهها حاجة الشعب والشباب والمتعلمين.

استطردت لهذا إيمانًا بأن القرآن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم حاجة عباده وما يلزمهم في دينهم ودنياهم، فأرشدهم إلى جميع ذلك بأبلغ وأفصح أسلوب.

ومتى وقف المسلمون على دقائق إشارات القرآن إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم سبقوا أمم الأرض سؤددًا، وقد استفاد الأوربيون من تنبيه القرآن وحثه على التفكير وحرية الفكر وإقامة الحكم الشورى بينهم فسادوا واستعمروا الأرض، وقد اعترف منصفون بذلك رغم جحد الجاحدين كسديو، وسبنسر، ولوبون.

ذهب النبي ﷺ إلى عكاظ وعرض نفسه على القبائل: «**مَن يمنعني حتى أؤدي كلام ربي فإن قريشًا منعوني من أن أبلغ كلام ربي**»[1] ويقرأ على الناس شيئًا من كلام الله تعالى، فمنهم من[2] يردُّ ردًّا لينًا، ومنهم من يردُّ ردًّا قاسيًا كبني حنيفة، وكثير من الناس يقول: قوم الرجل أعلم به، يعنون قريشًا، وعمه أبو لهب يمشي وراءه ويقول للناس: هو كاذب فلا تتركوا دين آبائكم لهذا الكذاب الصابئ.

وعلى ذكر أبي لهب نذكر له تلك القصة العجيبة لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى

---

(١) أحمد ٣/ ٣٩٠، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥) من حديث جابر.

(٢) سقطت «من» من الأصل.

بأعلى صوته: يا صباحاه، كلمة تقال عند الإنذار بالشر، فجعل الناس يتسارعون إليه، ومن لم يستطع بعث من يأتيه بالخبر، فقال لهم النبي ﷺ: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟». قالوا: نعم، ما علمنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1] فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله في ذمه سورة من القرآن تتلى إلى يوم القيامة:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١-٥].

فشرب مرارتها أبو لهب، أما امرأته أم جميل العوراء بنت حرب بن أمية ابن عبد شمس فلم تستطع أن تصبر على حبل المسد في عنقها في هذه السورة فجاءت ترتجز.

مذمما قلينا * ودينه أبينا * وأمره عصينا

ولها ولولة وفي يدها فهر (حجر)، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا خائف عليك أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني». وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، ما ينطق بالشعر، ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق، وولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سعدها، وعثرت على مرطها وهي تطوف بالبيت: وتقول تعس مذمم - تعني محمدًا - فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم، وكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم.

---

(١) البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس.

ولما ولت قال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«لا، مازال ملك يسترني حتى ولت»**[١].

واستمر أبو لهب في معارضة النبي ﷺ فروى الإمام أحمد[٢] بسنده إلى أبي الزناد قال: أخبرني رجل من بني الديل، يقال: له ربيعة بن عباد، وكان جاهليًّا، فأسلم قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز. وكانت بقرب عرفات يجوزون منها إلى الموقف يوم عرفة، وكانت تعقد بعد مجنة التي بمر الظهران وهو - يعني النبي ﷺ- يقول: **«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»** والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب. قال أبو الزناد: قلت لربيعة كنت يومئذ صغيرًا؟ قال: لا والله إني يومئذ لأعقل؛ إني أزفر القربة أي: أحملها.

وروى أحمد والطبراني وابن إسحاق[٣] عن حسين بن عبد الله، عن عبيد الله بن عباس، قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: إني لمع أبي؛ رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو لمة.

يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: **«يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصدقوني وتمنعوني** - أي تحموني - **حتى أنفذ عن الله ما بعثني به»**. وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، لا تسمعوا له ولا تتبعوه فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب.

وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان. قال

---

(١) رواه البزار (١٥)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٣٨).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٤١).

(٣) رواه أحمد ٣/ ٤٩٢، والطبراني (٤٥٨٩)، وابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام ١/ ٤٢٢.

أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي. فأنزل الله تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد: ٢] ذكر ذلك كله ابن كثير في تفسير سورة أبي لهب من تفسيره.

وفي موت أبي لهب من العبرة ما روته السيرة، أنه بينما كان جالسًا في زمزم ومولى للعباس يحكي ما رأى في غزوة بدر ويقول: ما هو إلا أن التقينا حتى ولیناهم ظهورنا - وذكر مدد الملائكة يومئذ - فقام له أبو لهب ودفعه حتى أسقطه على قفاه وركب عليه، فجاءت أم الفضل بعمود وضربت به أبا لهب وقالت: لئن كان مولاه غائبًا تعمل فيه هكذا.

مرض أبو لهب بالجدري فرموه خارج مكة قريبًا من «حجون» حتى مات، فلم يقربه أحد من ذويه لدفنه؛ خوفًا من العدوى، فرموا عليه الحجارة من بعيد حتى ستروه بها. وريع دفنه خارج مكة يسمى إلى الآن عند الناس (أبو لهب) في طريق الذاهب إلى التنعيم خارج مكة.

إن في ذلك لعبرة لمن آمن واتقى أن يعتبر بمن باع نفسه للحسد والهوى والشيطان ووقف في طريق الحق يعارضه ويصد الناس عنه.

قال ابن كثير[1]: قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا؛ لا باطنًا ولا ظاهرًا ولا مسرًّا ولا معلنًا؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة. ا هـ.

(قلت): في هذا أيضًا أن دين الإسلام دين إيمان وعمل وتقوى، لا محاباة وخواطر ووجاهات وشخصيات، فبلال وصهيب وخباب وعمار بن ياسر وأمثالهم من الموالي آمنوا وسبقوا إلى الإسلام فرفعهم ذلك إلى مصاف السابقين الأولين من المهاجرين من سادات قريش، وكفر أبو لهب،

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٧.

وأبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهم من عظماء قريش فحطهم الكفر في دركات جهنم وقد قيل:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يغنيك محموده عن النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر النسيب أبا لهب

الإسراء والمعراج(1)

أراد الله تعالى أن يشرف نبيه بإشرافه على الملكوت الأعلى والسموات العلا كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ٥-١١]، وقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٧-١٨].

وأحاديث المعراج مبسوطة في الصحاح والمسانيد، وقد روى ابن كثير في تفسير سورة الإسراء الكثير الطيب منها بأسانيدها وبيان درجاتها وأحوال رواتها فراجعه إن شئت.

والمرجع عند العلماء أن الإسراء إلى بيت القدس والمعراج إلى السماء كانا في ليلة واحدة، وهل كان بجسده وروحه أو بروحه فقط؟ تعمق في البحث يكفي المؤمن في ذلك إيمانه به من غير تعمق وتكييف(2) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد فرضت الصلاة ليلة المعراج خمسًا بعد خمسين، بمشورة الكليم موسى على النبي ﷺ بالمراجعة فيها حتى استقرت على الخمس، وقيل

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - شعبان - ١٣٧٩هـ.

(٢) هكذا بالأصل ولعل الصواب «وتكلف».

للنبي ﷺ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

واتفقت الروايات على تكليم الله تعالى ليلتئذ لنبيه بدون واسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام.

وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلتئذ أو لم يره؟ والمرجح أنه رآه بقلبه لا ببصره، وجاءت الروايتان في مسلم جوابًا لمن سأله: هل رأيت ربك؟ فأجاب في إحداهما: «**نور أنى أراه**» وفي الأخرى: «**رأيت نورًا**».

وفسرت بأنه رأى أنوار الحجب الإلهية، فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «**أن لله سبعين حجابًا من نور أو نار، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[1].

عليك أن تؤمن بظاهر الحديث وتترك ما وصل إليه البحث اليوم من تركيب المادة من ذرات لا ترى بالعين – والملايين منها مجتمعة لا يملأه مليمتر، وكل ذرة عالم شمسي لها نواة كالشمس يسمى «نترون» تدور حولها إلكترون واحد، أو إلكترونات عديدة مثل ما تدور الكواكب السيارة. ونسبة الأبعاد بين نواة الذرة وبين إليكتروناتها التي تدور حولها كنسبة الأبعاد بين الشمس وكواكبها، وقد ذكروا بين الشمس وأبعد كوكب عنها المسمى بلوتو (٣٦٧٠) مليون ميل.

وبعدما ذكر صاحب كتاب «مع الله» في السماء أبعاد الكواكب عن الشمس قال: أعداد كبيرة ليس تصورها متناسقة في الذهن بالشيء اليسير، دع

---

(١) قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (١/ ٢٢١): رواه أبو الشيخ. قال في المختصر: سنده ضعيف، وقال ابن الجوزي: لا أصل له. اهـ. وثبت في صحيح مسلم (١٧٩) و «سنن ابن ماجه» (١٩٥)، و «مسند أحمد» (١٩٦٤٩) من حديث عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

والسبحات: بضم السين والباء ورفع التاء في آخره، وهي جمع سبحة.

قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى (سبحات وجهه): نوره وجلاله وبهاؤه. «شرح النووي على مسلم» (١/ ٣١٩).

عنك ما ذكروا في أبعاد نجوم المجرة من ملايين السنين النورية، بل ما ذكروا في أبعاد المجرات الكثيرة التي اكتشفت ودع عنك ما ذكروا من الطاقة الهائلة التي تحتفظ بها الذرة، لإمساك إلكتروناتها حول نواياتها وما ينتج من القوة الهائلة إذا تحولت ذرة عنصر إلى ذرة عنصر أدنى منه، ومنه نشأ عملية القنبلة الذرية والهيدروجينية.

كل ذلك مما يغرس في نفوسنا الإيمان بعظمة خالق هذه الأكوان رب العالمين، وما أشار إليه حديث أبي موسى: «**إن لله سبعين حجابًا من نار، أو نور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**». وما وعد الله به في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، وصدق الله العظيم، فكل ما وصل إليه الناس في أبحاثهم من تجارب علمية طبيعية أو كيماوية أو فلكية يؤيد القرآن ويشهد له، فكلاهما من عند الله.

أسرى الله بنبيه إلى بيت المقدس بالشام وعرج به إلى السموات العلى ورجع إلى داره بمكة، وأصبح يحدث قريشًا بمسراه إلى بيت المقدس، فمن واضع يده على رأسه عجبًا، ومن مصفر بفمه استهزاء، ومن ضعف إيمانه توارى خجلًا من قريش.

وقد روت السيرة[1] أن رسول الله ﷺ جلس في المسجد الحرام متفكرًا فيما رأى ليلته تلك، فجاءه أبو جهل على عادته هازئًا فقال: يا محمد هل من جديد؟ قال: «**نعم، أسري بي إلى بيت المقدس الليلة ورجعت**»، قال: يا محمد هل تحدث قومك بما ذكرت لي؟ قال: «**نعم**». فرفع أبو جهل عقيرته: يا معشر قريش، هلموا إلى محمد يحدثكم بعجيبة، فجاءوا إليه، فقال أبو جهل: يا محمد حدث قومك بما حدثتني به. فأخذ رسول الله ﷺ يقص عليهم مسراه فصاحوا جميعًا: بيت المقدس الذي نضرب إليه أكباد الإبل شهرًا ذهابًا وشهرًا

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٣/ ٩٣، والخصائص الكبرى ص ٢٦٥.

إيابًا وذهبت إليه وجئت في ليلة واحدة؟! وقيل لأبي بكر: انظر إلى ما يقول صاحبك فقال الصديق: أنا أصدقه في أبعد من ذلك في خبر السماء.

وكانت فتنة عجيبة وكان امتحانًا، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فتن بها ضعفاؤهم واستطال بها مجرموهم - ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] - أي الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم، وهي الزقوم، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، كان ذكر هذه الشجرة في القرآن فتنة لكثير من الناس الذين لا يعرفون إلا ما ألفوا وهم لم يألفوا شجرة تنبت في الجحيم وتثمر ثمرة كأنها رءوس الشياطين يأكل منها أهل جهنم فيملؤون منهم البطون فيشربون عليها من الحميم: الماء الحار، شرب الهيم: عطاش الإبل.

وأيد الله رسوله والمؤمنين به بما وصف لهم من أوصاف بيت المقدس التي يشكون فيها، وقد سألوه عن بعض قوافلهم العائدة إليهم من الشام فأخبرهم بها، وصدقه الواقع عندما رجعت القافلة ومن فيها.

انشقاق القمر

اجتمعت قريش إلى النبي ﷺ وأرادوا تعجيزه بطلب معجزة يظنونها مستحيلة فيعجز عنها، ويعذرون عند أنفسهم لعدم تصديقهم إياه بعجزه عما طلبوا منه. طلبوا منه انقسام القمر وانشقاقه نصفين، فأمده الله وأيده بالمعجزة التي طلبوا وانشق القمر فلقتين، رؤيت إحداهما على «أبي قبيس» والأخرى على «قيقعان» وقال النبي ﷺ: «انظروا»[1]. وقالت قريش: سحركم محمد؛ سحر أعينكم فرأيتم القمر الذي لم ينشق، ولا يمكن أن ينشق، رأيتموه منشقًا، اسألوا أهل الآفاق حولكم الذين لم يصل إليهم سحر محمد، فسألوهم فأيدوا المعجزة وأخبروا بما وقع، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ

(١) البخاري (٤٥٨٤)، ومسلم (٢٨٠٠).

ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر: ١-٣]، وقول المرتابين: لو حصل انشقاق القمر لرآه جميع أهل الأرض يرده اختلاف الآفاق ونوم الكثير ممن يمكن أن يراه لو كان ساهرًا سامرًا، واشتغال أهل السهر والسمر بلهوهم عن رفع أبصارهم إلى السماء وقت الحادثة. وذكرت بعض الكتب أنه وجد في الصين حصن كتب عليه أنه بني سنة انشقاق القمر فالله أعلم. ولكنا صدقنا القرآن والأحاديث في ذلك، وقريش شديدة اللدد والخصومة لم ينكروا آية ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، وكذبت القرآن في ذلك وإنما أولتها بالسحر؛ شأنها فيما لا يؤمنون به ويريدون أن يجحدوه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

الاستعداد للهجرة

جلس النبي ﷺ في موسم الحج بمنى إلى جماعة من يثرب، سميت بعد ذلك «المدينة المنورة» بعد الهجرة، وقرأ عليهم القرآن وطلب إليهم حمايته حتى يبلغ كلام ربه، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لعل هذا هو النبي الذي تتهددكم به يهود حينما تحاربونهم وتنتصرون عليهم حينما قالوا لكم: قد قرب زمان نبي يبعث فنقتلكم معه قتل عاد وثمود، لئن كان هو إياه فما أسعدكم به فلا يسبقنكم أحد إلى الإيمان به.

وقد ذكر الله انتظار اليهود لبعثة النبي ﷺ وكفرهم به بعدما بعث محتجًا عليهم فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٨٩] — هو القرآن مصدقًا لما معهم — من بشارات التوراة به - ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [البقرة: ٨٩] — كفار يثرب الأوس والخزرج — بقولهم: قد قرب زمان نبي يبعث فنقتلكم معه قتل عاد وثمود ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٩ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٨٩- ٩٠]، غضب الله

عليهم لكفرهم بعيسى ثم بمحمد ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

سمع يثربيون ما قرأه عليهم النبي ﷺ من القرآن وآمنوا به وقالوا: إن بين قومنا الأوس والخزرج من العداوة والقتال ما لو زال منهم على يديك لا يكون أحد أعز منك. وكان بينهم حروب بعاث التي امتدت نحو عشر سنين وأفنت أشرافهم.

وقالت عائشة: كان يوم بعاث، أي: حروبها، يومًا قدمه الله لنبيه – تعني أفنى فيه من كان لا يرضى إيمانه من أكابرهم.

ولما أراد شياطين اليهود إعادة تفريق المسلمين بعد الهجرة، وجلس شيطان منهم يذكر ما تقاولت الأوس والخزرج يوم بعاث من شعر وخطابة، وتحركت الضغائن التي أماتها الإسلام، وتواعدوا على الخروج إلى الحرة مرة أخرى، فبلغ النبي ﷺ فجاء إليهم وذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم؛ الإسلام، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٣]. فبكى الأنصار المتحفزون لإعادة الحرب بينهم مرة أخرى جذعة، وفشلت دسيسة اليهود وتصافح الإخوان المسلمون وندموا وأنابوا.

ورجع اليثربيون، سكان يثرب إلى بلدهم بعد الحج وأشاعوا خبر الرسول في يثرب وانتشر الإسلام في المدينة انتشار النار في الهشيم، ولم يبق دار في المدينة إلا دخلها الإسلام.

وبعث رسول الله ﷺ إلى المدينة من يعلمهم ويزكيهم كمصعب بن عمير وسالم مولى أبي حذيفة، وأخبرهم النبي ﷺ برؤياه لدار الهجرة، وأنه

ذهب ظنه إلى أنها اليمامة لما رأى فيها من النخيل الذي يشبه نخيل المدينة، ولكنه صحح الرؤيا وقال إنها يثرب.

وهاجر أصحابه قبله أفرادًا وجماعات متسليين من قريش، وحصارهم إياهم، فكانوا يخرجون خفية متسللين إلا ابن الخطاب فإنه تقلد سيفه ورمحه ووقف على ملأ قريش، وأعلنهم بالهجرة؛ أنذرهم أن من هانت عليه نفسه فليخرج ورائي خارج الحرم.

وجاء أهل يثرب في العام القادم سنة ١٣ من البعثة إلى الموسم، وقد أسلم منهم جمع غفير، وتواعدوا مع الرسول خارج منى عند جمرة العقبة ليبايعوه على أن يحموه مما يحمون منه أولادهم ونساءهم وخرج معه عمه العباس مع أنه على دين قومه واستوثق منهم على حماية ابن أخيه، وانتخبوا منهم اثنى عشر نقيبًا ينوبون عن قومهم، كل نقيب عن قبيلته وتمت البيعة.

وعلم بها قريش وسألوا أهل يثرب، فحلف مشركوهم صادقين أنهم لم يحصل منهم شيء يعكر على قريش، وسكت المسلمون المبايعون وانصرف الناس إلى ديارهم بعد الموسم قافلين، وَهَمَّ الصديق أبو بكر بالهجرة، فاستمهله الرسول حتى يؤذن له، وفرح الصديق بهذه الصحبة المرجوة وعلف راحلتين؛ استعدادًا لذلك.

هجرة الحبشة

ولقد كان أيام اشتداد قريش على أصحاب النبي ﷺ أن هاجر كثير منهم إلى الحبشة لما اشتهر من عدل النجاشي وحمايته للاجئين إليه، وقد كان عند ظنهم به، فحمى المهاجرين وآواهم، حتى إن قريشًا غاظهم ذلك فأرسلوا إلى النجاشي هدية من أدم ومسك؛ رشوة لتسليم المهاجرين إليهم. ولما اجتمعوا جميعًا عند النجاشي، وأناب المهاجرون عنهم جعفر بن أبي طالب فقرأ جعفر على النجاشي شيئًا من القرآن وحكى له صفة النبي ﷺ ومعرفتهم به وما عرفوا من دين الجاهلية، ففاضت عينا النجاشي مما عرف من الحق وقال

قولته المشهورة: هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة.

ولما حرضوا النجاشي على المهاجرين أنهم يتكلمون في عيسى ابن مريم ويقولون فيه قولًا عظيمًا، فقرأ جعفر أول سورة مريم، فقال النجاشي: ما زاد عيسى ابن مريم عن هذا ولا قدر هذه القشة، وأخذ قشة من الأرض، ورجع عمرو بن العاص ورفقته خائبين بهداياهم من عند النجاشي، وقال النجاشي للمهاجرين: اذهبوا فأنتم سيوم، أي: أحرار عندي.

آن أوان الهجرة[1]

ماذا تعمل قريش، لقد جادلت عن دينها أشد الجدال وضيقت على الداعي إلى إبطال دينها والاستبدال به دينًا جديدًا أشد الضيق من الأذى والعدوان عليه وعلى من اتبعه، والمسلمون كل يوم في ازدياد كما قال أبو سفيان - وهو مشرك - لهرقل عظيم الروم حينما سأله: هل يزيدون أو ينقصون؟ وقال أبو سفيان: بل يزيدون. فقال هرقل: وهكذا شأن الإيمان حتى يتم. وسأله هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال أبو سفيان: لا. قال هرقل: وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

فماذا تفعل قريش في هذا الطوفان الذي أغرقهم وفي هذه الطامة التي خلت قلوبهم وفي هذه الرجفة التي زلزلت إيمانهم بدينهم وأصنامهم؟.

اجتمعوا للتشاور في ذلك في دار الندوة التي كانوا يجتمعون للتشاور فيها في مهام الأمور ومفزع الخطوب. ويقال: إنه انضم إليهم إبليس في صورة شيخ من نجد قائلًا: قد علمت اجتماعكم للتشاور في شأن هذا الرجل فلعلكم تجدون عندي مشورة أعينكم بها.

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - محرم - ١٣٨٠هـ.

اجتمــاع الشــورى

قال أحدهم: ننفي محمدًا عن بلدنا ونستريح منه وليفعل مع غيرنا ما يشاء.

قال الشيخ النجدي: ليس هذا برأي، فأنتم تعرفون فصاحته وأسلوبه الذي سحر به القلوب، فيؤلب عليكم الجموع، ويجيء إليكم ويقلعكم من داركم.

- وهذا هو الذي وقع في بدر وأحد والخندق وفتح مكة -.

قال آخر: نحبسه حتى يأتيه ما أتى الشعراء قبله من الموت.

قال النجدي: ليس هذا برأي فأنتم تعرفون أصحابه وتفانيهم في فدائه والموت لتخليصه، ويأتون بقضهم وقضيضهم ويخلصونه منكم.

قال أبو جهل: بدا لي رأي لعله لم يقع عليه أحد منكم؛ نجمع عشرين شابًّا من قريش ونعطيهم السلاح والسيوف والخناجر ويضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في قبائل قريش فنرضي بني هاشم بأخذ الدية ونستريح منه.

قال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي ولا رأي غيره.

وتعاقدوا على ذلك وأخذوا عليه عهودهم ومواثيقهم وشرعوا في انتخاب العشرين شابًّا من قبائل قريش ما عدا بني هاشم.

وهل ظهر إبليس في صورة نجدي كما تذكره الرواية أم هو الخيال صور لهم وسواسه فيما تخيلوه من تلك الصورة؟ أيا ما كان؛ فإبليس وجنوده مصدر الشر لبني آدم من يوم حسد أبانا آدم وأبى أن يسجد له وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال الله له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، وقال: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ

وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقوى الشر المتحركة لابد لها من محرك ظهر المحرك واستبان أم اختفى، ودلت عليه حركته وآثاره، فبواخر الاستعمار التي تجوس خلال الديار تمخر البحار لتخرب الديار يحركها البخار الذي لا يرى، وأوامر وزارة المستعمرات ورأس المفسدين في حكومات الاستعمار.

وإذا صحت الرواية في تمثل إبليس بشيخ نجدي فإنما ذلك ليقبل منه؛ لتجاور الحجاز ونجد، فلو تمثل لهم بمصري أو شامي أو يمني لما اطمأنوا إليه ولا أشركوه معهم في تشاورهم.

مكر الله ومكر قريش

مكرت قريش لإخراج النبي ﷺ من بينهم، أو حبسهم لتعطيل وظيفته، أو قتلهم له ليستريحوا منه كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] - أي يحبسوك - ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. [illegible] مكروا، وهكذا مكر الله بهم لنبيه.

خرج [illegible] م المجتمعين على بابه وفيهم فرعونهم أبو جهل، وأعلم الله نبيه بمكرهم فأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام على سريره، وخرج عليهم رسول الله ﷺ وقرأ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩]. فألقى الله عليهم النوم، وخرج عليهم رسول الله ﷺ ووضع التراب على رؤوسهم ومضى إلى دار أبي بكر رضي الله عنه واصطحبه معه إلى غار ثور على بعد بضعة أميال من مكة جنوبًا وأعد دليلًا خِرِّيتًا يعرف الطريق غير المعتاد من ثور إلى ساحل البحر إلى رابغ إلى المدينة وواعداه غار ثور بعد ثلاثة أيام يأتيهما فيه بالراحلتين.

صعقت قريش وداروا حول مكة يمينًا وشمالًا، شرقًا وغربًا؛ بحثًا عن طريدهم الشديد عليهم، وجعلوا دية مضاعفة لمن يأتيهم بمحمد وصاحبه حيًّا أو ميتًا ووصلوا ببحثهم إلى الغار ووقفوا عليه، وقال أبو بكر لرسول الله

ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1].

وأنزل الله في ذلك: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان يروح عليهما في الغار عبد الله بن أبي بكر بغنمه فيبيت معهم؛ يشربان من ألبان غنمه ويأتيهما بأخبار قريش، ويصبح كأنه بائت بمكة فيسمع ما تقوله قريش وما تعض عليه أناملهم من الغيظ؛ لفرار رسول الله وصاحبه أبي بكر، ويأتيهم بذلك كله عبد الله بن أبي بكر مساءً.

ولما انقطع الطلب جاءهم الخريت عبد الله بن أريقط برواحلهم فركبوا وأخذوا ساحل البحر؛ عن طريق جدة فرابغ.

والعجب من هذا الخريت المشرك الذي هو على دين قومه ويسمع وعد قريش بدية مضاعفة لمن يأتي بمحمد حيًّا أو ميتًا أو يدل على مكانه أو طريقه، ثم لا تهزه هذه الدية؛ مائتان من الإبل على كلمة يقولها عن مكان محمد الذي يعلمه، ويقنع بدريهمات قليلة لدلالته على طريق شاق طويل غير معتاد، ما هذا الوفاء؟ ما هذا الشهم بهذه الأخلاق العظيمة التي فطر الله عليها العرب؟! اختارهم لتبليغ دينه إلى الخافقين فكانوا سفراء الخير والخلق والدين بين رسول الله وبين سائر الناس.

وفي الناس اليوم الكثير الذي يبيع أخاه وربما أباه بحطام تافه تغريهم به السلطات الحاكمة، فتفسد بذلك أخلاقهم وضمائرهم، وما فطرهم الله عليه.

لذلك ارتقت العرب في عز الإسلام إلى أوج الكمال، بينما هبط غيرهم

(١) البخاري (٤٣٨٦) ومسلم (٢٣٨١).

إلى دركات الحضيض والدرك الأسفل من سوء الأخلاق.

وفي الطريق كانت قصة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي؛ وهي كما روتها السيرة[١] أن سراقة بينما كان جالسًا في مجلس قومه ضحى جاءهم آت فقال: إني أرى أسودة[٢] يزول بهم السراب، وأظنهم محمدًا ومن معه؛ الذين تطلبهم قريش. فوقع في نفس سراقة أنهم هم، ولكنه أراد أن يستأثر بدية قريش المضاعفة فقال: لا، إنهم فلان وفلان ذهبوا لطلب ضالة لهم وأرادوا بذلك صرف المجلس عند الظهيرة إلى بيوتهم.

وانصرف سراقة إلى فرسه فأسرجها وخرج بها من ظهر البيوت، وركض في طريق الساحل حتى أدرك الطريدين الشريدين، حتى كان منهما على بعد يراهما، فساخت قوائم فرسه في أرض صلدة جلدة، فزجر الفرس فقامت ثم ساخت قوائمها مرة أخرى ثم ثالثة، فعلم أن الأمر؛ أمر الطُرَداءِ الشُرَداءِ محوط بعناية الله تعالى، فناداهما بالأمان، وأن لا يدعوا عليه بسوء أو شر، فسارت فرسه مستقيمة نحوهما حتى أدركهما، وعرض عليهما المعونة، وأعطاهما [illegible] يراعي إبله إن احتاجا إلى شيء من لبن الإبل أو لحمها، فقالا: عم [illegible] تدعوا له بخير؛ استكتبهما أمانًا يبقى بيده، فكتب له أبو بكر صكًا بذلك لقي به النبي ﷺ في فتح مكة أو في حجة الوداع، وعرفه النبي ﷺ وأثنى عليه. وهو الذي سأل النبي ﷺ عندما قال ﷺ: **«أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا»**. فقال سراقة: أكل عام يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**.

ولسراقة قصة أخرى في غزوة بدر لما خرجت قريش بقضها وقضيضها لتحمي عيرها – قافلتها التجارية – التي كان عليها أبو سفيان قادمة من الشام،

---

(١) انظر قصة سراقة في البخاري (٣٦٩٣) ومسلم (٢٠٠٩).

(٢) أسودة: جماعة من الأشخاص.

فخرجوا لحمايتها من النبي ﷺ، ولما قربوا من بدر خافوا على أهليهم وذويهم من بني مدلج أن يبيتوا مكة في غيابهم عنها في غزوة بدر، فظهر لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وقال لهم: إني جار لكم لا غالب لكم اليوم لايأتيكم من بني مدلج ما تكرهون. فساروا مطمئنين على من خلفوا وراءهم في مكة حتى وصلوا إلى بدر فلما رأى إبليس المتصور بصورة سراقة؛ رأى جبريل يزع الملائكة - يصفهم ويسوي صفوفهم- نفض يده من يد أبي بن خلف وفر هاربًا فناداه؛ يا سراقة تجبن وتهرب، وهي كبرى الكبائر عند العرب أن يولي أحدهم ظهره ميدان القتال - فقال إبليس السراقي: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.

فما زال الناس يشنعون بذلك على سراقة ويحقرونها منه، حتى أسلم من أسلم منهم فعلموا أنه ليس سراقة، وفي الحديث[1]: **«ما رؤي الشيطان أذل ولا أحقر ولا أدحر في يوم ما رؤي يوم عرفة؛ لما يرى من تنزل الرحمات وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رؤي يوم بدر حينما رأى جبريل يزع الملائكة»: يعظهم ويرتبهم.**

وجاءت الرواية بتمثل إبليس بصورة سراقة وفي آيات ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الأنفال: ٤٧] يعني قريش بدر ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قول أبي جهل: نذهب إلى بدر فنشرب الخمر ونغني ونشتهر في العرب، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]. ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] - رجع القهقري موليًا الأدبار - وقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

في هذه الآيات ما يشهد لما جاءت به روايات السيرة من تمثل إبليس بصورة سراقة.

---

(١) الموطأ (٩٤٤) ومصنف عبد الرزاق (٨١٢٥).

وندع الذين يتوقفون في ذلك إلى جمودهم وما قلدوا فيه سادتهم الفرنجة من إنكار الجن وإنكار قدرتهم على التصور، والذي يقرأ القرآن والسنة الصحيحة ينفر غاية النفرة من هذه الدهرية الفاضحة، فهذا سليمان سخر الله له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ سرير بلقيس ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] يأتي به من اليمن إلى بيت المقدس في ضحوة يوم، وقال الله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وفي الأحاديث الكثير الطيب الذي لا ينكره إلا من أنكر الأحاديث أو حرفها في تمثل الجن وتصورها، لسنا في سعة من إيرادها.

وإذا كان الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط تمثلوا ضيوفًا مكرمين وجاءوا إلى الخليل كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] (مشوي) ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٠]؛ لأنهم ملائكة لا يأكلون الطعام، خلافًا لما جاء في التوراة أنهم أكلوا؛ غلطا من المترجم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] لأن من لم يأكل ربما أضمر لك الشر أو البغضاء، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٠- ٧٣] إلى أن قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٧- ٧٨] ضيوف جمال شباب مرد، صيد ثمين، هذا مطلوبهم لسد شهوتهم من الرجال. إلخ القصة عندما راودوه عن ضيفه، وطمس الله أعينهم و قلب قريتهم عاليها سافلها.

فإذا تمثل الملائكة بشرًا ضيفًا كرماء فلم لا تتمثل الجن فيما تشاء من صور تناسب حالهم من خسة أو نحوها؟! فالجميع من عالم الغيب، والواجب الإيمان بما جاء فيه من النصوص عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، والله المستعان.

سار الرسول وصاحبه أبو بكر في طريقهما إلى المدينة المنورة، وكان يخرج أهل المدينة كل يوم إلى ظهيرة النهار؛ انتظارًا لهذا القدوم المبارك حتى رجعوا، ونظر يهودي إلى هدف يريده في الحرة فرأى رسول الله ﷺ وصاحبه يزول بهم السراب على بعد، فنادى بأعلى صوته: يا بني قيله، هذا حظكم الذي تنتظرونه. فخرجوا مسرعين متقلدي سيوفهم وقابلوا رسول الله ﷺ أفرح ما يكون كانتظار الساري لطلوع البدر أو الظمآن للماء.

فنزل على بني عمرو بن عوف في منازلهم بقباء جنوب المدينة؛ ومكث عندهم بضعة عشر يومًا يصلي بهم في مسجدهم الذي نزل فيه، وفي المسجد النبوي بالأولى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ثم ركب وسار نحو المدينة والأنصار يستقبلونه أمام منازلهم هنا يا رسول الله على الرحب والسعة والعزة والنصرة، ويتعلقون بزمام الناقة، فيقول لهم: دعوها فإنها مأمورة.

حتى بركت بفناء أبي أيوب الأنصاري النجاري، فنزل عنها وحل رحله أبو أيوب، ونزل النبي ﷺ عليه وقال: «المرء مع رحله». وأنزله أبو أيوب في أعلى داره ونزل هو وأهله بسفلها، وكان يتنقل في أحياء المدينة ويصلي حيثما تدركه الصلاة في مرابض الغنم.

* * *

تعليقات على كتابي[1]

«العقيدة والشريعة في الإسلام»

«مذاهب التفسير في الإسلام»

تأليف «جولد زيهر»

يهودي مستشرق شرق بظهور الإسلام وبهره ضياؤه حتى غشي في ظلمات حقده وغياهب ضلاله، فذهب يفتري على الإسلام وعلى رسول الله الكريم بمفتريات حاقدة وأضغان قاتلة في كتابيه «العقيدة والشريعة في الإسلام» و «مذاهب التفسير في الإسلام».

ولقد كنا في غنى عن نبش أحقاد هذا اليهودي ومفترياته على الإسلام ونبيه، لولا أن بعض الكتاب مدح كتابه «مذاهب التفسير» وأشاد به وقال: إن نفعه أكثر من ضرره.

فأردت أن أذكر نماذج من كتابيه تدل المنصف البصير على إغراق هذا اليهودي في عداوة الإسلام وعدم التزامه حافة الإنصاف والعدل فيما ذكر عن الإسلام في كتابيه.

وحسبي ما أذكر من النماذج دلالة على سائر خبث ذلك الرجل الممتلئ قلبه بصديد البغض للحق والافتراء عليه، والبهتان والزور على دين الله الذي أرسل الله به رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وحسبي في ذلك اليهودي قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨- ١٠].

---

(١) مجلة المنهل – محرم – ١٣٧٩هـ (السنة: ٢٤).

نموذج (أ):

قال: «ذلك أن الإسلام كما يبدو عند اكتمال نموه هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكون بعضها باعتباره تصورًا وفهمًا أخلاقيًّا للعالم وباعتباره قانونيًّا وعقيديًّا حتى أخذ شكله النهائي وعلينا كذلك أن نتحدث عن التيارات التي أثرت في اتجاهات نهر الإسلام؛ لأن الإسلام ليس مذهبًا واحدًا بل حياته التاريخية تتأكد فيما نشأ فيه من اختلافات». اهـ.

وأجابه ناشروا كتابه بقولهم: يجعل الإسلام كسائر الأنظمة تطورًا وتدرجًا من طريق النقص إلى الكمال في عقائده وفقهه وغير ذلك، والإسلام كمل في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، بما جاء فيه من مبادئ وأصول وتفريع عليها، وما دخل عليه من دخيل من اليونان وغيرهم إن لم يوافق مبادئه فإن المسلمين ينبذونه ويهجرونه ولا يعد هذا الدخيل في الإسلام، وليس بصحيح ما ذكره فيما بعد؛ تأثر فقهه بالقانون الروماني.

وما تأثر به العباسيون في الأنظمة السياسية من قوانين الفرس فما خالف الحياة الإسلامية كان نقمة ووبالًا عليهم، ولنقرأ في كمال الدين في عصر النبوة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قلت: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٠- ٩١].

نموذج (ب):

قال (ص ٥ – س ٧): «ويبين ذلك، أي تطوره، إذا عرفت أن نمو الإسلام مصطبغ – نوعًا – بالأفكار والآراء (الهيلينية)، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني...

إلى أن قال (س ١٥): فمحمد لم يبشر بدين جديد من الأفكار، كما لم يحدث أيضًا بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره باللانهاية.

إلى أن قال (س ٢٣): فتبشير النبي ﷺ العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من عناصر وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقة عند بني وطنه، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية».

ورد عليه المعربون فقالوا: والرسول عليه الصلاة والسلام قد جاء على فترة من الرسل وغواية وعمي من الأمم، والناس في شرك وعبادات باطلة فهدى الناس وسن لهم الله على لسانه الهدى، كما أوحى إليه ما كان فيه شفاء لهم وإخراج لهم من الظلمات إلى النور.

وأقول: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

[المائدة: ١٩]

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

[المائدة: ١٥، ١٦]

وإذا كان الرسول الكريم المؤيد من الله قد استقى دينه - كما زعم هذا المفتري - من مصادر يهودية ونصرانية فلماذا لم يقع في أغلاطهم؟! بل بين ضلالهم وأغلاطهم وكذبهم على الله وعلى أنبياء الله تعالى وفضحهم في كتابه.

وكيف جاء الشرع المستقي المقلد أرقى من أصله ومنبعه بما لا يقاس بمراحل؟! ولماذا أسلم المنصفون من أهل الكتاب من يهود ونصارى واعترفوا بأن هذا هو الرسول الذي بشرت به أنبياؤهم وكتبهم؟!.

وهذا هرقل قيصر الروم يقول: وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، ولو أعلم أني أصل إليه لغسلت عن قدميه، ودعا الروم إلى الإيمان به ليفلحوا ويبقى لهم ملكهم فأبوا عليه حمية جاهلية وعصبية عمياء.

وكذلك شهد له المقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وأسلم وآمن به بعض اليهود. فأين كانوا من هذا المفكر الضال والرأي الخامج الذي جاء به هذا المفتري البغيض؟!.

وقال المعربون: رمى (جولد زيهر) النبي ﷺ هنا وفي مواضع أخرى بأنه استقى معارفه من المصادر اليهودية والمسيحية، وقديمًا نطق بهذه الفرية المعاصرون لرسول الله ﷺ ورد عليها القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

[النحل: ١٠٣]

أقول: وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

[الفرقان: ٥، ٦].

[1] (جـ) (ص ٦ - س ٤): قال جولد زيهر: «لقد تأثر - يعني النبي ﷺ - بهذه الأفكار تأثرًا وصل إلى أعماق قلبه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات

---

(١) تتمة مقال «تعليقات على كتابي «العقيدة والشريعة في الإسلام» و«مذاهب التفسير في الإسلام» لجولد زيهر. مجلة المنهل - صفر - ١٣٧٩هـ.

الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًّا إلهيًّا فأصبح بإخلاص على يقين بأنه أداة لهذا الوحي.

لا نريد أن نتتبع خطوة خطوة المراحل الباثولوجية التي نشأ فيها الشعور بهذا الوحي واعتقاده وتثبيته في نفسه، ومن أجل هذا علينا أن نذكر كلمة ذات معنى قالها (هارتاك) عن الأمراض التي تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم والتي يشتقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة، كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات، ومن ذلك حياة النبي ﷺ أو الحواري». اهـ.

وأجابه معربو كتابه في حاشية (ص٦) بقولهم: وقد علل هنا إيمان النبي بنبوته تعليلًا ركب فيه حظه من المعرفة التي لا تسمو عن المادة ولا تعدو المحسوس، وهو بذلك مجانب للإنصاف ومتسنم غارب الاعتساف، ثم يشير إلى عدم إمكان الوحي وأن أمر الأنبياء مسألة نفسية ترجع إلى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها، والمؤمنون بالرسل على غير هذا.

قلت: وقديمًا رمى المشركون رسول الله ﷺ بالجنون أو الجنة فأجابهم الله بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]. وقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ١-٣]. وقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩- ٣٤].

وقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٥، ٦].

فالمجنون محله البيمارستانت ومستشفيات الأمراض العقلية حيث يسلسل ويغل ويعبث فسادًا فيما تصل إليه يده، أما رسل الله فهم شموس

هداية عباد الله وأدلاء طرق الخير والصلاح وقادة قافلة المفلحين إلى خير الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

(د) (ص٧ – س ٦): قال: «وفي خلال النص الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارًا أخذ يجترها في قرارة نفسه، وهو منطو في تأملاته أثناء عزلته وليل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلمخ فيها أثر حالته المرضية».

إلى أن قال (س ٢٤): «وأخذ يقضي وقته في الخلوة في الغيران المجاورة للمدينة – مكة – حيث كان يهنأ للأحلام القوية والرؤى الدينية، وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئًا فشيئًا ليذهب إلى قومه منذرًا إياهم بما يؤدي لهم ضلالهم من الخسران المبين بكلمة واحدة، أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربيًا لشعبه – أي منذره ومبشره» اهـ.

وهذه فرية كسابقتها سبق لنا ردها كما سبق لمعربي الكتاب نسفها وإبطالها.

وحسبنا رد الله في رد ضلال منكري نبوته بقوله: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وهذا اليهودي من قبيل من قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وممن قال فيهم: ﴿وَمَا تُغْنِى

ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]. ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

(هـ) (ص ٨ – س ١): قال في بدء رسالته: «كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى، وتفاصيل كل ذلك كانت تتمثل في رؤاه الانجذابية في أشكال مروعة مخيفة» (ص ١٨ – س١٦).

وقال في (ص ١٤ – س ١٥): «ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد الصور التي أوحتها إليه حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي تلقائي ذاتي».

وقال (ص ١٨ – س ١٦): «بينا نرى محمدًا يسرد في الأولى – السور المكية – رؤاه الكشفية الإلهامية في فقرات مسجوعة متقطعة وفق صوت قلبه المحموم، نرى الوحي في الثانية – السور المدنية – يتخذ نفس الشكل كشخص مجرد من اندفاعه وقوته.... إلخ».

وذكر في (ص ١٤) أن الرسول غير طابعه وأسلوبه في المدينة عنه في مكة، ففي مكة كان يشعر أنه نبي متمم برسالته سلسلة رسل التوراة، وأنه لهذا عليه مثل أولئك الرسل؛ أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال.

أما في المدينة وقد تغيرت الظروف الخارجية فقد تغيرت مقاصده وخططه واتجهت اتجاهًا آخر بحكم تلك الظروف الخارجية... إلخ».

ورد عليه معربو كتابه: وهذا غير صحيح فما زال حتى توفاه الله يتفق مع من سبقه من الأنبياء في الأصول العامة للدين من التوحيد وغيره، واختلاف الفروع لا يعد خلافًا.

ويذكر المؤلف أنه يدعو إلى إصلاح دين إبراهيم وتطهيره فيما حاق به، وهذا حق في الأصول العامة، أما الفروع فهل يستطيع المؤلف أن يثبت هذا؟ وهل كيفية العبادات وأنظمتها في الإسلام كانت في عهد إبراهيم؟!

يبدو من المؤلف الاضطراب في هذه الناحية، فالنبي مرة عنده خارج على الأنبياء وهو مع هذا لم يأت بدين جديد بل أتى بدين إبراهيم.

وذكر في (ص ١٤ – س ١٥) أن القرآن تغير أسلوبه في السور المدنية عنها في المكية.

قال: «ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد السور التي أوحتها إليه حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي تلقائي ذاتي، وهو في هذا العصر لا يسمع صلصلة سيفه ولا يتحدث إلى محاربين أو رعايا مسالمين...».

إلى أن قال: «ولكن حمية النبوة وحدتها أخذت في عظات المدينة والوحي الذي جاء بها تهدأ رويدًا رويدًا، وحيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة، حتى لقد صار أحيانًا في مستوي النثر العادي، وكان من ذلك أن رأينا حياته الخاصة في جليل شئونها ودقيقها تدخل في نطاق الوحي الإلهي الصادر إليه».

ورد عليه معربوه بقولهم: ذكر أن السور المكية تمتاز في البلاغة وفنون القول عن السور المدنية. وهذه شنشنة يدأب عليها المستشرقون، ولا علم لهم بوجوه البلاغة وأساليب الكلام، وقد جاء كله حسب مقتضيات الأحوال قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج.

وأقول حسبنا في رده قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد تحدى فصحاء العرب وفرسان البلاغة أن يأتوا بسورة من مثله– مدنية كانت أو مكية– فعجزوا، وسجل عليهم هذا العجز بقوله تعالى: ﴿ وَإِن

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

(ز) (ص ١٧ - س ١): قال اليهودي: «وقد ساهم في تكوين عناصر هذه المذاهب - يعني الإسلامية - قواعد الدين اليهودي والدين المسيحي سواء، وتفاصيل هذه المساهمة والاشتراك لا محل للحديث عنه هنا». اهـ.

ورد عليه المعربون بقولهم: ليت شعري ماذا يريد بهذا الكلام المبهم؟ فهل يريد أن في الإسلام صلاة كما فيهما صلاة؛ ولكن أفلا يعلم أن الصلاة في الإسلام غيرها فيهما؟ وكذلك الصيام والزكاة.

وإذا أحس الكاتب اليهودي مطالبة القارئ له بالبيان يفر من الميدان بدعوى أن المقام ليس للإفاضة في هذا الحديث، ولكن المقام كان غنيًّا عن الرجم بهذه الدعوى والرمي بهذا الفند - أي البهتان.

(ح) (ص ١٦ - س ٢): قال: «وهو - يعني القرآن - في مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافًا جوهريًا والتي طبعت كلًّا من العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام».

وردوا عليه بقولهم: القرآن وحدة تامة لا تدافع فيه ولا تضارب: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] - ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٩] - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ

إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٥].

وكان علينا أن نعرض عن لغو هذا الأفاك وهرائه لولا أن بعض الجهال مدحه وأشاد به كما سيأتي.

(ط) (ص ١٣- س ٤): قال: «فتحريف الوحي القديم وغموضه اللذان أصبحا مناط شكواه صار لهما منذ ذلك الوقت أهمية كبيرة في تكوين فكرته عن رسالته النبوية، وما تتطلب من واجبات ذلك، إن بعض الذين مالوا عن دينهم الأول والذين كانوا يرغبون في مرضاته قد قالوا فيه: إن أنصار الدين القديم كانوا قد حرفوا الكتاب وأنهم أخفوا البشارات التي جاء بها أنبياء التوراة وأنبياء الإنجيل عن ظهوره في المستقبل، وهذه الشكوى ترى جرثومتها في القرآن..... إلخ».

وردوا عليه بقولهم: وماذا كان مع الرسول من أسباب السلطان والرغبات؟! هذا اتهام من الكاتب لم يبرهن عليه؛ اتهام للرسول واتهام لمن آمن به واتبعه من غير دليل.

(**أقول**): هذا النجاشي ملك الحبشة وعنده ضعفاء المسلمين الفارين من ظلم المشركين بمكة يقول: حينما قرءوا أول سورة مريم وفيها اعتراف بعبوديته لله ورسالته وولادته من مريم العذراء بلا أب.

يقول النجاشي: ما زاد عيسى على ذلك ولا بقدر هذه القشة؛ أخذها من الأرض، ويقول: هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة.

وهذا هرقل قيصر الروم بعد ما سأل أهل مكة حينما كانوا تجارًا بالشام- وكانوا حينئذ مشركين معادين للرسول- فسألهم عن أوصافه ثم قال: قد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه فيكم، ولو كنت أخلص إليه لغسلت عن قدميه، ثم دعا قومه الروم إلى مبايعة هذا النبي ليفلحوا ويسلم لهم

ملكهم فأبوا عليه ليجعلهم الله غنيمة للمسلمين فيما بعد.

وهذا ورقة بن نوفل المتنصر من أهل مكة حينما سمع أول القرآن سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] قال: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ليتني أكون فيها جذعًا حين يخرجك قومك وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

فقال له النبي ﷺ: «أَوَمخرجي هم؟» قال: نعم، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي[1].

فيؤمن به ورقة الذي كان يعرف الكتاب العبراني مع علمه بأن قومه سيخرجونه ويعادونه ويتمنى أن يعيش لذلك اليوم حتى ينصره نصرًا مؤزرًا.

وهذا المقوقس ملك مصر لم ينكر نبوته ولا بشارة الكتب السابقة به، ورد على رسوله ردًّا جميلًا وبعث إليه بهدية من هدايا مصر.

(ي) (ص ١٨ - س ٤): قال: «وهنا الركن الأخير - يعني الحج - احتفظ به محمد عن الوثنية لكنه جعله متفقًا والتوحيد، وعدل معناه مسترشدًا في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية». اهـ.

وأجابوه بقولهم: قوله: «الأساطير الإبراهيمية» من أدب المؤرخ أن لا يضفي على الحوادث عقيدته الخاصة وإنما يذكرها كما حدثت، ويذكر البواعث عليها ويدع الحكم فيها، ولكن الكاتب لا يلتزم هذا الأدب. فعزو الحج في أساسه إلى إبراهيم أمر جاء به الإسلام، فعلى الكاتب أن يدون هذا فحسب ولا يعرض لكون هذا أسطورة أو حقًا صراحًا، فإن عرض شيء من ذلك فليكن عند يقينه به ووقوفه على الدليل عليه، وترى هذا الأمر وهو خلع العقيدة الخاصة للكاتب مثبتًا في أثناء الكتاب في مواضع متعددة». ا هـ.

أقول: وماذا يرجو المعربون من كاتب كتب كتابه ليحضر به مؤتمرًا عقد بأمريكا لتاريخ الأديان فيتملق به الصهيونية الأمريكية التي لعلها هي التي نظمت هذا المؤتمر للتشويش على المسلمين والإسلام الذي غاظهم ظهوره

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

ونجاحه وغصبهم ازدهاره وقيامه بالنصيب الأوفر في تقدم الحضارة وخدمة الإنسانية، ومتى كان كاتب يهودي مستشرق يتملق الصهيونية خائنًا للإنصاف ومتحليًّا بالأدب مع دين يشرق بريقه حينما يرى نوره وضوءه للعالم.

(ك) (ص ١٨ - س ٧): قال اليهودي: «وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية تعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق الروايات المتواترة المحرفة وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة».

فأجابوه في (ص ١٨) بقولهم: قد كان القرآن حربًا على هذه التقاليد والروايات التي تعتمد على التثليث والصلب وما إليها، فكيف تكون عناصر القرآن؟.

وحسبنا أن نقرأ للمنصف قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

وقوله في تكذيب اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧].

(ل) (ص١٨ - س٩): قال: «كما ينضم إلى هذا وذاك شيء من القنوصية الشرقية؛ ذلك لأن محمدًا قد أخذ بجميع ما وجده في اتصاله السطحي الناشئ عن رحلاته التجارية، مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من هذا دون أي تنظيم».

قالوا: (القنوصية) نسبة إلى القنوص: كلمة يونانية - معناها - المعرفة. ثم أخذ بعده معنى اصطلاحيًّا هو محاولة التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف أو محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقًا مباشرًا بأن تلقى في النفس إلقاءً.

(م) (ص١٩ - س١٠): «وكذلك التقليد القائل يعد شيئًا قديمًا كان يجب على النبي تقويمه وكذلك الافتراض القائل بتحريف الكتب المقدسة، هذا وإن كان طبعا في الإسلام بطابع أقوى، إلا أنه قد وجد لهما أصل في بعض الأفكار التي تتصل اتصالات وثيقة بتعاليم القديس (كليماندس) المسيحية». اهـ.

وأجابوه بأن القول بتحريف الكتب المقدسة قديم وهذا لا يضر القرآن في شيء. فإن زعم أن صاحب الرسالة ﷺ قلد في هذا من سبقه، فهي دعوى بلا برهان، وهل كان كليماندس يقول بتحريف الكتابين في التثليث والصلب مثلًا؟ وهل كان كليماندس ينكر هذه الأمور التي هي من مقومات المسيحية في عهدها المبدل؟

[(1)](س): قال المعربون في (ص ١٩): يذكر اليهودي أن الوحي كان فيه نزعة من الحط من شريعة العهد القديم وعدها صادرة عن إله بعيد عن الرحمة.

والوحي والقرآن كان من دأبه الإشادة بالعهد القديم والعهد الجديد واحترامهما. والقرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وإنما ينعى على من حرف فيهما وبدل.

---

(١) تتمة مقال «تعليقات على كتابي «العقيدة والشريعة في الإسلام» و «مذاهب التفسير في الإسلام» لجولد زيهر». مجلة المنهل - ربيع الأول - ١٣٧٩هـ السنة (٢٤).

وتحريم أشياء على اليهود لم يكن للقسوة عليهم، وإنما كانوا يستحقون ذلك كما قال عقب ما حرمه عليهم: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

(بـه): آخر (ص ١٩) وأول (ص ٢٠): قال: «ومع تسليمه أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام فإنه رفض عامدًا فكرة أن الله استراح في اليوم السابع» اهـ. نعم رفض القرآن فكرة استراحة الله من خلق السموات والأرض في اليوم السابع بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

كما رفض تهورهم على الله بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]. وقولهم: إن الله ندم على خلق آدم. وقولهم: إنه حزن على الطوفان وبكى حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة. وقولهم: إنه نزل فتصارع مع يعقوب حتى صرعه يعقوب فابتلاه بعرق النسا في فخذه ... إلى غير ذلك من فرياتهم على الله.

فهل كان يحب الكاتب من رسول الله خاتم الرسل وكتابه المهيمن على الكتب كلها أن يقرر هذه الكفريات.

ثم ألا يستحي هذا اليهودي من بهته رسول الله ﷺ بأنه نقل دينه عن (المرقونية) أو (الفليماندسية)، ومن أين للأمي العربي هذه الأفكار؟

(ف): (ص ٢٠- س ٢٢): قال: «ويمكننا أن نقول عن جميع الأديان: إنها ذات قيمة مطلقة بالنسبة إلى إدراك أتباع كل منها وقيمة نسبية لدى عقل الفيلسوف الناقد».

وآخر (ص ٢٠) وأول (ص ٢١): «إننا اعتبرنا الدين الإسلامي مسؤولًا عن عيوب أخلاقية، ومسؤولًا كذلك عن ركود عقلي؛ وكل ذلك من الاستعدادات الجنسية». اهـ.

هـذا كـلام جاحـد للأديـان ومفـتر عليهـا، ولـئن صـح مثـل هـذا في اليهـوديـة والنصرانية فلن يصح في الإسلام الذي شهد له منصفو العقلاء والمفكرين أمثال: كارليل، وجوستاف لوبون الفرنسي، وجوستاف صرونيباه النمساوي، وغيرهم من أهل الإنصاف والعقل، وشهاداتهم الحق مدونة في مؤلفاتهم الشهيرة.

(ص) (ص ٢٢- س١١): قال: «كما تتطلب سائر الفضائل التي أخذها الإسلام عن الأديان السابقة والتي يعترف محمد ﷺ بأنبيائها أساتذة له». اهـ.

رده معربو كتابه بقولهم: هذه العبارة توهم ما لا يفهم المسلم، فالمسلم يفهم أن الفضائل ومكارم الأخلاق في أصول العقائد تتفق فيها الأديان، وجميعها من مصدر واحد هو العلي الحكيم، ولم يأخذ دين عن دين، والأنبياء السابقون أمر النبي ﷺ أن يقتدي بهم في طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع الفرعية.

وحاصل ذلك أن يقتدي بهم في الاستمرار على تبليغ ما أمر به والصبر في هذا السبيل، لا أن يأخذ لها عنهم ما أتو به فقد كفل الله ذلك بالوحي، وترى الكاتب لا يذكر ما جاء في آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قلت: فسرها ابن عباس بأخذ العهد على كل نبي أن يأمر أتباعه أن يؤمنوا بالنبي الذي يبعث بعده.

فقد أخذ العهد على موسى وعيسى أن يأمرا أتباعهما بالإيمان بالنبي محمد ﷺ، كما قال الله لموسى: (سأبعث في بني إخوتهم نبيًّا مثلك) بشارة بالنبي محمد ﷺ، وقال المسيح ابن مريم: (وسأذهب ويأتيكم الفارقليط يعلمكم كل شيء) والفارقليط هو أحمد، كما ذكر الله عنه في القرآن ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

(يز) (ص ٢٤) أولها: ذكر أربع آيات من سورة البلد.

ثم قال (س٣): «وهذا تفصيل أو شرح مطول لما جاء به النبي أشعيا (ص ٥٨: ٦ - ٩)».

وقالوا له: وهذا كما ترى تخرص على عادته وما كان النبي ﷺ ليعرف من أخبار أشعيا أو غيره إلا كما أنبأنا الله وقصه عليه، وما رأينا لهؤلاء المتخرصين دليلا على إفكهم فيما يزعمون.

قُلت: وليس لأشعيا ذكر فيمن ذكر الله من الأنبياء السابقين كحيقوق، وملاخي، وأرميا، وغيرهم ممن ذكروا في التوراة، فلا نصدق ولا نكذب بهم، ونقول: آمنا بأنبياء الله ورسله جميعًا، سواء من قصة الله علينا منهم ومن لم يقصصه، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ [غافر: ٧٨].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال عقب قصة موسى من سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى بعد ذكر كفالة زكريا لمريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال في آخر قصة يوسف من سورته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ولنذكر ألفاظ الآيات الأربع من «إصحاح ٥٨» من أشعيا؛ ليقارن المنصف بينهما وبين الأربع الآيات من «سورة البلد» ويتبين إن كانت الثريا أخذت من الثرى أو العكس!

قال أشعيا عن قول الرب: (أليس هذا صومًا اختاره حل قيود الشر، فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحرارًا وقطع كل نير).

٧- (أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك، وإذا رأيت عريانًا أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك).

٨- (حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبعث صحتك سريعًا، ويسير برك أمامك ومجد الرب بجميع ساقتك).

٩- (حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول: ها أنذا إن نزعت من وسطك الإيماء بالإصبع وكلام الإثم، وأنفقت نفسك للجائع وأشبعت النفس الذليلة؛ يشرق في الظلمة نورك، ويكون ظلامك الدامس مثل الظهر، ويقودك الرب على الدوام، ويشبع في الجدوب نفسك وينشط عظامك، فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه، ومنك تبنى الخرب القديمة، تقيم أساسات دور فدور فيسمونك مرمم الثغرة مرجع المسالك للسكنى). اهـ. (١٩/ ١٠).

(.) (ص ٢٣- س ٨): قال اليهودي: «فيما يتعلق بشعائر الحج التي نظمها أو على الأقل احتفظ بها من بين تقاليد الوثنية استنادًا إلى كلمة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ [الحج: ٣٤]».

قلت: دعواه أن محمدًا نظم شعائر الحج، أي اخترعها، ثم أعرض عن هذه الدعوى إلى شر منها؛ أنه احتفظ بها من بين تقاليد الوثنية، وكلتا الدعوتين تهدم إحداهما الأخرى.

وسبق في (ص ١٨- س٤) قوله: «وهذا الركن الأخير - يعني الحج - احتفظ به محمد عن الوثنية لكنه جعله متفقًا والتوحيد وعدل معناه مسترشدًا في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية».

وكلها دعاوى تنقصها البينات، فأقل ما يقال فيها إنها كذب على رسول كريم خير رسل الله على الإطلاق، وتهيب له بالكذب والافتراء على الله وعلى رسل الله؛ إبراهيم ومن بعده.

وقد قال الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦-٢٩].

وقال بعدما أثنى على الخليل بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٨] الآية.

(يط) (ص ٢٦- س ٣): قال: «على أنه يبدو أن هذا لم يرده محمد نفسه فقد قال: إن الله أرسله ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي أنه مرشد أنموذج، ومثل أعلى، على الأقل ليس أسوة حسنة إلا بفضل رجائه في الله وذكره الله كثيرًا».

وأجابوه في (ص ٢٦) بقولهم في الآية: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. أنه أساء فهمها. فقوله: لمن كان يرجو الله واليوم الآخر بدل من (لكم) أي: لقد كان لمن يرجو الله واليوم الآخر أسوة حسنة في رسول الله. أفبعد هذا يقال: لم يكن أسوة حسنة. إلخ.

ولقد كان الرسول ﷺ في حياته مثلًا أعلى للمؤمنين قبل أن يخلق علم الكلام، وكانوا يعتدون به في كل شيء، وكذلك ائتساء ابن عمر وغيره به معروف، وكذلك حصل في بيعة الحديبية واقتداؤهم في وضوئه وغيره معروف.

وكان الرسول يرى من نفسه التواضع ليقتدى به في ذلك ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**»[١]. وهو يعرف منزلته عند الله ومكانته من الرسل ويقول: «**أنا سيد ولد آدم**»[٢].

فإن كان المؤلف لا يشعر بأنه قديس بالمعنى المعروف عند الكتابيين بما يخرجه من صفات البشر فهذا صحيح، وقد كان النبي ﷺ يعلم - طبعًا - أنه صاحب معجزات وإلا لِم لَم يَدَعْ الرسالة؟ فما آية ذلك؟ وما هي السيئات التي صدرت منه تحت هذا الضعف؟!.

ويرد على هذا المفتري قول الله تعالى في مدح نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] يعني النبي ﷺ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] بقوله وعمله والاقتداء به.

وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(ك) (ص ٢٧- س ١٢): قال الحقود الحسود: «وبعد أن كانت الرؤيا تكشف له انهيار هذا العالم السيئ انتقل فجأة إلى تصور مملكة في هذا العالم، فهو الآن يحمل السيف في العالم ولا يكتفي بعصاه التي يضرب بها الأرض، ولا بنفثات شفتيه لإبادة الكفرة، بل هو نفير الحرب الذي ينفخ فيه، وهو السيف الدامي الذي رفعه لإقامة مملكته؛ هو نبي القتال والحرب كما ورد في التوراة».

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٩٥٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨).

أجابوه بقولهم: إن الرسول في المدينة وقد تمثل ما يفتح على أمته من الممالك لم ينس العالم الآخر، ويقول في أيام الخندق وقد رأى هذه الفتوح ما معناه: «إنني أخاف عليكم هذه الفتوح أن تفتنكم عن دينكم... والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن يفتح عليكم كما فتحت على من قبلكم فتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[١].

فلم يتقلب في المدينة ملكًا همه الثراء له ولأمته كما يصوره الكاتب زورًا وبهتانًا، فالرسول في مكة هو الرسول في المدينة، ولم تزل عيشته بعد الفتوح وما أفاء الله عليه العيشة الأولى.

قلت: وقالت عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ: لقد كنا نر الهلال والهلال والهلال وما يوقد في بيتنا وما لنا طعام إلا الأسودان التمر والماء[٢].

ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير طعامًا لأهله[٣]، حتى فكها خليفته من بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وسُئلت عائشة رضي الله عنها عما كان يعمله في بيته قالت: كان في خدمة أهله ويخصف نعله[٤].

وخرج يومًا من داره جائعًا فلقي أبا بكر الصديق فقال: «ما أخرجك الآن يا أبا بكر؟» قال: الجوع. وكذلك لقي عمر، فرجعوا جميعًا إلى بستان أبي الدحداح بن التيهان رضي الله عنه، فضيفهم على رطب وتمر وبسر، وذبح لهم عناقًا، فأكلوا وشربوا وقال: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة»[٥].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٥٨، ٤٠١٥)، ومسلم (٢٢٩٦/ ٣١، ٢٩٦١).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٦٧، ٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢).
(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٠٦٩، ٢٩١٦، ٤٤٦٧).
(٤) رواه أحمد ٦/ ١٢١.
(٥) رواه أحمد ٣/ ٣٣٨، والترمذي (٢٣٦٩).

ولما رجع عدي بن حاتم رضي الله عنه بالمدينة فاستوقفت النبي ﷺ امرأة في عرض الطريق، فوقف لها حتى فرغت من حاجتها، فوقع في قلب عدي أن هذه ليست من أخلاق الملوك، ثم دخل معه البيت فألقى إليه وسادة جلس عليها عدي، وجلس النبي ﷺ على الأرض. فأكدت في نفس عدي نبوته فأسلم وترك نصرانيته[1].

وجاءت جارية فأخذت بيده حتى ذهبت به إلى مواليها فشفع لها عندهم وقبلوا شفاعته.

واستشفع به مغيث زوج بريرة لما أعتقت وبقي هو رقيقًا مع حريتها ورقه.

فقالت بريرة للنبي ﷺ: شفاعة أو أمر؟ فقال: «**بل شفاعة**»[2]، فردت شفاعته. أفهذه وأضعاف أضعافها أخلاق ملوك أم أخلاق نبوة؟

(كا) آخر (ص ٣٠) وأول (ص ٣١): أعاد فريته على الرسول بأنه تغير حاله في المدينة عن حاله في مكة فقال: «إنه كلما أخذ عمل رسالة محمد يتقدم تقدمًا خارجيًّا ثم التحول تدريجيًّا، فبعد أن كان تحت سلطان الرؤى بالدار الآخرة والتي كانت تملأ نفسه وتؤثر في تبشيره خلال المرحلة الأولى من نبوته انتقل إلى الأماني الدنيوية القوية التي صار لها التفوق في خلال مراحل نجاحه، وهذا ما طبع الإسلام التاريخي بطابع الدين الحربي المتناقض تناقضًا مطلقًا مع مرحلته الأولى حيث لم يفكر في مملكة دائمة في عالم مصيره إلى الفناء، والذي هو في الوسط الحربي المحيط به مباشرة هو أنه أوصى بتحقيق رسالته؛ مستقبله لأمته، وهي جهاد الكافرين والتوسع في نشر الإسلام وفي سيطرته التي هي سيطرة الله على أوسع نطاق.

ومن ثم ترى أن مهمة المجاهدين في الإسلام لم تكن هداية الكافرين

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٢٥٧.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٢٨٣)، والنسائي (٥٤١٧).

فحسب، بل إخضاعهم أيضًا».

وأجابوه بقولهم: يمضي أيضًا على عادته في الزعم بتغيير حالة الرسول وطمعه في الدنيا وانتقاله محاربًا جبارًا، وهذا أبعد ما يكون عن حياة النبي ﷺ، فقد كان إذا عاد من فتح أو غزو يكون هجيراه: «تائبون آيبون حامدون لربنا عابدون»[1].

وكان المسيطر عليه وعلى أعماله النظر إلى الآخرة وواجب الدين والتحذير من عذاب الآخرة والتبشير بنعيم الجنة وما فيها مما لا يزال مبثوثًا في تضاعيف السور المدنية، ففي «النساء المدنية» يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [النساء: ٥٦-٥٧].

وأجابوه في (ص ٢٨) بقولهم: لم تتغير فكرة الرسول ﷺ عن الله - وحاشاه من ذلك - فإذا صبر في مكة وحارب في المدينة - وكلًّا بأمر الله - أفيقتضي ذلك تغيير فكرته عن الله؟! حاشا وكلا.

وأجابوه عن جهاد الإسلام في (ص ٢٨) بقولهم: كانت مهمة المجاهدين في الإسلام هداية الكافرين وإخضاعهم إن لم يهتدوا عنوة وكسر شوكتهم حتى لا يستشري شرهم فينالوا من الإسلام، فغرضهم ديني أبدًا، ولم يطبع الإسلام بالطابع الحربي رغبة في الحرب، بل الغرض الأول هو دفع العدوان عن الدين ونشر مبادئه القويمة.

قلت: ويؤيد ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩١٩)، ومسلم (٤٢٥).

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩- ٤٠].

وقولــه: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] إلى آخر الآيات في ذلك.

والتحقيق عند علماء الإسلام المحققين أن الجهاد في الإسلام كان لدفع العدوان وتأمين الحوزة، ولم يكن للإكراه على العقيدة قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة «الجهاد في الإسلام» حقق المسألة أيما تحقيق فارجع إليها إن شئت[1].

وفي آية المزمل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وهي في سورة مكية نزلت بعد الوتر، وقوله فيها: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] دليل واضح على أن النبي ﷺ ما تغير دينه لا في مكة ولا في المدينة وإنما كان الصبر على الأذى في مكة تأسيسًا وتربية له ولأصحابه حتى يشرع الدفاع عن النفس ورد العدوان متى تأهلوا لذلك.

فلم يتغير شرع الله في مكة ولا في المدينة في تأسيسه على دفع العدوان والجهاد لرد البغي والظلم، والأمور مرهونة بأوقاتها، وسنة التدرج في

(١) قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «أما قول من قال: بأن القتال للدفاع فقط، فهذا القول ما علمته لأحد من العلماء القدامى... وقد كتب بعض إخواننا رسالة في الرد على هذا القول، وفي الرد على رسالة افتراها بعض الناس على شيخ الإسلام ابن تيمية، زعم فيها أنه يرى أن الجهاد للدفاع فقط». انظر: «ليس الجهاد للدفاع فقط» مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحته (١٨/ ١٣٦).

التشريع كما هي في القدر والحياة سنة حكيمة جرى عليها شرع الله كما جرى عليها نظامه في الحياة والخلق والقدر.

[1] (ص٢٩):

يشنع اليهودي على قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

قال: «وهذه الصفة أدت إلى نتيجة حتمية وهي أن تمتزج بفكرة الله كما كان يمثلها محمد؛ بعض السمات الأسطورية التي تقلل من شأنها، كما أن المحارب ذا القدرة اللانهائية في حاجة إلى الدفاع عن نفسه ضد كيد أعدائه ومقاومتهم بلا انقطاع بوسائل تشبه وسائلهم وإن كانت أقوى منها؛ لأنه حسب مثل عربي قديم مأثور: الحرب خدعة[2]... إلخ».

ثم قال في (ص ٣٠- س٣): «وليس من الممكن بطبيعة الحال أن نزعم أن محمدًا كان يتصور الله كان يكيد ويمكر حقًا، فما في الآيات من تهديد يجب أن يفهم بمعنى آخر، وهو أن الله يعامل كلا بحسب سلوكه وعمله... إلخ».

أجابوه: عمد الكاتب إلى آيات وردت في جانب الله على سبيل المشاكلة والاستجازة والتوسع في العبارة على سنن العرب في كلامهم، فحملها على الحقيقة والتشبيه، وبنى عليها نتيجة فاسدة ومثل بقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والعجب أن الكاتب يعمد بعد هذا فيقرر أن الرسول لم يكن يفهم هذه الآيات على ظاهرها، يعني مشابهة المخلوقات، بل يفهمها بمعنى صحيح

---

(١) تتمة مقال «تعليقات على كتابي «العقيدة والشريعة في الإسلام» و «مذاهب التفسير في الإسلام» لجولد زيهر مجلة المنهل – جمادي الأولى – ١٣٧٩هـ – السنة (٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٦)، ومسلم (١٧٣٩).

مناسب، وإذن ففيم هذا الإيهام؟ وأين – في هذه – السمة الأسطورية التي يزعمها؟!

أقول: والذي فهمه المسلمون جميعًا من أمثال هذه الآيات هو المعنى اللائق بجانب الله تعالى الذي لا يشبه صفات خلقه، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فمفادها هو ما تفيده جميع صفات الكمال والجلال لله تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف وإبطال؛ شأنها في ذلك شأن رحمة الله ورضاه وغضبه وفرحه وسخطه إلى أمثال ذلك من صفاته التي فهمها المسلمون على ما يليق بجلال الله تعالى.

ونسى هذا اليهودي ما في توراته من تمثل الله في صورة إنسان ومصارعته ليعقوب طول الليل، وعجزه عن يعقوب حتى ضربه في حق فخذه، «إصحاح» (٢٢، ٢٤ – ٣٠).

وما في التوراة «إصحاح» (٦ آية ٦): وحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته؛ الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء؛ لأني حزنت لأني عملتهم.

فيعمى هذا الحاسد الحقود عن ذلك في كتابه، ويشنع على آيات من كتاب الله ويسميها أساطير، كما قيل: «رمتني بدائها وانسلت». وكما قيل: «الهوى يعمي ويصم». وقيل في المثل: «من كان بيته من زجاج فلا يرم الناس بالحجارة». وكما قيل[1]:

وكم من عائب قولا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم

وكما قيل[2]:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يذق مرًّا به الماء الزلالا

---

(١) القائل هو المتنبي. انظر خزانة الأدب (١/ ١٩٢).

(٢) القائل هو المتنبي . انظر خزانة الأدب (١/ ١٨٩).

وكما قيل: «قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد» ... إلخ.

(لـج): (ص ٣٠- س٢٤): قال اليهودي: «ومع هذا فهناك ضلال أسطوري في الطريقة التي يتصور بها محمد الله؛ إذ تؤدى إلى أن الله ينزل من عليائه السماوية ليصبح الشريك المعين للنبي في جهاده الذي أخذ به في الأضطلاع في هذا العالم».

أجابوه في (ص ٣٠) بقولهم: ومحمد أبعد الناس أن يتصور النزول الجسمي لله، وأي شيء فيه ما يمت للجسدية، والإيمان بنصره وأقداره لا ضلال فيها.

وفي (ص ٣٥- س ١١): قال اليهودي: «فإننا لا يمكن لنا أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفي وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية».

وأجابوه بقولهم: الكتاب والسنة وما فيهما من أصول ومبادئ يواجهان الحياة العامة للإسلام في كل عصوره، وما كان من نسخ في حياة الرسول كان لأن الوحي لم يكمل، فأما ما قبل وفاته بقليل فقد كمل الوحي وأقفل باب النسخ. ويفزع المسلمون دائمًا في كل أمورهم إلى الكتاب والسنة، فإن خرج بعضهم على قواعد الدين فقد ظلم نفسه وباء بالخسران في عمله.

ويشهد الكاتب أن القرآن كان دستور المسلمين في العصر الأول، وقد كان المسلمون حينئذٍ أولى قوة وأولي بأس وذوي مدنية راقية، أفلم يكن هذا دليلًا كافيًا لكافية الكتاب والسنة؟.

قال في (ص ٣٦) للقسم الأول ص ٢٧٢: «فأيًا ما يكن الحكم الذي يمكن أن يكون للقيمة الأدبية للقرآن فإن مما لا جدال فيه في رأي الخالي من التعصب أن الذين اشتغلوا في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان بكتابة القرآن قد قاموا بعملهم أحيانًا على صورة غير مرضية.

إن أقدم السور المكية المتميزة بقصرها والتي سبق أن اتخذها النبي

نصوصًا تعبدية تتلى في الصلاة وذلك قبل هجرته إلى المدينة والتي تؤلف كل مقطوعة منها جزءًا كاملًا من التنزيل كانت بسبب إيجازها أقل تعرضًا للتصحيف عند جمعها وكتابتها.

أما بقية سور الكتاب وخاصة في بعض السور المدنية فيتجلى فيها عدم النظام والارتباط مما سبب كثيرًا من المتاعب وأقام صعابًا عديدة في وجه المفسرين في العصور التالية، والذين كان عليهم أن ينظروا ترتيب السور والآيات على اعتبار أنه ترتيب أساسي ونظام جوهري لا يمكن أن يمس، ولو تحقق في وقت من الأوقات وفاقًا لرغبة (رودلف جينز) أن تنشر طبعة للقرآن انتقادية حقًّا ومتضمنة استيفاء كاملًا وتمحيصًا نافيًا للنتائج العلمية ينبغي أن تغير مواضيع بعض الآيات المقتطعة من سياقها الأول وعدم إبقاء التنقيحات والتحسينات المختلفة، وأن حقيقة التغييرات التي حدثت أثناء جمع القرآن وتحريره فقد أوضحها (نولدكه) في البحث الذي أفاده عن ترتيب بعض [illegible] في كتابة تاريخ القرآن.

وعندما [illegible] وجود زيادات لا مبرر لها يكون من الميسور أن نصل أحيانًا إلى أن نحل بسهولة كثيرًا من مصاعب فهمنا للمتن».

ثم مثل بآية: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] الآية.

ثم علق عليها بقوله: «فالنبي هنا يأذن للمؤمنين بحرية الجلوس على موائد ذويهم وأقربائهم، بل يأذن لهم بقبول ضيافة قريباتهم؛ فيتبادر إلى الذهن في أول وهلة أن الكلمات الأولى في الآية الستين التي تزيد في هذه الإباحة فتشمل العميان والعرج والمرضى لا تلتئم كثيرًا مع السياق الطبيعي لبيان الفكرة وتفصيلها».

إلى أن قال: «غير أن فحصًا أعمق من هذا يثبت أن هذه القطعة الغريبة عن سياق الفكرة وبسطها قد نقلت من مجموعة أخرى من الحكم والتعاليم إذ هي

تنطبق في الأصل لا على مشاركة الإنسان في تناول الطعام في غير منزله، ولكن تنطبق على الاشتراك في الغزوات عندما كان الإسلام في بدايته.

إن النبي في سورة الفتح من الآية: ١١ إلى: ١٦ يغلظ القول ويعنف الخالفين من الأعراب الذين لم يشتركوا في الغزوة السابقة وينذرهم بعقاب صارم من ربهم، تضيف الآية: ١٧ ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾. وهي كنص الآية: ٦١ في سورة النور، فهذه الجملة أدخلت في هذا السياق الآخر الذي كانت غريبة عنه، وقد أثرت تأثيرًا واضحًا في تحرير الآية التي لا يمكن إعادة بدايتها الأصلية مع وجه الدقة».

أجابوه بقولهم في (ص ٢٧٥): يكفي الرد على كل ما أثاره المؤلف هنا من شبهات أن نقرر أن هؤلاء الضعفاء كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء؛ يخشون من استقذارهم، وكانوا كذلك يتحرجون من دخول بيوت المجاهدين في غيبتهم، مع أنهم أذنوا لهم في دخولها. فرفعت الآية: ٦١ الحرج عنهم في الحالين جميعًا، ولا شك أن كلا التفسيرين ملائم لما قبله وما بعده، وكلاهما أثبته البيضاوي.

كان الإنصاف يقضي إذن على المؤلف أن يعرضهما معًا! لكنه اختار معنى آخر مردودًا وهو الترخيص لهؤلاء الضعفاء في القعود عن الجهاد ليبني عليه افتراضه الخيالي وهو أن هذه القطعة قد نقلت من سورة الفتح، ولا صحة له إلا تشابه اللفظين.

قلت: هذا جوابهم لليهودي في دعواه عدم انسجام الآية ٦١ من سورة النور، وهو كاف في رد هجومه وتهوره على نظم القرآن.

وبقي أن نجيبه على اتهام كُتَّاب القرآن في عهد أبي بكر وعثمان بأنهم قاموا بعملهم أحيانًا على صورة غير مرضية.

يقال لهذا اليهودي الذي حسد الإسلام على تواتر كتابه حفظًا ونقلًا وكتابة مع حرمان دينه اليهودي من هذه المزية وضياع كتابهم «التوراة» إبان السبي البابلي، وكتبها لهم عزيرٌ الكاتب من أفواه العجائز وحكايات الشيوخ وأفواه الناس، فوقع فيها من التحريف والغلط ما بينه العلماء الأعلام وسجله الله عليهم في كتابه المجيد بقوله: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤] مع

التحريف والتبديل الذي سجله عليهم بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]. وقوله تعالى عنهم: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

فجاء الحاقد الحاسد ينتقم من الإسلام في دعوى قيام كتاب القرآن في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان بعمل غير مرض، والتاريخ والقرآن والواقع يكذبه في هذا البهتان والافتراء، فالقرآن حفظه مع الرسول ﷺ الجم الغفير وقرأه عليهم في الصلوات والخطب وجلساته العلمية.

وأين كان أبو بكر وعمر وعثمان عند قيام هؤلاء الكتبة بعمل غير مرض في تدوين القرآن الكريم؟ والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وصدق الله وحفظ كتابه على ممر القرون وتعاقب الزمان مع وجود أعدائه من الكفار والمشركين والمنافقين والقرآن قائم يتلى في المساجد في الصلوات والدروس و[illegible]ارس بلا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقر[illegible] [illegible]ما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْ[illegible] أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

فالقرآن والتاريخ وإجماع المسلمين وعقلاء أهل الكتاب يكذبون هذا المفتري، ولكن العمى الذي اختاره هذا اليهودي لنفسه جره على وجهه إلى هذه المباهتة التي لا يوافقه عليها إلا من هم مثله حسدًا وحقدًا وجحدًا وعنادًا للحق.

يتحدى القرآن الإنس والجن أربعة عشر قرنًا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا أو معينًا. قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] أي معينًا.

فهيا يا معشر الحساد والكفار اجتمعوا جميعًا وردوا على هذا التحدي وأتونا بكتاب أهدى من القرآن أو مثله في الهدى والرشاد والهداية التي هي

أقوم، بل يتحداكم بعشر سور مثله، بل بسورة واحدة، وإلا فموتوا بغيظكم واكتموا قيأكم وصديدكم في صدوركم إن كان لكم بقية من حياء وإنصاف.

وأما دعواه في عدم انسجام السور المدنية لطولها بخلاف المكية، فدعوى الأعمى الذي يعيب ضوء الشمس، والأصم الذي لا يسمع الأصوات والألحان والموسيقى والأغاني، ثم يذهب إلى ذم ما لم تهتز به طبلة أذنه ولم يدخل أوتار سمعه.

إن القرآن الذي أنزله الحكيم العليم ليتلى في الصلوات ويكرر في الأوراد في جميع الأوقات قد نوعه الله أجمل تنويع وفصله أبين تفصيل وكرره بالإيجاز والإطناب والإجمال والتفصيل حتى لا تسأم النفوس تلاوته ولا تمل القلوب تكراره.

فليس هو كمؤلفات البشر؛ مبوبًا كل نوع منه على حدة مثل كتب القوانين أو الفنون والعلوم التي لا يستطيع الإنسان إعادة ما قرأ منها فضلًا عن تكراره وترديده. وجرب بنفسك كتابًا من هذه الأنواع فاقرأه عدة مرات لترى السآمة في كل مرة تعيده فيها والملل عند كل إعادة.

أما القرآن فالمسلمون يقرأونه بكرة وعشيًا في صلواتهم ودروسهم وأورادهم بلا ملل ولا ضجر بسبب عذوبة لفظه وتنويعه على أحسن وجه كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

أما هؤلاء الذين طبع الحسد والحقد على قلوبهم فقد بين الله حالهم مع القرآن بقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] هو حجاب أهوائهم وكفرهم وجحودهم وحسدهم وحقدهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٤-٦].

[١] وفي (ص ٤٧- س١٨): قال: «وليس غريبًا أن تكون هذه التعاليم الفقهية والتشكيلات المستعملة قد تأثرت كذلك بثقافات أجنبية، كما أن المعارف الفقهية الإسلامية تحمل - على سبيل المثال كما حقق ذلك البحث الحديث تحقيقًا ثابتًا - آثارًا غير منكورة من الفقة الروماني».

أجابوه في (ح) (ص ٤٧): يذكر أن الفقه الإسلامي تأثر بالقانون الروماني وغيره، وهي نزعة للمستشرقين لم يقيموا عليها دليلًا، وإنما يبغون انتقاص مقومات الإسلام والحط منها بداعي الهوى والعصبية ومصادر الإسلام معروفة ليس منها هذا الذي يهرفون به.

ومع هذا فحسبنا أن نشير إلى بحث الأستاذ الكبير صليب سامي باشا أحد الوزراء السابقين الذي نشر بالأهرام وبمجلة الشبان المسلمين بعددها المؤرخ في ٨ يونية عام ١٩٤٥م، ففيه دحض هذا الرأي من المستشرقين. اهـ.

قلت: ويقال لهم حينئذ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦] فهذا منصف من أهل الكتاب يرد هذه النزعة المغرضة لهؤلاء المستشرقين الذين شرقوا بريقهم من ظهور الإسلام وهم ممن قال الله في أمثالهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وفي آخر (ص ٩٥) وأول (ص ٩٦): قال: «كان واجبًا عليهم أولًا أن

---

(١) تتمة مقال «تعليقات على كتابي «العقيدة والشريعة في الإسلام» و «مذاهب التفسير في الإسلام» لجولد زيهر. مجلة المنهل - جمادي الآخرة - ١٣٧٩هـ - السنة (٢٤).

يستأصلوا ما لا يتفق وسمو الله من الأفهام أو التصورات التجسمية التي توجد في المذهب السني التقليدي؛ هذا المذهب الذي كان لا يقبل شيئًا آخر غير التصديق الحر في التعابير والنصوص المجسمة والمشبهة التي جاءت في القرآن والحديث والنصوص المتواترة، فالله البصير السميع الغضوب الضاحك، والذي يجلس ويقف، وكذلك يداه وقدماه وأذناه مما كان غالبًا جدًّا موضع حديث في القرآن والحديث والنصوص الأخرى.

كل ذلك يجب في رأي السنة أن يفسر حرفيًّا، وأن يؤخذ على ظاهره، والمدرسة الحنبلية بصفة خاصة قاتلت انتصارًا لهذا الفهم والتصور الخشن لله، وكانت تلزمه لأنه السنة في رأيها». اهـ.

وجوابه: أن هذا بهتان عظيم على الإسلام وكتابه وأهل السنة، فليس في الكتاب ما يهتم به من أذنين وقدمين وضحك وغضب وجلوس وقيام... إلخ هذا البهتان.

وإنما فيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفيه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. وفيه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. وفيه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وفيه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وفي كلام أئمة الإسلام: العجز عن درك الإدراك إدراك، والبحث عن سر الذات إشراك، تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا.

وما جاء في النصوص من الصفات مما يظنه هذا المفتري تجسيمًا كاستواء الله تعالى على عرشه، ووصفه بالسمع والبصر، والقدرة والإرادة، والغضب على أهل الغضب، والرضى والرحمة والضحك، ونحو ذلك، فهمه المسلمون عمومًا وأهل السنة خصوصًا على ما يليق بجلال الله تعالى مع عدم مشابهته المخلوقات. وتعالى الله تعالى عن التشبيه بخلقه أو

التجسيم مما لا يليق بجلال الله وقدسيته وتنزيهه عن مشابهة خلقه.

وفي (ص ٢٠ – س ٨): قال: «بل قبل أن يغمض النبي عينيه، وعلى الأخص بعد وفاته مباشرة تحول المبدأ السائد إلى مبدأ آخر، ففكرة الزهد في العالم حلت محلها فكرة فتح العالم». اهـ.

قالوا له (ح) (ص ١٢٠): يذكر أن محمدًا ﷺ تحول من الزهد إلى الطمع في العالم ففكرة الزهد في العالم حلت محلها فكرة فتح العالم.

الزهد الكلي في الدنيا لم يكن من شريعة الإسلام، ولا مما عرف عن الرسول وأصحابه في صدر الإسلام، ولا في آخره، والإسلام دائمًا دين القوة والعمل، وهو يرغب عن التبتل والرهبانية والانقطاع عن الحياة ومن دلائل ذلك ما تجده في سورة القصص المكية: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧] هذا هو المبدأ الذي يتجلى في الإسلام في أوله وآخره ورغبة الرسول في الفتح، وتوجيه أمته إلى ذلك؛ إنما هو لنشر دين الإسلام الذي هو دين عام لخير العالم، وقد كلف بتبليغه بحسب استطاعته وما يسعه زمانه، وعلى خلفائه وسائر أمته أن يتابعوه في هذا التبليغ.

وأما وقوع التفكير في الفتح بعد الهجرة؛ فلأن الأمر في مكة ما كان ليتسنى لمثل هذا التفكير ولم يكن قد جاء أوانه. اهـ.

ونقول لهذا اليهودي: ألم يكن بنو إسرائيل مأمورين في مصر بالصبر وتحمل الأذى من فرعون وقومه، حتى قالوا لموسى حينما قال لهم: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩]. وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥-٦].

فهذه سنة الله في خلقه يبعث رسله في أمم ضعيفة، ويأمرونهم بالصبر وتحمل الأذى حتى يقويهم الله وينصرهم ويمكن لهم في الأرض ويستخلفهم فيها كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وليس في الإسلام تلك الرهبانية التي ابتدعها أوائل النصارى من ترك الزواج والغنى وتحريم الطيبات كما قال الله عنهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وقال الله تعالى في سورة الأعراف وهي مكية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فدعوى اليهودي على الرسول والإسلام والمسلمين أنهم تغيروا في حياتهم المدنية في النظر إلى العالم وفتحه عن حياتهم المكية في الزهد في الدنيا، دعوى باطلة كاذبة يردها الدين من أوله إلى آخره؛ مكية ومدنية.

وفي سورة المزمل المكية: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] فأشارت الآية إلى أن المؤمنين سيكونون تجارًا ومقاتلين في سبيل الله وهي آية مكية من أوائل ما نزل.

والصحابة الذين ذكر ثراءهم من الغنائم كالزبير وطلحة وأمثالهما لا لوم عليهم إذا اغتنموا من الحلال؛ من التجارات والسير في الأرض، وأدوا حقوق الغنى من زكاة وصدقات ومواساة المحتاجين، فليسوا كاليهود الذين قالوا: ليس علينا في الأميين من سبيل فيأكلون الربا والسحت ومال من ليس منهم وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفي (ص ١٢٢ - س ٦): قال: «وكانت البواعث الغالبة التي دفعت العرب إلى القيام بالفتوحات هي الحاجة المادية والطمع، كما فصل ذلك في دقة عظيمة «ليوني كاتبًا» في عدة فقرات من كتابه عن الإسلام».

قالوا له في (ح) (ص ١٢٢): ذكر أن البواعث الغالبة التي دفعت العرب إلى القيام بالفتوحات هي الحاجة المادية والطمع، وقد علمنا الدوافع إلى الاهتمام بنشر الدين، وان الرغبة فيه كانت لنشر الدين وتكوين دولة عالمية، وأما المال فلم يكن القصد إليه إلا أمرًا ثانويًا.

وقد روى الطبري[1] في حوادث السنة المائة أن عمر بن عبد العزيز كتب لعامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي بوضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة - أي رفعها عنهم - فكتب إليه: إن الناس سارعوا إلى الإسلام فرارًا من الجزية لا حبًا فيه. فكتب إليه عمر بتأكيد وضعها - أي إسقاطها - عمن أسلم؛ لأن الله بعث محمدًا داعيًا ولم يبعثه جابيًا. ا هـ.

قلت: رضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن العزيز أعدل خلفاء بني أمية الذي بين حكمة الله تعالى في بعث رسوله محمد ﷺ داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وبشيرًا ونذيرًا، كما أمر الله تعالى أهل الكتاب باتباع النور الذي أنزل معه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فأي هداية رآها العالم مثل الهداية النبوية المحمدية؟! وأي نور أضاء العالم كنور الإسلام؟! ولقد كانت الأمم تتخبط في ظلمات الجهل واستبداد الحكام وتحكم رؤساء الدين حتى جاء الإسلام وفك آصارهم وأغلالهم فسارعوا إلى الله فرحين مستبشرين مسرورين كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣١٤).

يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فالمسلمون أعزهم الله بالإسلام وليسوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤-٨].

وفي (ص ١٢٧ - س ٣٤): قال: فقد روى عنه أنه قال: «حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء». مع هذه الإضافة: «وجلعت قرة عيني في الصلاة».

قالوا له في حاشية (ص ١٢٧): يرى أن جملة «وجعلت قرة عيني في الصلاة». زيادة أضيفت إلى حديث «حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء»[1]

ولیتنا نعلم ما الذي رابه في هذه الجملة حتى حكم بزيادتها؟ وهل كان في حياة الرسول العملية ما لا يتفق مع مضمون هذه الجملة؟.

لقد كان النبي ﷺ مقيمًا للصلاة، ويهش لاستقبالها ويقول: «أرحنا بها يا بلال»[2]. وكان كما روى أبو داود[3]: «إذا حزبه أمر صلى».

كما كان يصلي في السلم والحرب، وفي شدة الخوف، وشرع ذلك كله للمسلمين.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩)، والنسائي (٣٩٣٦، ٣٩٤٠).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٨٥). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٣) رواه أبو داود (١٣١٩).

والحديث بهذه الزيادة رواه الثقات ولا مغمز فيه ولا مطعن، ولكن المؤلف ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؛ ميلًا مع الهوى ومجانبة للنصفة. ا هـ.

نقول له: وكان آخر وصية للنبي ﷺ في مرض موته: «الله الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم»(١).

وتقول عائشة أم المؤمنين زوجته ﷺ: «كان يكون معنا ... حتى إذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه»(٢).

وسأله بعض الوفود أن يخفف عنهم من الصلاة فأبى وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»(٣).

وأول شيء بدأ به بعد الهجرة بناء مسجده ﷺ وشارك في حمل لبناته مع أصحابه.

وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد كفر»(٤).

لقد سقت نيفًا وثلاثين مثلًا من أمثلة حسد هذا اليهودي للإسلام ورسوله ونحو ثلاثين بهتانًا من أبهات هذا الحقود الذي شرق بدين الإسلام وأغشى عينه ضوؤه الذي ملأ الخافقين وسار مسير الشمس شرقًا وغربًا.

ولم يكن قصدي أن أستوعب جميع ضلالاته فهي تفوق الحصر وتزيد على العدد، وإنما رأيت أن أسوق هذه النماذج من كتاب «الشريعة والعقيدة الإسلامية» ليعرف الناس ألوان عناده وأصناف جحوده للحق الواضح المبين؛ وذلك مما يشهد بصحة الإسلام وصدق رسوله ﷺ، وكما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. وقيل: والضد يظهر حسنه الضد.

وسأنتقل لشيء بعد هذه الأمثلة إلى كتابه الآخر «من مذاهب التفسير في

---

(١) رواه أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (١٦٢٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٧٦).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢١٨) بلفظ: «لا ركوع فيه».

(٤) رواه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي (٢٦٢١).

الإسلام» ليحذر الناس دخائله.

[1] وأما رغبة الحاسد الحقود الآخر؛ سلفه في الشر والكفر بهذا الدين وكتابه؛ أعني (رودلف جيير) في أن يرتب القرآن حسب أهوائهم، وتغير بعض مواضع الآيات المقتطعة - بزعمهم - من سياقها الأول... إلخ...

فحسبهم ما حرفوه من كتبهم السابقة حتى أفسدوها وأضاعوا الثقة بها، أما كتاب الله تعالى الذى تولى الله تعالى حفظه فلا سبيل لهم إلى تغييره أو تحريفه أو تبديله؛ لأن منزله هو الذي تولى حفظه، لا مبدل لكلمات الله.

وأما مشاكل بعض المفسرين لكتاب الله تعالى فطبعي؛ لأن مدارك الإنسان تقصر أحيانًا عن حكمة أحكم الحاكمين في شرعه وقدره.

فثمة مشاكل الخلق والتدبير في الطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء والفلك ونواميس الكون قائمة تشهد بعجز العقل البشري عن حلها، فلم لا يكون في كتاب الله تعالى الذي أنزله بعلمه ما يعلو على أفكار بعض الناس أو يشكل على بعض المفسرين؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

وأما سخافة (أوبتز) صاحب كتاب «الطب في القرآن» التي نقلها عدو الإسلام (جولد زيهر) في (ص ٢٧٤ - س ٨) و س (١٣).

بقوله: «فإن أكلة واحدة مع أحد المرضى يمكن أن لا تكون خطرة على الصحة. وأن النبي كان يحسن أن لا يقاوم الاشمئزاز الذي تحدثه مثل هذه المشاركة».

أقول هذه السخافة أحقر من أن تحتاج إلى جواب، فالقرآن لم يأمرنا

---

(١) تتمة مقال «تعليقات على كتابي «العقيدة والشريعة في الإسلام» و «مذاهب التفسير في الإسلام» لجولد زيهر مجلة المنهل - شعبان - ١٣٧٩هـ - السنة (٢٤).

بالأكل مع المجذومين والمجدورين وأمثالهم من ذوي الأمراض التي تعدي الأصحاء، وإنما رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض الذين يطيب خاطر الأصحاء بأكلهم معه؛ تطييبًا لخاطر هؤلاء الضعفاء ورفعًا لمعنوية أنفسهم وتحقيقًا للتكافل الاجتماعي لسائر طبقات الإسلام.

(كو) (ص ٣٥) – الفصل الثاني: (تطور الفقه)

تمثل اليهودي بقول أناتول فرنسي، في قصة قديمة سماها حكمة.

قال أناتول: إن من يؤسس دينًا لا يدري ماذا يفعل؟!

قال اليهودي: «أي أنه من النادر أن يدرك مؤسس الدين مدى أثر عمله على تاريخ العالم ... قال: وهذه الكلمة تنطبق على محمد أفضل انطباق».

أجابوه في الحاشية الأولى من (ص ٣٥) بقولهم: إن النبي ﷺ كان يعلم – أي بتعليم الله له – ما يصيبه الإسلام من الانتشار وتمكين السلطان، وقد بشر أصحابه بالفتوح التي تمت في عهد سلطانه، وفي سورة النور قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قلت: وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وفي الحديث عندما كان في بيت عبادة بن الصامت، فنام، ثم استيقظ يضحك، فسألته الصحابية بنت ملحان عن ضحكه؟ قال: **«رأيت أناسًا من أمتي يركبون ثبج[١] هذا البحر ملوكًا على الأسرة أو كالملوك على الأسرة»**.

ثم نام مرة أخرى ورأى مثل ذلك فقالت له: ادع الله أن يجعلني منهم قال: **«أنت من الأولين»**. وكانت أن غزت مع زوجها قبرس وماتت فيها»[٢].

---

(١) الثبج: ظهر الشيء ووسطه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٨، ٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢).

والحديث الآخر: «إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها»[(١)].

وفي (ص ٣٥- س١١): قال: «وإنه من ناحية أخرى لم تكن النظم التي وضعها -يعني النبي ﷺ- في حياته لتكفي العلاقات الكبيرة التي واجهها الإسلام الفاتح منذ الأيام الأولى، فقد كان تفكير الرسول متجهًا فقط ودائمًا إلى تلك الأوضاع الضرورية أولًا وبالذات». اهـ.

أجابوه: أن النظم التي جاءت في الكتاب -أي والسنة- كفت وتكفي ما جد وما يجد من العلاقات بتطبيقها وإجمالها وبما فيها من مبادئ وأصول، ولم يكن التشريع مقصورًا على الضروري من زمن البعثة فقط في الجزية وأمثالها -أي والهدنة والصلح والمعاهدة- بل وضعت نظامًا ينفذه من يأتي بعده.

وفي (ص ٣٦- س ٢): قال: «وصارت بذلك بعد أن كانت أمة دينية بمكة ارتقت في المدينة إلى صورة سياسية ساذجة؛ دولة سياسية عالمية».

وأجابوه في (ص ٣٦): الأمة الإسلامية في مكة والمدينة أمة دينية سياسية على السواء، وإن كانت السياسة في المدينة غيرها في مكة، والسياسة والدين في الإسلام ممتزجان. هـ.

يريدون أن الإسلام في مكة كان يؤسس أصول الدين من توحيد الله تعالى والإيمان بوحيه ورسله واليوم الآخر بين قوم مشركين لا يؤمنون بذلك، فكان عمله معهم إقامة الحجة والبرهان على أصول الدين، وبيان ضلال المشركين وجهلهم، وما أعد الله من الثواب لمن آمن والعقاب لمن كفر.

ولما انتقل إلى المدينة شرع له أحكام العبادات من زكاة وصيام وحج وجهاد ومعاملات، والكل شرعه في مكة والمدينة جاء على سنة النمو والارتقاء والتشريع بحسب الحكمة وحاجات الناس ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٩).

(كح) (ص ٣٥- س ٩): قال: «وكذلك كانت في الوقت نفسه تقنن مسائل الحياة العملية وأشكال العبادات في أصول ضرورية تقنينًا متأرجحًا غير ثابت». ا هـ

أجابوه (ح ١٠٥): الأسس التي يحتويها الكتاب والسنة مبادئ وأصول عمل بها الفقهاء في التقنين لما جدَّ، على أن يفرعوا منها النظريات الفقهية ولا يخرجوا عليها، وليس لهم أن ينتقلوا بها أو يعدلوها ويطوروها بحسب الأحوال المستحدثة، وأشكال العبادات الأصلية لا اجتهاد فيها، إنما الاجتهاد في أشياء تتعلق بها سكت عنها وتجاذبتها أصول مختلفة في الدين، فالفقهاء عملهم الاجتهاد والترجيح، وقد تعبدهم الله وتعبد أتباعهم بما يفضي إليه اجتهادهم بعد أن يبلوا في النظر.

(ص ٣٦- س ١٤): قال: «وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الإسلام في كل العلاقات جاء إلى العالم طريقة كاملة، بالعكس، فإن الإسلام والقرآن لم يتما كل شيء وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة».

أجابوه في (ص ٣٦): جاء الإسلام في كل العلاقات بطريقة كاملة في المبادئ والأصول، وهذا ما ينتظر من القانون والنظام أن يحتوي الكليات ويترك الجزئيات والتفصيل للقائم بالفهم والتنفيذ، وقد يكون في ذلك مجالًا للاختلاف، وهذا لا بأس متى كان رائدًا لجميع فهم النصوص وتحقيق الحوادث بملبغ الاجتهاد والبعد عن الهوى. ا هـ.

(كط) (ص ٦٧): الفصل الثالث: (نمو العقيدة وتطورها).

قال (س٣): «ليس الأنبياء من رجال علم الكلام، فالرسالة التي يأتون بها بدافع إدراكهم المباشر، وكذلك المعارف الدينية التي يوقظونها لا تتمثل كهيكل مذهب مبني طبعًا لخطة فيها مقدمًا، بل كثيرًا ما تتحدى كل محاولة للتنسيق المذهبي». اهـ.

أجابوه في الحاشية بقولهم: عقيدة المؤلف كغيره من المستشرقين أن ما يأتي به الرسول من عنده، ومن ثم فكلامه عرضة للتناقض والاضطراب وإن

ما جاء به لا يقوى أن يكون مذهبًا قويمًا منسجمًا من أول الأمر شأن كل عمل يصدر عن البشر.

والمؤمنون ويؤازرهم كثير من المستشرقين المنصفين يؤمنون أن ما جاء به الرسول وحي من الله لا يعتريه خلف ولا بطلان، والقرآن مشحون بتثبيت هذه العقيدة.

وفي نصوص الوحي ما يحتمل وجوهًا من المعاني وما هو مصروف عن ظاهره بما نصب من القرائن والملابسات، وفيها نصوص مجملة تحتاج إلى الفحص عن المراد منها والتماس ما يوافق السياق، وقد وكل هذا كله إلى العلماء والفقهاء في الدين الفاهمين عن الرسول عليه الصلاة والسلام ومن حذا حذوهم، وكان من آثار ذلك أن اتسعت مدارك الفقهاء وتربى المجتهدون والمستنبطون، وكان العلماء مفزع الأمة في الاختلاف مما عرفوا من الشريعة وهدوا إليه من الدين.

قلت: جاء في حديث جندب بن عبد الله البجلي: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلت: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: «**عليكم بالسمع والطاعة وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»[1].

وفي الحديث الآخر: «**.. تركتكم عليها بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»[2]، وفي الحديث: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله**»، وفي بعض الروايات: «**وسنتي**»[3].

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣) من حديث العرباض بن سارية.

(٢) ابن حزم في الإحكام ٦/ ٢٤٣ بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد ٣/ ٥٩، والترمذي (٣٧٨٨) بنحوه.

(٣) أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه (٩٩٦) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

ما هكذا يا سعد[١]

نموذج من الرد على الأستاذ محمود أبو رية
في كتابه: «أضواء على السنة المحمدية»
في الدفاع عن الإمام أبي هريرة في روايته لحديث:
«خلق الله التربة يوم السبت»

قال الأستاذ أبو رية في صفحة (١٧٥) فما بعدها: روى مسلم[٢] عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»... وقد روى هذا الحديث أحمد والنسائي[٣].

قال أبو رية: «وقد قال البخاري وابن كثير وغيرهما أن أبا هريرة قد تلقى هذا الحديث عن كعب الأحبار؛ لأنه يخالف نص القرآن في أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام. والعجب أن أبا هريرة قد صرح في هذا الحديث بسماعه من النبي ﷺ وأنه أخذه بيده حين حدثه به.

وإني لأتحدى الذين يزعمون في بلادنا أنهم على شيء من علم الحديث وجميع من هم على شاكلتهم في غير بلادنا أن يحلوا هذا المشكل، وأن يخرجوا بعلمهم الواسع شيخهم من الهوة التي سقط فيها...».

قال: «إن الحديث صحيح السند على قواعدهم لا خلاف في ذلك، وقد

(١) مجلة المنهل - المحرم - ١٣٧٨هـ السنة (٢٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٩).

(٣) رواه أحمد ٢/ ٣٢٧، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠).

رواه مسلم في «صحيحه» ولم يصرح بسماعه من النبي ﷺ فقط، فقد زعم أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وهو يحدثه به.

وقد قضى أئمة الحديث بأن هذا الحديث مأخوذ عن كعب الأحبار، وأنه مخالف للكتاب العزيز، فمثل هذه الرواية تعد - ولا ريب- كذبًا صراحًا وافتراء على رسول الله ﷺ، فما حكم من يأتي بها؟ وهل يدخل تحت حكم رسول الله ﷺ «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار»؟ أم هناك مخرج لراوي هذا الحديث بذاته؟

إني والله لفي حاجة الى الانتفاع بعلمهم في هذا الحديث وحده الذي يكشف - ولا ريب - عن روايات أبي هريرة التي يجب الاحتياط في تصديقها» . اهـ. كلام الأستاذ أبو رية.

نقلت هذا الكلام الغث على طوله ليرى الناس رجلًا ينتسب الى العلم يسفه هذه السفاهة على صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ ويعجب لسفاهته هذا الإعجاب.

وهاك جوابه من أحد طلبة العلم النبوي ودارس للحديث مطالعة وتدريسًا؛ محمد بن عبد الرزاق آل حمزة.

أولاً: نقلك عن البخاري أنه قال: إن أبا هريرة قد تلقى هذا الحديث عن كعب الأحبار، من أين لك هذا النقل عن البخاري؟ أمن صحيحه؟ أم من كتبه الأخرى «خلق أفعال العباد»، و«الأدب المفرد» و«رفع اليدين في الصلاة» و«القراءة خلف الأمام» أم من أحد تواريخه الثلاثة الكبير والأوسط والصغير؟! أتحداك أن تعزو نقلك عن البخاري إلى كتاب من كتبه، ولا ينفعك أن تقول: قال فلان وذكر فلان، فإنك تشكك في رجال الحديث وتكذبهم فضلًا عن غيرهم.

وهاك الجواب عن حديث أبي هريرة «خلق الله التربة في يوم السبت..إلخ» أسوق الجواب لمن يعقل وينصف وعنده مسكة من إنصاف

وورع فأقول: هذا الحديث علم من أعلام النبوة، ليس مخالفًا لنص الكتاب العزيز، ولا تلقاه أبو هريرة عن كعب الأحبار، بل تلقاه أبو هريرة من مشكاة النبوة المحمدية؛ من فم رسول الله ﷺ، فاستفدنا منه علمًا من علوم النبوة، لا كما زعم أبو رية أنه سقطة من سقطات شيخنا أبي هريرة، وتحدى أهل العلم بالحديث أن يحلوا هذا المشكل، وأن يخرجوا بعلمهم الواسع شيخهم أبا هريرة من الهوة التي سقط فيها.

وأقول لهذا المعجب برأيه الذي ظن أن أبا هريرة سقط في هوة الكذب على رسول الله التي لا يمكن اخراجه منها:

أقول- وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب: أثبت المحققون عقلًا ونقلًا أن الله تعالى وتقدست صفاته وأسماؤه عن التعطيل لم يزل ولا يزال خلاقًا علميًّا فاعلًا مختارًا، لم تتعطل صفات كماله أزلًا كما زعم المتكلمون أنه مكث آمادًا لا أول لها معطلًا عن الخلق والفعل والتدبير والكلام، معطل القدرة والإرادة والحكمة ما لا نهاية له أزلًا، ثم بدأ يخلق ويرزق ويقدر ويريد ويحسن ويتكلم.

وعلى قول المتكلمين هذا فقياس ما فعل إلى ما لم يفعل أزلًا وقياس ما أراد وقدر الى ما لم يرد ولم يخلق كقياس لا شيء إلى شيء، أو كنقطة في بحار لا تتناهى.

وآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. والآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] فيهما الإشارة الى عدم تناهي كلماته التي يقول بها للشيء كن فيكون، وبالتالي إلى عدم انتهاء مخلوقاته أزلًا وأبدًا فما من عالم إلا وقبله عالم إلى ما لا نهاية له أزلًا ما دام الله لم يزل خلاقًا فاعلًا مختارًا. والمسألة مشروحة في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية «كالعقل والنقل» و «منهاج السنة النبوية» وشرح حديث عمران بن حصين

«جئت أسأل عن هذا الأمر»، و «شرح الطحاوية»، و«الصواعق المرسلة» وغيرها من مبسوطات الكتب.

وعلى هذا التحقيق العلمي - عقلًا ونقلًا - يكون هذا العالم المشهود والمخلوق في ستة أيام قد سبقه عالم قبله، وهكذا إلى ما لا نهاية الى الوراء أزلًا؛ إذ لم يزل الله قادرًا مريدًا خلاقًا فعالًا لما يريد بدون بداية ولا نهاية.

إذا ثبت هذا كان هذا العالم الذي نعيش فيه قد وضع الله أساسه وتصميمه وخلق لبناته في يوم سبت من آخر أيام أسبوع عالم قبله؛ ويكون حديث أبي هريرة «خلق الله التربة يوم السبت» أي: سبت سابق لأيام هذا العالم، قد أفاد علمًا زائدًا على ما في الكتاب العزيز، لا مخالفًا للكتاب العزيز، كما فهم ذلك من فهمه.

فلله در أبي هريرة إذ لم يضيع شيئًا من نفائس علم النبوة التي حدثه بها رسول الله ﷺ، ولله در أبي الحسين مسلم بن الحجاج وشيخه الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل وبعدهما أبو عبد الرحمن النسائي؛ إذ نقلوا لنا هذا العلم النفيس، ولو أهملوه لضاعت علينا لؤلؤة من لآلئ علم النبوة وجوهرة من جواهر الوحي الإلهي النبوي، فقد أفادنا هذا الحديث أن تصميم هذا العالم وتهيئة لبناته قد كان في آخر أيام عالم آخر قبله سماه السبت.

فأي مخالفة للكتاب العزيز في هذا؟ ومن لم يفهم هذا قلنا له ما قال الخليل ابن أحمد لمن لم يفهم علم العروض:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

أو قول الآخر:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلالا

ومن كذب بهذا قرأنا عليه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقد سمعت شيخنا المرحوم السيد رشيد رضا يحمد للمحدثين صنيعهم في رواية كل ما صح عندهم إن استشكله بعض، فليس ما يشكل عليك يشكل على غيرك، أو يكون مشكلاً في الواقع.

والذين توقفوا في صحة الحديث جعلوه بسبب نزول درجة التصحيح عند الإمام مسلم عنها في علوها عند البخاري، كعدم اشتراط مسلم في اتصال السند شرط العلم باللقاء، مع اشتراط البخاري مع المعاصرة العلم بلقاء المتعاصرين، ونحو ذلك من أسلوب كل محدث واختياره في التصحيح.

فليس الحديث كما تجهم أبو رية أنه صحيح بلا خلاف عندهم؛ لأنه رواه مسلم.

ولو كان الدين أو الرسول لا يقول إلا ما يوافق عليه عقل الأستاذ أبو رية لما كان للناس كبير حاجة به، فإن الدين يأتي بمحارات العقول - أي بما يحيرها - لا بمحالات العقول - أي ما هو مستحيل عقلًا - فليس كغيره من الأديان؛ الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ونحوها [1].

* * *

(١) جاء في نهاية المقال العبارة التالية: (من كتاب يصدر قريبًا في الرد على أضواء السنة المحمدية).

وقل الحق من ربكم [١]

كتب الأستاذ أبو رية في «المنهل» الأغر كلمة رد فيها دفاعي عن حديث أبي هريرة: «خلق الله التربة يوم السبت...» عنوانها «كلمة هادئة في الرد على مقالة هائجة».

وكنت أحب وأتمنى من صميم قلبي للأستاذ أن يكون هدوؤه على أصحاب رسول الله ﷺ الذين رماهم في كتابه بأن منهم من ارتد عن الإسلام، ومنهم من شرب الخمر بعد تحريمها وحد فيها، ومنهم من هو فاسق، ومنهم من لعن بعضهم بعضًا... إلخ ما يشكك به في عدالتهم التي ثبتت في كتب الله السماوية، وأجمع عليها المسلمون، ولا يرتقي إليها شك عند المسلمين.

وخصَّ أبا هريرة صاحب رسول الله ﷺ بما سوغه له أدبه من بهته إياه بأنه؛ أكول، مهذار، طفيلي، لئيم المحتد والنحيزة، كذاب على رسول الله ﷺ، اغتنى من بني أمية على حساب الكذب لهم على رسول الله ﷺ حتى بنوا له قصرًا بالعقيق وأقطعوه أرضًا بها وزوجوه أميرة منهم لم يرع حقها ولا فضلها عليه... إلخ ما برأه الله من بهتانه عليه.

ذكر عن الشيخ ابن تيمية وابن كثير والسيد رشيد رضا نقلهم عن البخاري وابن المديني والبيهقي أن حديث: «خلق الله التربة يوم السبت» سمعه أبو هريرة عن كعب الأحبار. وزاد عليهم أن أبا هريرة كذب على رسول الله.

وتحدى أهل الحديث أن يخرجوا شيخهم أبا هريرة من ورطة الكذب على رسول الله ﷺ وأغفل عمدًا قولهم: إن الوهم في هذا الحديث ممن دون أبي هريرة.

---

(١) مجلة المنهل – رجب – ١٣٧٨هـ – السنة (٢٣).

مع إجماعهم مع سائر العلماء على القول بصدق أبي هريرة وبراءته من الكذب براءة الذئب من دم يوسف، وشهادة التاريخ مع الإجماع على صدقه.

والبخاري في «تاريخه الكبير»[١] قال في ترجمة أيوب بن صفوان الأنصاري: إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «**خلق الله التربة يوم السبت**» وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. اهـ.

فترى البخاري يقول: «وعن بعضهم عن أبي هريرة عن كعب. وهو أصح» فيفيد أن طريق أيوب ابن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي صحيح، كما يفيده لفظه: أصح؛ لأن مقابل أصح صحيح، يعرف ذلك من له إلمام بلغة العرب وعنده قليل من إنصاف، ويحب أن يفهم كلام العلماء على وجهه».

فأي عيب على مسلم والإمام أحمد والنسائي أن يختاروا هذا الطريق الصحيح ويخالفوا البخاري فيما رآه أصح، وهم أئمة مثل البخاري؛ ليس عليهم أن يقلدوه ولا حرج عليهم أن يختاروا غير ما اختار ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] جزاهم الله خيرًا فيما حفظوه لنا من سنة النبي ﷺ.

هؤلاء العلماء الذين ذكرتهم في حديث التربة ومعهم إجماع خير القرون من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم القيامة بعدالة أبي هريرة وصدقه، وأن سقوطه من السماء إلى الأرض أهون عليه من الكذب على رسول الله ﷺ، وأنه صادق صديق من خيار أصحاب رسول الله ﷺ وحفاظ دين الإسلام.

فلماذا قلدتهم في حديث التربة وخالفت إجماعهم في تصديق أبي هريرة

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ٤١٣.

وبعده عن الكذب بعد السماء عن الأرض؟! أم هو الهوى وبغض الحق يعمي ويصم ؟! أم هناك مآرب أخرى من التقرب لأعداء الإسلام؟!.

إن من ذكرت من العلماء في كلامهم على حديث التربة يبرئون أبا هريرة من تهمة الكذب على رسول الله ﷺ، وشكهم في الحديث فيمن دون أبي هريرة، ويشير إلى ذلك صنيع البخاري في تاريخه إذ قد ذكر الحديث في ترجمة أيوب بن خالد الأنصاري، وقال: «وعن بعضهم عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح».

وأيوب بن خالد فيه لين كما في «التقريب» [1]، وقال الأزدي: ليس حديثه بذاك فإن يحيى بن سعيد ونظراءه لا يكتبون حديثه. نقل ذلك الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» [2].

فالشك في أيوب بن خالد - وهذه حاله - أهون ألف مرة من تكذيب أبي هريرة أيها الرجل، فأبو هريرة صحابي جليل متفق على عدالته وصدقه ودينه وورعه، ولا يشك في حديثه كما قال ابن خزيمة، إمام الأئمة، إلا جهمي خبيث، أو قدري بغيض، أو رافضي مارقٍ.

لنا أن نسأل الأستاذ أبا رية: من كذب أبا هريرة من خيار الأمة وخير القرون وأئمة أهل السنة والجماعة قبلك؟.

ولن نقبل في أبي هريرة كلام مبغضي السنة كعبد الحسين النجفي الرافضي وأضرابه كأبي جعفر الإسكافي.

أقول: وفات الذين نسبوا حديث أبي هريرة في خلق التربة يوم السبت إلى كعب الأحبار أن كتاب كعب الذي يعتز به ويحدث عنه وهو التوراة يقول في سفر التكوين في الإصحاح الثاني آية (١و ٢): فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السادس من عمله الذي عمل، فاستراح في

(١) تقريب التهذيب ١/ ١١٨.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ٣٥١.

اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. ا هـ.

فكيف ساغ لكعب أن يخالف نص كتابه ويحدث أبا هريرة بما يكذب كتابه وهو الذي يعرف الناس عنه عصبيته لكتابه وإسرافه في الحديث عنه؟ اللهم إن هذا مما يشهد أن هذا الحديث تلقاه أبو هريرة من لسان رسول الله ﷺ، فهمه من فهمه وشك فيه من شك.

أما بياني لحديث «خلق التربة يوم السبت» وعدم مخالفته للقرآن، كما زعم من زعم ذلك، فقد شرحته في كلمتي السابقة التي أهاجت الأستاذ أبا رية وبتر منها صدرها، ثم ذكر أنه لم يفهمها، وما ذنبي أنا!.

وقديمًا حكى الله عن جاحدي القرآن قولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]. ولا حيلة لك فيمن لا يريد الحق وأعرض عنه.

وأخيرًا أصر الأستاذ أبو رية على أن دعواه كذب أبي هريرة على النبي في حديث: «خلق الله التربة يوم السبت..» دعواه كذب أبي هريرة الذي صدقه التاريخ وإجماع سلف الأمة وخير قرونها، وجانبهم الشيخ أبو رية، وأصر على أن دعواه كذب أبي هريرة لا تزال باقية. فلتبق في نفسه إلى يوم القيامة؛ يوم تبلى السرائر وينصف الله أبا هريرة من خصومه وباهتيه.

وإذا كان لأبي رية في مهاجمة الإسلام في أشخاص الصحابة عمومًا وفي طعن أبي هريرة خصوصًا غرض من التحبب إلى أعداء الإسلام فربما ينال غرضه وربما يجيزونه على ذلك، والله الهادي.

* * *

من أحاديث الكتب[1]

«خرافة الميتافيزيقيا»

تأليف: الدكتور/ زكي نجيب

كتاب للأديب الفاضل الدكتور زكي نجيب محمود؛ مدرس الفلسفة في (جامعة القاهرة) بسط فيه آراء باحثي الغرب الواقعيين في مسألة (الميتافيزيقيا) أو ما يسمى: ما وراء الطبيعة، وقد انتصب لنقده أحد أفاضل علماء الأزهر في عددي صفر وربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ من مجلة الأزهر فعرض لمسألة تافهة مما أنكر على المنطق، وهي مسألة تقابل النفي والإثبات في شيء واحد، ورمز لها بـ (ق) و (لا. ق) وجمع همته للرد على منكريها، وذكر أنه يدافع بذلك عن تراث العقل البشري، ثم حمد نفسه وحمد المؤلف إذ أتاح له فرصة الرد على علماء الغرب ومناضلتهم والوقوف أمامهم.

ولو علم الشيخ الفاضل الناقد أن المنطق خيالات فاسدة مفسدة أقعدت المشتغلين به فلم يقدموا أي نفع للبشرية ولو إبرة خياطة - بله ما ازدهر على أيدي رافضي المنطق من صناعات البخار والكهرباء وتحليل مركبات المادة وتركيب بسائطها - لما وصفه أنه تراث العقل البشري!.

ولو علم الشيخ الفاضل أن علماء الإسلام بينوا فساده وإفساده للعقول واللغة وللدين، وأخص منهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كتب الكتب وألف الرسائل في تهافته وفساده وإفساده للعقول والأديان، وظهر له في عالم المطبوعات ردان؛ أحدهما مطول طبع في (الهند) في بمبي بمطبعة آل شرف الدين، والثاني مختصر طبع في مصر بمطبعة الشيخ محمد حامد الفقي، وقد فصل القول في بطلان قضاياه وخرج بنتيجة ذهبية فيه هي أن أكثره باطل

---

(١) مجلة اليمامة - العدد ٦ - في ٥/ ١٣٧٣هـ.

فاسد والقليل منه صحيح يستغنى عنه الأذكياء ولا يفيد الأغبياء.

وإني أهيب بالشيخ؛ ناقد الكتاب (خرافة الميتافيزيقيا) أن يرجع إلى أحد الردين المذكورين أو كليهما، ولا تخلو منهما المكتبات العامة. فإذا سمح وقت الشيخ الناقد وحفزته همته إلى مطالعتهما أو أحدهما فإنني أعتقد بأننا سنتفق رأيًا، فنجتمع لدفن رمم هذا العلم، هذه الرمم المنتنة التي آذت البشرية أحقابًا طويلة وأخرتهم عن ركب الحضارة والاختراع والعمل الصالح النافع.

هذا وقد سمعت أن بوقًا من أبواق الإلحاد وكاتبًا يتظارف بالدعوة إلى ترك الدين هو سلامة موسى، فرح بهذا الكتاب وتمنى أن يكون في استطاعته شراء نسخ منه بعدد طلاب (كلية دار العلوم) ليوزعها عليهم مجانًا؛ لظنه أنه يهاجم الدين والأخلاق ويهدم أركانها.

ونحن نسوق إلى هذا البوق ما يزيده غيظًا ويحرق كبده؛ هو أن الكتاب لا يمس الدين في قليل ولا كثير، والدين هو أساس الأخلاق، ولكن هذا الكتاب يهدم خيالات أفلاطون وأرسطو ومن قلدهما من متفلسفة العرب، من المجردات التي لا وجود لها إلا في خيال من تخيلها، وأضرب لذلك أمثلة يتبين منها سلامة الدين وأصوله وأركانه، بينما تتقوض دعاوى من زعم أو تخيل أن في الوجود مالا يمكن أن يحس أو يرى أو يلمس.

المثال الأول: الروح - أو النفس الناطقة - يقول عنها أفلاطون وأرسطو ومن قلدهما: إنها جوهر مجرد عن المادة، لا داخل العالم ولا خارجه، ولا حيز ولا زمان، ولا مكان لها ولا طول ولا عرض، ولا... و لا... مما يحمل العقلاء جميعًا أن يقولوا: إن ذلك شئ لا يعقل ولا يتصوره إلا المبرسمون[1].

---

(١) المبرسم: بفتح السين اسم مفعول وهو لفظ معرب من البرسام (بكسر الباء)، المصاب بمرض البرسام وهو التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب، ويعرف أيضًا بالجرسام، وقد يصاب المبرسم بارتفاع الحرارة فيهذي في كلامه. معجم لغة الفقهاء (١/ ٤٠٠).

أما الدين فيقول عن الروح إنها في بدن صاحبها، وإنها نفخت فيه، وإنها تخرج من البدن حين النزع ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وفي الحديث: «**لا تؤمن يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك**»[1]، و «**إن أمسكت روحي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[2].

المثال الثاني: زعم فلاسفة اليونان؛ أفلاطون وتلميذه أرسطو ومن قلدهما من بعدهما أن هناك مجردات مثل أفلاطونية، وعقول عشرة ونفوس فلكية تسعة، وأنها مجردة عن المادة، لا داخل العالم ولا خارجه، ولا طول ولا عرض، ولا تحس ولا ترى ولا تلمس، ولا.. ولا...، مما لا يمكن وصف المستحيل بأبلغ مما وصفوها به، وظن بعض المتفلسفة أنها المرادة بالملائكة عند أهل الأديان، وشتان بين خرافة هذه المجردات وبين الملائكة عند أهل الأديان، فالأولى أمر لا يعقله إلا متهوسو المتفلسفة، وحق المواقعيين من بني آدم أن يعدوا ذلك خرافة وتفاهة ولا معنى له.

أما الملائكة عند المؤمنين بها من أهل الأديان فهم كما جاء في الكتب السماوية؛ أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وتمثل أحدهم وهو جبريل لمريم بشرًا سويًا، وتمثل كثيرًا بصورة أعرابي يسأل رسول الله ﷺ ويراه ويسمعه الصحابة، وتمثل الملائكة ضيوفًا لإبراهيم حتى قدم لهم عجلًا حنيذًا، وتمثلوا للوط وقومه شبانًا جميلي الصور، ويصعدون إلى السماء وينزلون إلى الأرض... إلى آخر ما جاء في وصفهم في الكتب السماوية، فلا تنالهم خرافة الميتافيزيقيا بسوء ولا تعرض لهم في قبيل ولا دبير.

المثال الثالث: خالق السموات والأرض رب العالمين يقول عنه المتفلسفة، إنه علة العلل والعقل الأول، وإنه واحد من كل وجه، وإنه لا

---

(١) البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

داخل العالم ولا خارجه... ولا... ولا.... ولا... من السلوب التي تجعله هو والعدم سواء.

فلو قيل لهم: صفوا العدم أو المستحيل، لما وصفوه بأكثر مما وصفوا به رب العالمين، أما المسلمون - بل واليهود والنصارى - فمؤمنون أن رب العالمين فوق العرش وأنه يرى في الآخرة، ويتكلم بكلام يسمعه من شاء من خلقه كموسى ومحمد، وأنه عرج إليه النبي ﷺ ليلة المعراج، وسمع كلامه ورآه أو رأى نوره، وأنه تشرق الأرض بنوره يوم القيامة، وأنه يجيء والملك صفًا صفا لفصل الحساب، وأن له يدين مبسوطتين، وبيده الميزان يخفضه ويرفعه، وأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، وأن له سبعين حجابًا من نار أو نور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه[1] ما انتهى إليه بصره من خلقه... إلى آخر ما جاء في القرآن والحديث والتوراة والإنجيل وآمن به المسلمون واليهود والنصارى الذين لم يمرضوا بمرض الفلسفة والتعطيل كمن قلدوا متهوسي اليونان الذين بدأوا طفولة تفكيرهم في عنصرهم الجاهلي الوثني وقلدهم في هذه الآراء الصبيانية والخيالات البدائية في التفكير من مرض بالفلسفة من العرب، كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد والرازي - بله الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

هذا وإننا نحب انتشار هذا الكتاب وأمثاله؛ آمنين على جانب الدين منه، حتى يشفى به من مرض بالمجردات الخيالية المسماة عندهم بالعقول العشرة، والنفوس الفلكية التسعة، والنفوس الناطقة.... إلى آخره.

ولسنا نخاف على الدين وأصوله وأركانه أن يصدم بمخالفة تفكير صحيح من عقلاء بني آدم.

---

(١) السبحات بضم السين والباء ورفع التاء في آخره وهي جمع سبحة، قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى (سبحات وجهه) نوره وجلاله وبهاؤه. شرح النووي على مسلم (١/ ٣١٩).

ولو أن المؤلف الذي لخص بحوث عقلاء الغرب رفع رأسه قليلًا إلى تراث علمائنا المحققين كمؤلفات شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وتلميذه شمس الدين ابن القيم لرأى فيها ما يثلج صدره من إنكار الميتافيزيقيا عقلًا ونقلًا وأن مجردات الفلاسفة لا وجود لها إلا في أذهان متخيليها ولا وجود لها في الواقع وخارج الأذهان ولرأى أن ما لخصه من تحقيق علماء الغرب إنما استفادوه من تحقيق علمائنا الأعلام حرص عليه الغرب وارتشف علماؤه من رحيق أزهاره وقدموه لنا عسلًا ظنناه من صنع أيديهم وليس الأمر كذلك وإنما مثلهم في ذلك كمثلهم في خامات الشرق يأخذونها عنه ثم يعيدونها إليه مصنوعات براقة مدهشة تعشى بصر من يراها ممن لا يعرف الحقيقة، والعيب فينا نحن عندنا خامات لم نحسن ننتفع بها وأدوية لم نتعالج بها، فنحن مرضى والدواء في دارنا، وجياع وخيرات الدنيا بين أيدينا، وجهال لم ننتفع بما كتب محققونا.

ولعل المؤلف الفاضل ترتفع همته إلى مطالعة تراثنا الشرقي فيجمع بينه وبين ما يعرف عن الغرب فيخرج لنا كتابا يجمع مشرق شمس الحقيقة ومغربها فيحبب شبابنا في مراجعة تراث أسلافهم فيستفيدوا الحق من القديم والحديث... ومن لا قديم له لا جديد له!.

هذه العجالة حفزني إلى كتابتها ما قرأته في مقدمة كتاب «خرافة الميتافيزيقيا» ولم آت على الكتاب بتمامه وخصوصًا: باب الخير والشر فقد رأيت من بعض الأحباب اشمئزاز منه فلعل الفرصة تؤاتي لاستيعاب الكتاب فأكتب عنه ما رأى فيه من حسنات وغيرها... فإلى مقال آخر.. والسلام.

* * *

من أحاديث الكتب[1]

نظرات سريعة: في كتاب «ترجمة محررة لمالك بن أنس»

تأليف الأستاذ أمين الخولي - من الأمناء

ألقى إليَّ اتفاق البحث - بغير قصد - كتاب «ترجمة محررة للإمام مالك بن أنس» للأستاذ أمين الخولي، فقرأت بعضها وأردت أن لا يفوتني قيد ما أجد فيها من ملح وغرائب؛ لأعرضه على قراء غيري فأستفيد موافقتهم أو مخالفتهم، وأستنير برأيهم في المسألة إثباتًا ونفيًا، ورغبة القيد غريزة إنسانية، وقديمًا قيل:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقة

وعرض فكرك على الأنظار مما يوجبه الإنصاف وحب الاستطلاع والبعد عن الإعجاب بالرأي.

وسأنظر إلى الترجمة بمنظار أبيض يكشف جوانبها المنيرة وغير المنيرة، وقد حكي أن المسيح ابن مريم مر هو وتلاميذه على جيفة خنزير، فتأفف التلاميذ اشمئزازًا، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لتلاميذه تعليمًا لهم أن ينظروا لكل شئ من جوانبه الطيبة: «انظروا ما أبيض أسنانها».

هكذا يجب علينا أن ننظر للأشياء كلها من جوانبها اللامعة وإن لم نغفل عن جوانبها الأخرى، ولمن يعلم الناس أن يقول لهم ليست الجيفة القذرة شرًّا من كل نواحيها، فإنكم إذا دفنتموها في بستان أو مزرعة صارت سمادًا طيبًا مفيدًا ينمو عليه الزرع، والشجر فيؤتي أطيب الثمار والحبوب... إلخ.

فممّا نحدثك به من حسنات الترجمة المحررة: نفي تهمة عن أبي جعفر

---

(١) مجلة اليمامة - العدد السابع - جمادى الآخرة - ١٣٧٣هـ.

المنصور أنه بنى قبة خضراء في قصره الذهبي ببغداد ليصرف الناس عن قصد الكعبة المشرفة.

فأضاف المحرر إلى جُهدِ شبلي النعماني لنفي هذه التهمة التي صورها صاحب تاريخ التمدن الإسلامي جورجي زيدان - صنع الله به ما يستحقه - أضاف جهدًا مشكورًا وعملًا مبرورًا ص ١٨٨ إلى ص ١٩٤ ج ١.

ومن تلك الحسنات - أو هي أحسنها - بعد ما وصف حال الحاكمين والمحكومين من الناحية الدينية ص ٣١٢ و ص ٣١٣ ج٢ - قال وكذلك نجد المحور الظاهر هو الشعور الديني - والمفزع الأخير هو الشعور الديني - وقوة الاحتمال من الشعور الديني، وفيض الغضب للشعور الديني، وإذا ما كان هذا عمل الشعور الديني في حياة الحاكمين والمحكومين فلا غرو أن نجد أصحاب الصفة الدينية - سواء أكانت علمية كالقراء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين و.. و ... إلخ - أم عملية كالزهاد والعباد والمتصوفة - ذوي مكانة بارزة وأثر فعال في الحياة حتى لتستطيع أن تقول: إنهم في سير هذا النظام يمثلون سلطة الشعب - إن صح هذا التعبير - في ظل الحكم الفردي السائد، وهم على كل حال يدخلون في حياة الحكام والمحكومين بصفة من هذا النوع تمثل وجود الشعب ومصلحته وما إلى ذلك، فأما دخولهم في حياة الحكام بهذه الصفة الشعبية فبما هم وصلة إلى الترضية- يعني ترضية الشعب عن حاكمه - ومظهر لحسن تصرف الحاكم مع هذه الفئة حسنًا تبتهج له نفوس السواد من المحكومين؛ لدلالاته على حب الخير والصلاح وحب العالم واحترام الدين.. و... و... من تلك الصفات التي تمكن للحاكم من أعناق المحكومين بما تقر به من قلوبهم أو تخدعهم عن أنفسهم في هذه الناحية... ومن هنا نرى أصحاب الصفة الدينية العلمية والعملية يحترمون ويكرمون ويعطون ويستشارون ويستقضون، وما إلى ذلك من المظاهر العملية التي تنقل إلى الشعب تلك السيرة الحسنة ولا

أقل من أن يستنصحوا ويسألوا الموعظة، فيكون لها أثرها على قلب الحاكم، فيبكي أحيانًا حتى تخضل لحيته أو يجم أو يغير ما هو فيه من تمتع ولعب ونحو ذلك مما يشع فيكون أحدوثة حسنة، ومن هنا نراهم يحملون العلماء على تولي القضاء ونحوه، ويشتطون في إكراههم على ذلك، فيظهرون بذلك الحرص الشديد على الانتفاع بهم والنزول على رأيهم أو يظهرون كما قال أحدهم -: إن في الدولة أشخاصًا أقوياء النفوس صلحاء منصرفين عن الدنيا إلى هذا الحد، فيكون ذلك شهادة بحسن حال الأمة، وأن الدنيا بخير ما دام في الأمة مثل هؤلاء..

ثم ضرب المؤلف مثلًا بما ذكره ص ٤٧ و ٤٨ عن أبي حنيفة في إيثاره علم الفقه؛ لأنه إذا تعلم الفقه يسأل ويفتي الناس ويطلب للقضاء وإن كان شابًّا ... وقوله عند ذلك: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا - يعني الفقه - ولزم تعلم الفقه - إلخ ص ٣١٥.

ثم يقول المؤلف في هذه الصفحة: «وأصحاب هذه الصفة الدينية علميًّا وعمليًّا ويدخلون في حياة المحكومين دخولًا واضحًا قويًّا، فهم المشيعون للآراء والمقالات في حكم الحاكم ونظام الحكم، وهم المدبرون المشرعون في هذا كله، أعنى أنهم يتولون حياة هذه الجماهير الحكومية من الناحيتين الاعتقادية والعملية، فإن كان استفتاء وسؤال تصحيحًا للعقيدة في صاحب الحق ومدى حقه فهم المستفتون والمعلمون وإن كان في النفوس من ذلك شيء فهم الواعظون والناصحون، وإن كان حيف فهم الملجأ والملاذ يستشفع بهم الشعب فيلقون الأمراء والحاكمين لقاء السياسيين أو لقاء الموجهين، فيكشفون عن أولئك المجتهدين بشفاعة مقبولة أو عظة زاجرة من لم يستشفع أو يشفع فهو ساخط غير مؤيد، وهذا السخط قد يخرج في صورة عظة مواسية للعامة تريح النفوس بانتظار العدل الإلهي والجزاء السماوي، وتطمئنهم إلى النهاية المحققة للظلم وهي النكال والزوال، وإن زادت حدة عن هذه الدرجة كانت إفتاء بالخروج وإعانة عليه، وقد تكون

مشاركة فعلية فيه كما كان من غير واحد من أولئك القراء والفقهاء والعلماء وذوي الصفة الدينية بعامة. وفي هذا التعليم والإفتاء والوعظ توجيه فعال للمشاعر والقوي، كما يقدر ذلك. ومن هنا تكون شخصية ذوي الصفة الدينية عاملًا هامًّا في سير الحوادث، فإن كان ضعيف المنة قليل المقاومة بث روحه في الجمهور ومهد للحكم الظالم، وإن كان ذا همة وحمية بث ذلك في الأنفس وأرهب الحكم الظالم.

وهكذا تدرك في وضوح أن ذوي الصفة الدينية مثلوا الشعب بحق - في هذه العصور - وصح أن يعدوا في نظام الحكم الإسلامي أنهم هذه السلطة إما متحيفة متهتكة وإما معترفًا بها اعترافًا ناقصًا أو غير ناقص، وبذلك كانت شخصياتهم قوية الأثر على الحياة، ومن كل ذلك يتجدد واجبهم الاجتماعي في الأمة إذ ذاك، كما تعرف حقوقهم التي كان يمنحهم إياها هذا النظام بسلوك الأمراء نحوهم وتأثيرهم على الشعور الديني في سير الحياة لعهدهم». ص ٣١٣- ٣١٦ج٢.

وأقول للأستاذ: أحسنت وأجزلت في تصوير حال الشعور الديني وأهله في الحاكمين والمحكومين، وهيبة رجال العلم والعمل عند الحكام، وتأثيرها في العامة، وقد رأينا أمثلة لذلك وسمعنا بها، وما أشبه الليلة بالبارحة.

ولكنا نقول: إن ذلك كله لم يكن خداعًا وتضليلًا كله، وحسن الظن يعطي أن كثيرًا منه كان عن وجدان وإيمان ولكنا نزيد على ما قلت: إن ذلك كله مما يصلح الحكم الفردي ويقومه ويقلل شروره، فهيبة الشعب في قلب حاكمه التي تتصور في احترامه للعلماء مما يكبح من جماح غرائزه وشهواته، ويقيمه على الحق طوعًا أو يقسره عليه قسرًا؛ كما قال تعالى من سورة البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وكما قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ

إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، ولا يخصص الدفاع والدفع بالحرب بالسيوف فحسب، فاختيار لفظ الدفع والدفاع ليكون أعم من مجالدة السيوف، والحكم الفردي المقلم الأظفار بهيبة الحاكم للشعب وخوف الحاكم من الانتقاض عليه، فيراعي الحاكم مصالح شعبه ويسترضيهم في أشخاص علمائهم، هو خير ما يمكن في تلك العصور.

بل رؤي في هذا العصر خيرًا من الديمقراطية الزائفة والأحزاب المتطاحنة على كراسي الحكم، والناقد البصير يوازن بين عصر فؤاد وفاروق وديمقراطيته، وعصر الانقلاب العسكري في مصر وبين حكم أتاتورك وحكم مجلس المبعوثين قبله في الترك.

ثالث ما قرأت من حسنات الترجمة المحررة ما وصفته للمركز العالمي للأمة الإسلامية عصر مالك: «أنه مركز القيادة والإرشاد، فحين ولد مالك في أصيل القرن الأول الهجري كانت نسائم (الأطلنطي) تحي الأعلام الإسلامية الخ افقة في الأندلس غربًا، وكانت كتائب الحضارة تحاول تنفيذ ما أمله الطامح ين الوصول إلى «القسطنطينية» عبر أوروبا عن طريق الأندلس بعد تلك الكتائب قد وقفت مرارًا على شواطئ البسفور وتحت أسوار هذه القسطنطينية تنذر الرومان وتبشرهم برسالة الإسلام، وفي حياة مالك وصلت هاتيك الكتائب إلى قلب فرنسا وقاربت باريس، كما كاد بحر الروم – أو البحر الأبيض المتوسط – يعود بحيرة إسلامية؛ إذ أذن في شواطئه الجنوبية دعاة العدل والمدنية، وأصاخ سكان شواطئه الشمالية لرسالة أولئك الداعين، مقدرين أن حدثًا جديدًا قد عم العالم وهز أسس الظلم والاستبداد وعبادة الأشخاص والجمادات، في حين كانت تلك الكتائب قد وطئت حدود الصين شرقًا. وإنها لعزة تسمو الأرواح لها وتبعث في أفراد تلك الأمة الحياة والأمل وتبسط أمامهم آفاقًا من النظر الفسيح والإدراك الصحيح لنظام الكون.

وفي حياة مالك – أيضًا– تقسمت تلك الإمبراطورية الفسيحة دويلات، وسقطت الأموية في الشرق فلاذت بأندلس، وعشش صقرها على دوحه وبسط جناحه على أنحاء الجزيرة الغربية ينشر عليها بسلطانه ظل الأمن ويؤدي رسالته الإسلامية فوصل الشرقيون حبلهم بالسلطات بين العباسية في الشرق والأموية في الغرب، ويئست العباسية من القضاء على تلك الدولة النائية، فذهبت توازن العالم القديم موازنة سياسية محورها الدولة الإسلامية والسيطرة الإسلامية، فوصل الشرقيون حبلهم بالسلطات السياسية في غرب أوروبا، وأهدى الرشيد إلى (شرلمان) هداياه التاريخية المشهورة، ومنحه ومنح النصارى على يده في الشرق منحًا يستديم بها وده ويقيمه عدوًّا للدولة الأموية المناجزة لسلطانه في الغرب، وكذلك بسط الأمويون يدهم لرومان الشرق في القسطنطينية يوادونهم ويهادونهم ليقيموا منهم عدوًّا دائمًا للدولة الإسلامية الشرقية في بغداد وهي التي كانت تغزوهم مسانهة في نظام مطرد، وهكذا كان لسان الميزان السياسى في اليد الإسلامية والقوى السياسية في العالم تلوذ من السيطرة الإسلامية بملاذ في الشرق أو الغرب، والمسلمون يدركون مكانتهم العالمية وسموها في كل مكان على أساس هذا التقدير؛ ينظرون في شئون الدنيا وأصول الحقوق ونظم ما بين الناس من روابط، ويفتيهم مالك وأضرابه من رجال التشريع.

وإذا كانت تلك هي حالة العالم الإسلامي جملة فلا تزال تجد للبيئة الحجازية في هذا الموقف المزدوج مركزها الخاص، فهي قبلة الدولتين، ومأوى أفئدتهم وموضع القسطاس بينهم، يؤمها المغاربة والأندلسيون حاجين فلا يلمون بالعراق ولا يلقون أهله، بل يأخذون عن الحجاز وينقلون علم الحجازيين حتى ظهر أثر هذا العلم في حياة مالك نفسه فسمعناه يقول للمهدي الخليفة حين طلب إليه أن يضع كتابًا يحمل الأمة عليه: أما هذا السقع وأشار بيده – وأشار إلى المغرب بيده – فقد كفيته. وما ذلك إلا بفضل هذه الصلة.

وقد كان من مظاهر هذه العزة أن تحمل إلى مالك أخبار الأندلس وحكومتها فيعلن رضاه عنها إعلانًا يؤيد به نقده للعباسيين أو نفوره من ممالأتهم، ذلك النفور الذي بدأ في تأييده لخروج «النفس الزكية» - على ما سلف - فقد سأل مالك عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية الأموي الداخل إلى الأندلس والممتلك بجزيرته، فقيل له: إنه يأكل خبز الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله، وعددت مناقبه فقال مالك: ليت أن الله زين حرمنا بمثله، وبلغ هذا عبد الرحمن فسر به حين نقم العباسيون ذلك وعد سبب محنة الإمام - في رأي - على ما سنبينه.

وهكذا تقف البيئة الحجازية بفضل بسطة الملك بين الدولتين وتبسط عليها حيث لا تبلغ سيطرة المتحكمين في الشرق فيكون لحياة الفقة المالكي بتلك الأقطار النائية القريبة إلى حياة البداوة المشبهة للحياة الحجازية - على ما لحظه ابن خلدون في مقدمته - أثر في حياة ذلك الفقه يتبينه مؤرخه».

هذا شوط أول - في ميدان هذه الترجمة المحررة - قد أبصرت فيه نواحي مضيئة وجوانب لامعة فيها، فافتح أذنك واشرح صدرك لجوانب أخرى قد تكون كابية أو قائمة، ووسع خاطرك لما لا يعجبك من كلامي، ولا تقل متزمت جامد حتى لا أقول منحل مائع، وتعالَ معي إلى كلمة نصف نتساوى فيها جميعًا: ليس كل قديم ضارًّا منبوذًا، ولا كل جديد نافعًا مفيدًا، فهذا الجمل في صحراء العرب مع قدمه يبلغ ما لا تبلغ السيارة أو الطائرة والقطار فضلاً عن منافع لبن أنثاه ووبرهما ولحمهما وجلدهما - إلخ.

فأول ما نقص عليك مما لم يعجبنا في نواحي الترجمة: طريقة الاستدلال بروايات «الأغاني» و«زهر الآداب» و«شرح رسالة ابن زيدون» وتنزل على «الجواهر واليواقيت» للشعراني، وإذا أحس المترجم بضعف في الرواية اعتذر عنها بقوله ص ٣٦٤ج ٢: «ولن أنسى أنك قد تنظر إلى هذه الرواية في «الأغاني» بعين الناقد المتزمت، فتتهم أو تنكر ولكن لا تنس أنها عند من وضعوها - إن رميتها بالوضع وهذا شر ما تقذفها به - ثم هي عند من قد

أولوها إنما تحدث عن تقدير لمظاهر الحياة وظواهر الوجود في هذا العصر، وتصف من أمر البيئة وأهلها حقائق اجتماعية هي في جملتها واقعة، إن لم تكن في ذاتها من عمل فلان أو فلان بأعيانها، فهي تمثل شيئًا شعروا به في حال من أحوالهم، وإن لم تكن حقيقة الأمر إن هذا بشخصه وذاته قال ذلك بنصه ولفظه، ولا أخالك حين تصح نظرتك الاجتماعية وتدقق ستنكر - حتى فيما ترى اليوم من حياتك - أن الفاكهة المصنوعة والنكتة الموضوعة والدعاية المفتعلة ليست إلا صدى لمعنى أحس به المتفكه وحقيقة شهدها المداعب، فهي في حساب متفهم الحياة الاجتماعية المتفطن لنواميسها ذات دلالة صحيحة صادقة على جملة الأمر ووجود الظاهرة».

فتخرج من هذا المنطق العجيب أن كذب الكذاب إن لم يصبح جزئيًّا صدق كليًّا، وإن حكاية يصورها خيال مجان ويخترعها ذهن كذاب تكون دليلًا على المجتمع كله في عصر هذا الكذاب... يا عجبًا!!.

ألف ليلة وليلة مملوءة بحكايات الشياطين والسحرة وطيران الطائرين إلى أرض السند والهند وجبال واق الواق فماذا يدل عليه ذلك عند صحيح النظرة الاجتماعية.

ذكروا في سرعة بديهة أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني» أن متحدثًا أمامه ذكر أنه دخل الصين فرأى نعنعًا «أي: النعنعاع» يكبر حتى يجعل من أغصانه سلم يرتقي عليه فقال أبو الفرج - بسرعة- عندنا ما هو أعجب من ذلك صنيع من نحاس وضعناه تحت زوج حمام عندنا فخرج فراخًا. فبهت الكاذب، فماذا يفهم منها صحيح النظرة الاجتماعية سواء صحت الحكاية أو كانت موضوعة؟.

الذي أفهمه ولا يخالفني فيه الناس أن الحكاية المكذوبة تدل على أفق خيال كاذبها وتأثره بها.

* * *

من حديث الكتب

نظرة سريعة في كتاب «ترجمة محرره لمالك بن أنس»(١)

تأليف: أمين الخولي

أ- الذي أفهمه ولا يخالفني فيه الناس أن الحكاية المكذوبة تدل على أفق خيال كاذبها وتأثره بما طالع أو سمع في بيئته الخاصة وما قرب وبعد عنها، والذين سودوا صحائفهم بما صوروا من حكايات أو قصص أفادونا بسعة خيالهم فيما تخيلوا، وما تأثروا به من روايات عن أشخاص بعيدة أو قريبة منهم. فما تقرؤه في قصصهم من خلاعة وفسق وترف لا يمكن أن نحكم به على جميع سكان بلدانهم.

فإذا قرأنا شيئًا من هذا القبيل لكتاب مصر المعاصرين، فإنه لا يسوغ لنا أن نحكم به على جميع سكان مصر، فنفهم من تلك الكتابات أنه ليس في أرياف مصر فقر ولا عري ولا مرض ولا جوع، وإنما نفهم أن خيال القصاص تأثر بما قرأ صاحبه من خلاعات وفسق وفجور وترف في نحو (باريس) أو (روما) وغيرها.

ب- يقدم المؤلف اعتذاره عما وصف به المجتمع الإسلامي من تفسخ وفساد - كما سيأتي في الفقرة الآتية - فاعتذر بقوله (ص٢٠٣): «إن التاريخ الحق حينما يعرف هذا المجتمع إنما يذكر من أمره ما كان واقعًا جاريًا، لا ما كان الإسلام يرجوه له ويعلمه إياه ويجب أن يكون من شأنه فيما يتقرر من وضعه لا يمس مبادئ الإسلام ولا يغض من سموها وحيويتها؛ لأن الذي كان شيء والذي ينبغي أن يكون شيء آخر ولا بد من تقدير الفرق بينهما».

وفات المحرر للترجمة أن يذكر قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

---

(١) مجلة اليمامة - العدد السادس - رمضان - ١٣٧٣هـ.

تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال النبي ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[١]، لا يدري الراوي أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، وقال ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى»[٢].

وقال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»[٣]. وقال ما معناه: «ما من نبي إلا وأوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا فأنا أرجو أن أكون أكثرهم – يعني الأنبياء – تابعًا يوم القيامة»[٤].

وحديث عمل اليهود إلى الظهر وإعطائهم قيراطًا، وعمل النصارى إلى العصر وإعطائهم قيراطًا واحدًا، وعمل المسلمين إلى آخر النهار وإعطائهم قيراطين، وغضب اليهود والنصارى لذلك، وقول الله لهم: «هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا؟ قال: فذلك فضلي أعطيه من أشاء»[٥].

فهذه الآيات والأحاديث تدل على عمل المسلمين بدينهم السامي المبادئ، الحيوي الآداب، وأن واقعه يقارب فيه ما كان بما ينبغي أن يكون وجر منهم ما كان هو أو قريب منه ما يرجوه الإسلام لهم.

وكان على المحرر للترجمة أن يذكر تلك النصوص ويبين لنا رأيه فيها ولو على أنها روايات تاريخية يأخذ منها صحيح النظرة الاجتماعية حالة

---

(١) لم يرد الحديث بهذا اللفظ: «خير القرون». وإنما المعروف بلفظ: «خير الناس قرني...». أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣ من حديث معاوية القشيري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (٢٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧، ٢٢٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

العصر... إلخ ما قرره في دلالة الرواية ولو كانت موضوعة.

ج- وصف المحرر لترجمة مالك حال عصر مالك وما قبله وصفًا مطولًا - من ص ٢٠٣ إلى ص ٢٢٥ ج١ - ولخصه في ص ٣١١ - بقوله: «فهي حياة اجتماعية واقتصادية قائمة بأخلاط من أجناس الناس، قد اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأديانهم بعد ما تفرقت دماؤهم، وقد تقسمتهم طبقات واضحة الفروق بينة الاختلاف، ودبرهم حكم فردي لا يعرف من الشورى إلا صورة فردية أيضًا في شخصية وزير مخلص لا يخلص من الفتك المفاجئ واستصفاء المال وتبديد العشيرة، ومع هذه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ما تثمره دائمًا من ثمار لن تكون إلا من هذه الطعوم وذلك المذاق، وفي غير هذا المقام يطول الحديث عن تلك الأشجار وهاتيك الثمار التي لابد من معرفتها معرفة متذوقة ليستطاع فهم الحياة التي يمثلها هذا البستان أو تلك الغابة فهما يستقيم به القول في تفسير التاريخ الإسلامي تفسيرًا ناموسيًا صادقًا لا يقوم على النظرة القاصرة والخطفة الطائرة من مصادر مدونة لم يعتمد هذا التاريخ بعد على غيرها ولم تدرس هي نفسها درسًا حقًّا على منهج الأقدمين والمحدثين».

هذا مجمل رأي المحرر لترجمة مالك في المجتمع الإسلامي في عصر مالك ورأيه فيما دون من تاريخه.

وسنقص عليك نتفًا مما فصله - سابقًا ص ٢١٣ - لمجمل ما أجمله هنا.

وقبل ذلك نقول للمحرر لترجمة مالك إن كان يشير باغتيال وزير ناصح ومصادرة أمواله إلى محنة البرامكة وما أوقعه بهم الرشيد، فلم يكن البرامكة ناصحين للإسلام ولا لخلفائه سواء امتحنوا لتوجس سعيهم في قلب الإسلام فارسيًّا، أو قلب الخلافة من بني العباس إلى بني علي (أو.. أو... أو...) مما سطره التاريخ في سبب محنتهم.

وأما ما فصله المحرر في بيان حال المجتمع في عصر مال فطويل يستغرق أربعة عشرة صفحة - من ص ٢١١ إلى ص ٢٢٥ - أكتفي منه بما يأتي - ولعله لا يكون شر ما فيه.

١- قوله ص ٢٢٧: «وأسلمتهم هذه المتع كلها إلى الشهوة المسرفة، فاتخذوا السراري من أجناس وألوان في كثرة من العدد مدهشة، ومبالغة في أثمان أولئك الجواري وبذل الآلاف المؤلفة في إحداهن، ولا تسل عن مصابهم بالغلمان، وأقبلوا على ما يتصل بذلك من شراب ولهو وغناء وعبث ولعب ومجون.

وكانت الرقيقات في هذا المجتمع لا يمنعهن حجاب ولا يصدهن حياء ولا تردعهن تربية، فقمن في هذه الحياة مقام المتبذلات اليوم في بلاد المدنية المنعمة، وعمرن في الدور الخاصة والعامة ما كان يزيد على حياة النوادي (البارات والكباريهات) بل بيوت الدعارة السرية والعلنية، وكل أولئك إعلان للفساد وله أثره على الأخلاق وفعله في النفوس كبارًا وصغارًا جهالًا وعلماء، فللحياة في هذه البيئة أثرها على النفوس في تقدير سلطان الشهوة وغلبة الهوى وسيطرة المتعة».

هذه حال المجتمع الذي عاش فيه مالك وترعرع، فضلًا عن الثوري والفضيل بن عياض وابن عيينة وغيرهم!! فهل لنا أن نقول إن المترجم لمالك أراد أن يكمل ما أسسه صاحب (حديث الأربعاء) الذي نشر - تباعًا - في جريدة (السياسة) قديمًا أن أئمة هذا العصر كانوا أمثال حماد عجرد وبشار بن برد وأضرابهما الذين رآهم أحدهم مجتمعين فسألهم ماذا تعملون؟ فقال قائل منهم: نقذف المحصنات، فقال آخر: وهل في الدنيا محصنة؟!

إن كان هدف المحرر لترجمة مالك - وأحد الأمناء - أراد تكميل بناء أسسه صاحب (حديث الأربعاء) فليبن لنا فيه ما شاء من بناء، وليرفع فيه ما شاء من طبقات ما دام الغرض معروفًا والهدف معلومًا - إن صح أن يسمى هذا بناء - وإن كان الأجدر به أن يعد هدمًا؛ هدمًا لبناء مجتمع اعترف المؤلف آنفًا أن راياتهم قد داعبتها نسائم الأطلنطي وأن رماحهم قد هزت أسوار القسطنطينية وحملوا إلى حدود الصين أنوار العدل والمدنية.

فكيف يصح لمجتمع متفسخ هذا التفسخ - عند المحرر - ومتعفن هذا العفن أن تصل راياتهم إلى ما وصلت إليه حتى أصبح البحر الأبيض (بحر الروم) بحيرة إسلامية يسمع الأذان الإسلامي في نواحيه، فإن لم يكونوا هم فاتحي هذه الأصقاع،

فقد احتفظوا بها عن الضياع إن لم يكونوا زادوا عليها، وقوم شأنهم ما ذكره المؤلف لا يمكن أن يكون بيدهم ميزان قوة العالم القديم، بل كان ضرب الفرس والروم لهم وإذلالهم واسترقاق حرائرهم هو المعقول الذي تقتضيه نواميس الحياة وتقضي به سنن العمران.

ومن العجب أن المؤلف لا يستشهد على ما قال ولو بشاهد من «الأغاني» أو «زهر الآدب» حتى ولو من (يواقيت الشعراني)، وأحيانًا يدعي ولا يستشهد؛ لأن الأمر عنده أوضح من أن يحتاج إلى شهادة ولو من كذاب.

٢- والمدينة وطن مالك ومنبت غرسه التي كانت قديمًا عش المهاجرين والأنصار وصارت بعدهم وطن أبنائهم وتلاميذهم ومواليهم صارت هي ومكة «مركزًا للموسيقى والغناء، ومنها تخرج الوسيقيون اللازمون لبلاط دمشق، ففيها كانت تلتقي أصداء الألحان بأنغام الدعاء والاستغفار وأصوات المتعبدين، ولا مفر من أن يكون لهذا التلاقي أثره».

ثم ضرب المثل لذلك -كما سيأتي في الفقرة التالية- فهنيئًا لمكة والمدينة بهذه التجارة الرابحة تصدير المغنين والموسيقيين إلى الأقطار وإلى بلاد دمشق، ويكون الحديث في مدح سكنى المدينة حينما تفتح اليمن والشام والعراق، ويقول الرسول ﷺ: **«والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»**[1]. للخارجين إلى تلك الأقطار المفتوحة، فيا ترى هذه الخيرية في هذا الحديث لأن سكان المدينة سيصدرون مغنين وموسيقيين إلى تلك الأقطار؟ وفي الحديث الآخر: **«من صبر على لأواء المدينة، كنت شفيعًا له، أو شهيدًا يوم القيامة»**، فأين اللأواء والشدة مع وجود المغنيين والموسيقيين يا ترى؟ والرواية إن لم تصح عند الأستاذ المؤلف فلا أقل من أن يكون لها دلالة اجتماعية على حسب أصله الذي أصله في دلالة الروايات المصنوعة المكذوبة.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨).

العلوم والفنون[1]

كثر اللغط هذه الأيام بسبب ما نشر وأذيع أن روسيا أطلقت صاروخًا وصل إلى القمر واستقر عليه.

فمن الناس من يظن أن ذلك يمس الدين أو يشكك فيه؛ بزعم أن مخترعات البشر كيف تخترق أطباق السموات وتصل إلى الملأ الأعلى؟.

وعندي أن لا ضرر على الدين، ولا تشكيك في أصوله من ذلك الصاروخ، فدين الإسلام لا ينكر التقدم البشري والارتقاء في الصناعات والمخترعات.

فإذا كان من الناس - كروسيا مثلاً - من عرف قوة الجاذبية الأرضية ومدى بعدها وتوصل إلى صاروخ يخرج بقوة دافعة عن مدى سلطان الجاذبية الأرضية، وأطلقه في الفضاء حتى خرج من سلطان الجاذبية الأرضية، ووقع في تأثير الجاذبية للقمر حتى استقر على سطحه، فأي غرابة في هذا؟ وأي ذنب للدين على إقحامه في إنكار مثل ذلك وتعريضه لنقد الناقدين؟!.

ودين الإسلام قد جاء بالحث على السعي في مصالح الدين والدنيا، ولن يقف حجر عثرة في التقدم والارتقاء الصناعي والمخترعات، والنبي ﷺ يقول: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم، وإذا حدثتكم عن الله فلن أكذب**»[2] ﷺ.

---

(١) مجلة المنهل - في ربيع الثاني ١٣٧٩هـ وقد جاء في صدر المقال مقدمة للمجلة بما نصه: امتلأت أنهار الصحف في أرجاء الدنيا، وأجواء الإذاعات العالمية بأنباء إرسال الصواريخ من الأرض إلى القمر، وإلى غيره من النجوم كالمريخ والزهرة.

وقد رأت إدارة مجلة المنهل أن تستطلع آراء علماء الدين الإسلامي حيال هذا الموضوع.

ونرى القراء فيما يلي إجابات أصحاب الفضيلة الأساتذة محمد عبد الرازق حمزة، إبراهيم الشورى، عبد الله خياط.

(٢) مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس.

ولم نقف على شيء مأثور عنه ينفي تقدم الحضارة والعمران، بل جاء في الدين الحث على النظر في ملكوت السموات والأرض: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والقرآن مملوء بالأمر بالتفكر والتدبر والتعقل، وذم الذين الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، ومدح الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وجعلهم من أولي الألباب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والذين يستغربون هذا ويستبعدون وصول شيء من صنع البشر إلى القمر لظنهم أن القمر من السماء التي يعجز البشر عن التطاول إليها، يقال لهم: ليس القمر هو السماء التي يسكنها الملائكة وتنقطع أعناق البشر عن الوصول إليها، وإنما هو جرم علوي يدور حول الأرض في نحو شهر مرة، فيحدد للناس أوائل الشهور العربية وأواخرها كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فليس القمر هو السماء؛ مسكن الملائكة، وإنما هو جرم يدور في الفضاء للحكمة التي خلقه الله لها؛ يرتبط مع الأرض بالجاذبية العامة التي تمسك جميع الأجرام العلوية.

وقد جاء ذكر السماء في القرآن بمعنى العلو في آيات كثيرة كقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥]، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن

يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]. ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩]. إلى غير ذلك من الآيات التي جاء فيها ذكر السماء بمعنى العلو كالسحاب ونحوه وأجواء الفضاء.

أما السماء التي هي مسكن الملائكة وصعد إليها النبي ﷺ ليلة المعراج فرأى آدم في الأولى منها، وعيسى ويحيى في الثانية، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، وفيها شجرة المنتهى عندها جنة المأوى، وفوقها كرسي الرحمن وعرشه المجيد، فلن نسمع لأحد يتطاول إليها أو يدعي وصول شئ من اختراعه إليها، وهي من عالم الغيب الذي نصدق ما جاء في وصفه عن الصادق الأمين. والسلام.

حول مشاهد القيامة في القرآن[1]

في «البلاد السعودية» يوم الأحد غرة رجب؛ في آخر مقال الأديب أحمد جمال في رده على سيد قطب تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [سبأ: ٥٢] ما معناه: أنه أخذ الملائكة للمشركين وجرهم لهم إلى العذاب... إلخ.

وليس هذا من معنى الآية في قبيل ولا دبير، ولا ذكره أحد من المفسرين قديمًا ولا حديثًا، ولا دل عليه سياق الآية لا بالتضمين ولا بالمطابقة ولا الالتزام.

ولا يخفى على الأديب الفاضل ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، وأن تفسير القرآن له قواعد وعلوم وإحاطة بما جاء عن السلف وأئمة التفسير، فعلى من يريد أن يدخل هذا الميدان أن يتسلح بسلاحه وأن يعد عدته.

---

(١) مجلة البلاد السعودية – العدد (٧١٨) ٨/ ٧/ ١٣٦٧هـ.

ويسرنا أن نرى أدباءنا يضربون بأسهمتهم مع أدباء العالم وأن يزاحموهم في النقاش والحوار، ولكن لا نحب لهم دخول المعركة عزلا غير مستعدين بعدد العراك والكر والفر.

ولنذكر للأديب شيئًا من مقال المفسرين، والكلام لشيخهم الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ قال[1]: يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون حين عاينوا عذاب الله: آمنا به، يعني آمنا بالله وبكتابه ورسوله، في حين لا ينفعهم قبل ذلك، فقال الله: وأني لهم التناوش، أي وأين لهم التوبة والرجعة؛ أي قد بعدت عنهم، فصاروا منها في موضع بعيد أن يتناولها وإنما وصفت ذلك الموضع[2] بالبعيد؛ لأنهم قالوا ذلك في القيامة، فقال الله: أني لهم التوبة المقبولة، والتوبة المقبولة إنما كانت في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيدًا عن الآخرة.

ثم روى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد وبمثل ذلك ذكر القرطبي[3] وغيره من سائر المفسرين.

هذه كلمة عابرة؛ نصيحة للأديب ومحبة في حسن سمعة البلاد العربية؛ مهبط الوحي ومشرق شمس الإسلام، ورفعة لشأنها لدى العالم الإسلامي، بله العالم المتدين كله... والسلام.

* * *

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٢/ ١٠٩، ١١٠.

(٢) في الأصل «وأني وصف الموضع» والمثبت من «تفسير الطبري».

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣١٥، ٣١٦.

محـــرم الحـــرام[1]

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦- ٣٧].

توقيت الزمن وتقسيمه أمر فطري جبل الله الجبلة البشرية عليه؛ لتنظيم شئون معايشهم وتنظيم أعمالهم، فمتى بدأت غريزة الفهم والتمييز في الإنسان بدأ يعرف الليل من النهار، ومتى ارتقت معارفه عرف أن توالي الأيام يكون أسبوعًا، وتوالي الأيام والأسابيع يكون عنه الشهور، ومجموع الشهور سنون، والسنون أحقاب وقرون.

وقد ربط الله الليل والنهار بسير الشمس، فظهورها نهار واختفاؤها ليل، وفي أكثر البلاد المعمورة ما عدا المناطق غير المعمورة حيث القطبين.

واتفق الناس أن كل سبعة أيام هو الأسبوع، وذهب بعض أهل العلم إلى أن مدة تسبيع الأسبوع سرت إلى الناس من ديانات السماء؛ بسبب تشريع الديانات كل سبعة أيام يومًا للعبادة والراحة.

وجاء في أحاديث **«أضل الله من قبلنا عن يوم الجمعة وهدانا إليه، فغدًا لليهود وبعد غد للنصارى، فالناس لنا فيه تبع»**[2] أو كما قال ﷺ. وفي أثر آخر: **«ما حسدتنا اليهود على شئ كما حسدتنا على يوم الجمعة»**[3].

---

(١) مجلة «الحج» - محرم وصفر - ١٣٦٩هـ - السنة (٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٣٤). وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥١٥).

أما عدد أيام الشهور والسنين فقد اختلف تقدير الناس في الميزان الذي توزن به الشهور والسنون، فمنهم من ربطها بسير الشمس في بروجها؛ فإذا دارت في فلكها دورة كاملة عدوا ذلك سنة وقد قدروها بـ «٢٥و ٣٦٥» يومًا تقريبًا، ثم قسموا هذا العدد ١٢ قسمًا، سموا كل قسم شهرًا.

ولما كان هذا العدد لا ينقسم قسمة صحيحة إلى ١٢ فقد اصطلحوا أن يكون بعض الأقسام ٣٠ يومًا وبعضها ٣١ يومًا وواحد منها ٢٨ أو ٢٩ يومًا.

فهذا هو أساس اختلاف أيام الشهور الأعجمية؛ فارسية كانت أو رومية أو إفرنجية.

أما العرب وأهل الكتاب قبل أن يخلطوا توقيتهم ويمزجوه شمسيًا بقمري، فقد كان تحديدهم للشهر بسير القمر الذي يكون أول الشهر هلالًا صغيرًا يرى بعد الغروب جهة الغرب، فيبتدئ عندهم أول الشهر ثم يزداد وتطول مدة مكثه بعد الغروب إلى أن يتكامل بدرًا ويبقى الليل كله، وحينئذ يتنصف الشهر، ثم يأخذ في النقص ويتأخر شروقه حتى ينمحق ويختفي، وبذلك ينتهي الشهر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقد بحث الناس في الأفضل من ربط الشهور بسير القمر أو الشمس.

فمنهم من فضل ربطها بالشمس، لموافقة فصولها؛ صيفًا وشتاء وربيعًا وخريفًا لأحوال الزراعة، وجعلوا التوقيت بالشهر القمري إنما يناسب الأمة البدوية التي تعيش على الصيد فلا حاجة لها بشئون الزراعة وتأثير القيظ والبرد عليها.

ومنهم - وهم أهل الأديان - من يدافع عن التوقيت الشهري والسنوي بسير القمر بأنه هو التوقيت الفطري الذي يراه كل أحد من البدو والحضر،

فلا يحتاج إلى حساب يغلط فيه الغالطون، ويكون الناس فيه تحت سيطرة دكتاتورية ممن يزعم لنفسه معرفة الحساب الفلكي وتسيير النجوم في أفلاكها.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك كلام نفيس خلاصته: أن هذه الشريعة الإسلامية أكملها الله تعالى؛ ومن كمالها أن أوقات العبادة فيها للصلاة والصوم والحج يشترك في معرفتها سائر الناس من بدو وحضر، فلم يحوجهم الله إلى حُسَّاب ولا مُنجمين ولا طائفة معينة تتحكم في توقيت عباداتهم، فصلاة الصبح مثلًا يدخل وقتها بفلق الفجر؛ الشفق الذي يسبق طلوع الشمس، والظهر بزيغ الشمس عن كبد السماء، والعصر بمصير ظل الأشياء كطولها شرقًا، والمغرب بغروب الشمس، والعشاء بمغيب الشفق الذي يبقى بعد الغروب قليلًا، وهكذا قل في شهور الصوم والحج والأشهر الحرم.

ونحن إذا تجاوزنا عن خطأ قد يحدث أحيانًا من تقدم بعض الشهور يومًا في بعض الأقطار أو تأخره يومًا بسبب الاختلاف في رؤية الهلال أحيانًا، فإننا نرى الطريقة القمرية أقرب إلى الضبط، فلم يقع فيها ما وقع في التقويم الشمسي من التعديل الجريجواري على التقويم اليوليوسي إذ ألغى البابا الجريجوار عشرة أيام من التقويم اليوليوسي لا تدخل في الحساب أصلًا؛ سببها أن دورة الشمس الحقيقية هي «٢٤و ٣٦٥» يومًا، فلما اعتبرت ٢٥ و٣٦٥ زادت السنة ١٠٠٠.١؟ في اليوم عن قدرها الحقيقي فتجمعت هذه الزيادة عشرة أيام في عصر البابا جريجوار القرن السادس عشر الميلادي، وتأخر مرور الشمس يوم الاعتدال الربيعي عن (٢٢ مارس) عشرة أيام فاضطر البابا المذكور إلى حذف هذه العشرة الأيام.

وقد قبل تعديله أهل أوربا الغربية، ولم يقبله الشرقيون منهم فصار بين توقيتهم فرق (١٣ يومًا)؛ هذه العشرة الأيام التي حذفها البابا المذكور وثلاثة أيام تجمعت في القرون الثلاثة التي جاءت بعده إلى الآن.

فتجد الاحتفال بعيد الميلاد المسيحي مثلًا عند الأمم الغربية متأخرًا ثلاثة عشر يومًا عنه عند الأمم الشرقية بسبب هذا التعديل الجريجواري، وقبوله عند قوم منهم وعدم قبوله عند آخرين، وهكذا قل في الصوم وسائر أعيادهم الدينية.

أما نحن المسلمين فقد أغنانا الله تعالى عن تقويم نحتاج فيه إلى تعديل جريجواري أو خلافه، ومسألة تقدم الشهر بيوم أو تأخره به تزول متى اتفق المسلمون على قاعدة متفق عليها بينهم في كيفية إثبات رؤية الهلال.

وهل يكفي فيها شهادة الشهود ولو علمنا أو ظننا خطأهم؟ أو لابد من ضم القرائن والشواهد التي تؤيد رؤيتهم أو تشكك فيها؟ وليس ذلك على عقلاء المسلمين وزعمائهم وأهل الحل والعقد فيهم بصعب خصوصًا بعد تقارب سياساتهم وتوحيد كلمتهم في مؤسسة عظيمة كالجامعة العربية.

أخبر الله تعالى أن عدة الشهور عنده في شرعه وقدره وكتاب أقداره اثنا عشر شهرًا بسير القمر الذي قال الله عن أهلته: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] بينها النبي ﷺ في حجة الوداع أنها ثلاث متواليات؛ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر بين جمادي وشعبان.

وبقي أن يقال: إننا نرى الشهر القمري مرة ثلاثين يومًا ومرة تسعة وعشرين يومًا، فهل يسير القمر شهرًا صحيحًا وشهرًا أعرج أو مريضًا؟!

وجوابه سهل على من مارس شيئًا من علم حركات أجرام السماء، فقد علم بالاستقراء أن القدر الحقيقي لدورة القمر في فلكه حول الأرض هو (٢٩.٥) يومًا تقريبًا والشهر يحسب أيامًا صحيحة، فترك نصف يوم من شهر وأضيف إلى شهر آخر، أو بتعبير آخر: إن دورتي القمر في فلكه حولنا تستغرق (٥٩) يومًا جعل منها ٣٠ يومًا لشهر و ٢٩ لآخر.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ

عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ﴾ [التوبة: ٣٧]... إلخ، فإن ذلك على ما أفاده البغوي في «تفسيره»[1]: أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر؛ ذا القعدة إلى المحرم على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسئوا، أي: أخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، وهكذا شهرًا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وقد رجع المحرم إلى موضعه الي وضعه الله ﷻ فيه، أي سنة حجة الوداع. ثم روى البغوي حديث البخاري[2] عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: **«إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهرًا؛ منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان»** إلى أن قال: **«إن دماءكم وأموالكم»**. قال محمد – يعني ابن سيرين راوي الحديث – عن أبي بكرة: وأحسبه قال: **«وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا** – يعني يوم النحر – **في بلدكم هذا** – يعني مكة – **في شهركم هذا** – يعني ذو الحجة – **وستلقون ربكم ويسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا فليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟»**.

قال البغوي في «تفسيره»: قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر ويحجون من قابل في شهر آخر، قال

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

(٢) البخاري (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢).

مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في شهر ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في سائر الشهور، فوافقت حجة أبي بكر ﷺ قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في حجة الوداع فوافق حجة شهر الحج المشروع؛ وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسئ قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر الحرم يوم خلق السموات والأرض وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل في مختلف الأيام.

ثم ذكر البغوي اختلافهم في أول من نسأ النسيء إلى أن انتهى إلى رجل يقال له: جنادة بن عوف رجل من بني كنانة يقال له: قلمس قال شاعرهم:

وفينا ناسئ الشهر القلمس ....

وقال الآخر[1]:

لقد علمت معد بأن قومي كرام الناس أن لهم كراما

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

فأي الناس لم ندرك بوتر وأي الناس لم نملك لجاما

وذكر الحافظ ابن كثير في «تفسيره»[2] عن الشيخ علم الدين السخاوي من جزء له سماه: «المشهور في أسماء الأيام والشهور» أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرًا محرمًا، قال ابن كثير: وعندي أنه سمي بذلك تأكيدًا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عامًا وتحرمه عامًا.

قال السخاوي: وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون

(١) هو: عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب. «سيرة ابن هشام» (١/ ١٦١).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٦).

للقتال والأسفار، وشهر ربيع الأول سمي لارتباعهم فيه، والارتباع الإقامة في عمارة الربيع، وجمادى الأولى لجمود الماء فيه، قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، يعني: أنها شمسية. قال ابن كثير: وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلا بد من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، قال الشاعر:

وليلة من جمادي ذات أندية لا يبصر العبد في ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خرطومه الذنبا

ورجب من الترجيب وهو التعظيم، وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة، ورمضان من شدة الرمضاء وهو الحر، وشوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق، والقعدة - بفتح القاف وكسرها - لقعودهم فيه عن القتال والترحال، والحجة بكسر الحاء وفتحها لإقامتهم للحج.

وذكر أسماء أيام الأسبوع بألفاظها المعروفة الآن الأحد - الاثنين - الثلاثاء - إلخ.

ثم قال: وكانت العرب تسمي الأيام - يعني قبلا -: أول، ثم أهون، ثم جبار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار. قال الشاعر (من العرب العرباء العابرة المتقدمين).

أرجى أن أعيش وإن يومي بأول أو بأوهن أو جبار
أو التالي دبار فإن أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار

هذا وعلى ذكر التوقيت الشمسي والقمري، فإنا نزف البشرى إلى القوم الذين يحبون لمكة الخير والتقدم العصري لتجمع مع الزعامة الدينية وشرف قبلة الإسلام المساهمة مع العصر في فنونه أن هناك فكرة بإنشاء مرصد فلكي وجوي بهمة وتشجيع صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم بجلب كثير من أدواته الفلكية مع مشاركة مصر في إهداء كثير من الآلات الجوية؛ حبًّا في

مكة والحجاز وبلاد العرب والحكومة السعودية، وقد أمر سمو ولي العهد ببناء المكان المعد لهذا المرصد فوق علو أبي قبيس وإنا لتنفيذ وزارة المالية لهذا الأمر السامي الكريم في قلق الانتظار، أعانها الله على خدمة مصالح البلاد وتنفيذ أوامر أولياء الأمر بهمة وسرعة يحمدها لها الحامدون.

كما أننا نزف بشرى أخرى من حسنات سمو ولي العهد المعظم وما أكثر ما له من حسنات وأيادي بيضاء على العلم وأهله؛ هو إهداء دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بجذم الصفا التي كانت محل الدعوة الإسلامية الأولى أيام الاضطهاد الشركي والتألب القرشي على الرسول وأصحابه، فكانت دار الأرقم معقل الدعوة ونفق الاختباء، وفيها أسلم عمر الفاروق أمير المؤمنين وحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء بأحد، لها في السيرة النبوية فصل ممتع شائق.

تكرم سمو ولي العهد بإهداء هذه الدار التاريخية لدار الحديث المكية لمدارسة القرآن والسنة الصحيحة النبوية، فأحيا سموه العظيم تاريخ هذه الدار التاريخية بهذا العمل الجليل وأضاف يدًا بيضاء إلى أياديه التي تفوت العد في تشجيع العلم بجميع فروعه من ديني ودنيوي. بارك الله عليه وفي أعماله وأياديه آمين.

* * *

كسوف الشمس[١]

تلك الظاهرة الكونية التي استرعت انتباه الناس من قديم الزمان؛ لابد من كلمة قصيرة عنها، وقدرًا مما عرفه الناس وقالوه عنها في تعليلها وسبب حدوثها.

جاء في الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: إن الشمس خسفت على عهد رسول الله ﷺ فبعث مناديًا بالصلاة جامعة. وعنها بعد ما وصفت صلاة الخسوف قالت: ثم انصرف – تعني النبي ﷺ – وقد انجلت الشمس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا»** ثم قال: **«يا أمة محمد؛ وإن ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني جاريته، يا أمة محمد؛ والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»**[٢].

وفي لفظ آخر في «الصحيح»[٣] أيضًا **«هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره»**.

وفي حديث النسائي[٤]: **«إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: إن الشمس والقمر لا ينخسفان إلا لموت عظيم من عظماء أهل الأرض، وإن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما خليقتان من خلقه، ويحدث الله في خلقه ما يشاء، فأيهما انخسف فصلوا حتى ينجلي»**.

هذا موجز مما جاء في الشرع من الذكرى والعبرة لهذا الحديث، حتى لا يمر والناس في غفلة ولهو ولعب، فدعا الشرع إلى الاعتبار والاتعاظ به، والفزع إلى الله تعالى عنده، والتقرب إليه بالصلاة والدعاء والصدقة

(١) صحيفة «البلاد السعودية» العدد (١١٤٥) في ١/ ٦/ ١٣٧١هـ.

(٢) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) البخاري (١٠٤٨)، ومسلم (٩١١).

(٤) النسائي (١٤٩٠).

والاستغفار، ونفي أوهام الجاهلية فيه من حدوثه لموت عظيم أو حياته؛ من حوادث الأرض العظيمة عندهم. ومن المصادفات أن يحدث في عهده ﷺ كسوف الشمس يوم مات ابنه إبراهيم، فقال بعض الناس: خسفت الشمس لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ، فبادر ﷺ إلى دفع الوهم الباطل، وتعليم الناس حكمة الله في ذلك وما يجب من عباده حينئذ، ولو كان من دعاة الضلال لاستغل وهم الناس وسذاجتهم إلى ما يعود عليه بزعم من زعم أنه كان لموت إبراهيم وحزنًا عليه. أما أهل النظر والتجربة والباحثون في العلوم الكونية فقد استنتجوا من حدوث هذه الظاهرة عند اجتماع النيرين أو استقبالهما أن ذلك بسبب هذا الاجتماع أو الاستقبال.

وقد صوروا مدار الشمس والقمر بما دلتهم عليه الأرصاد والحساب غير متطابقين ولكنهما متقاطعان في نقطتين تسمى إحداهما: بالعقدة الصاعدة، والثانية: بالعقدة النازلة، فإذا اجتمعا أو تقابلا على هاتين العقدين نقطتي تقاطع مدارهما كانا والأرض على خط مستقيم، فحصلت تلك الظاهرة العجيبة. ولو كانا مدارهما متسامتين تمامًا لوقعت هذه العجيبة كل شهر.

وفي الفلك العملي أبواب مبوبة لحساب الأوقات التي يكون فيها النيران على العقدة، أي نقطة تقاطع المدارين، وبالتالي معرفة أوقات كسوف الشمس أو خسوف القمر. وحكماء العلماء الذين يجمعون بين معرفة الشرع ولا يجافون ما أثبته البحث النظري والتجارب العلمية لا يرون تناقضًا بين ما جاء في الشرع وبين ما قاله علماء الكون عن خبرة وتحقيق، فالشرع من عند الله والكون من خلق الله تعالى، وكلاهما من نعمة الله تعالى على عباده، وتخيل تناقضهما من ضيق الأفق وقلة الفهم.

ولعلنا نعود إلى شرح الموضوع بأوسع من هذا على ضوء ما حقق الراسخون من أهل العلم في ذلك كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الكسـوف أيـضًا[1]

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾[يوسف:١٠٥].

إن من نظر في هذا العالم نظر التأمل والاعتبار كما أمر الله يظهر له من تدبير الله تعالى لخلقه بسنن حكيمة ونواميس عجيبة ما يقطع معه أن هذه الصنعة العجيبة هي خلق العزيز العليم الحكيم القدير.

وقد جاء في الشرع الحنيف الإشارة إلى تدبيره الغيبي وراء ما يعرفه العقلاء من هذه السنن الظاهرة، تقوم به ملائكته المدبرات بأمره الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فقد وكل بالسحاب والنبات والأرحام والجبال والحياة والموت من ملائكته ما أشارت إليه الآيات والأحاديث.

فمن قصر نظره على ما عرف بالعقل من سنن الكون معرضًا عما جاءت به الرسل والشرائع كان ممن يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، فحرم نفسه الإيمان بالغيب، وهو أهم أركان الإيمان، فإن أنكر ما جاءت به الرسل كان من القوم الكافرين الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله.

ومن أعرض عما أثبت العقل والنظر من هذه السنن الكونية كان مكابرًا للبديهة والعقل وحرم نفسه الانتفاع بما فطر الله عليه عباده من ثمرات العقول وتقدم الحضارة والعمران، واستطال عليه أهل هذه المباحث بما عرفوا واستفادوا من معرفة هذه السنن وما أفادت في تقدم البشرية ومعايشهم.

ولقد كان اهتمام الشرع وما جاءت به الرسل في النظر إلى هذا العالم بالنظر إلى أسبابه الغيبية التي يجريها على أيدي ملائكته، وترك البحث في

(١) صحيفة «البلاد السعودية» العدد (١١٤٧) في ٦/ ٦/ ١٣٧١هـ.

السنن الظاهرة والنواميس الكونية إلى تجارب الناس وعقولهم التي تترقى من حين إلى حين وتقبل البحث والتمحيص وتضيف الآخر إلى ما عرف الأول تهذيبًا ونقدًا وتعديلًا.

والراسخون في العلم يؤمنون بما جاءت به رسل الله من الغيب وينتفعون بما عرفه الناس من سننه ونواميسه، فالشرع شرع الله والعقل نعمة الله ولا تعارض بين شرعه ونعمه إلا عند قصار النظر.

أما المؤمن العاقل فيؤمن بدينه وينتفع من علوم الدنيا ما أثبته البحث والتجربة والتمحيص؛ من علوم الطب والزراعة والهندسة والصناعات التي تنفع الناس في دنياهم ولا تضر بدينهم.

فإذا جاء في الحديث[١]: «**أن الملك يقول يا رب نطفة. علقة. مضغة، فما الرزق؟ فما الأجل؟ شقي أم سعيد..**» آمن بذلك وعلم أنه حق كما أخبر بذلك الصادق المصدوق. وإذا نظر في علم الأجنة أن الجنين يتكون في رحم أمه بتلقيح بويضة الأنثى بالحيوان المنوي من الذكر بسنن معلومة عندهم، فنشأة هذا الجنين من تلقيح الأبوين ونموه في الرحم بدورة دم أمه.. إلخ لم يعارض ذلك عنده ما أثبته الحديث.

وهكذا تكوين السحاب وتوجيهه إلى ما يريد الله سوقًا إليه بأمر الله الذي ينفذه ملكه، مع ما عرف الناس لهما من أسباب ظاهرة من تبخر المياه بحركة الرياح وحرارة الشمس، وسوقها بالرياح المبشرات بها... إلخ.

وهكذا ما جاء عن الكسوف شرعًا وعقلًا مما يجري على هذا النمط.

إذا علمت هذا التمهيد الوجيز ننتقل بك إلى موضوع الخسوف والكسوف وأسبابه، وخير ما نسوق إليك في ذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام شمس الدين ابن القيم[٢] رحمهما الله تعالى وهما هما

(١) مسلم (٢٦٤٦).

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٢٤)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٢٠٧).

علمًا ودينًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى المصرية (ص ٢٢٠ –ج ١)، وفي مختصرها (ص ٤٨١): الكسوف والخسوف لهما أوقات مقدرة كما أن لطلوع الهلال وقت مقدر؛ وذلك مما أجرى الله عادته كالليل والنهار والشتاء والصيف وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر وذلك من آيات الله تعالى، فكما أن العادة أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين أو إحدى وثلاثين، وأن الشهر لا يكون إلا ثلاثين أو تسعًا وعشرين فكذلك أجرى أن العادة أن الشمس لا تنكسف إلا وقت الاستسرار وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار[1]، وللشمس والقمر ليال معتادة من عرفها عرف الكسوف والخسوف كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية، ولكن العلم بالهلال هو علم الناس، وأما علم الكسوف فهو لمن يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحساب بذلك من باب علم الغيب، بل مثل العلم بأوقات الفصول.... إلخ. ثم أطال رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الفرق بين هذا الحساب وبين الكهانة والتنجيم المذموم شرعًا وبين حديث «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»[2]. بيانًا شافيًا وافيًا لا ينطبق على معرفة مسيرة الكواكب والشمس والقمر، فراجعه فإنه نفيس جدًّا.

وقال الإمام شمس الدين ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة»[3] (ص ٥٥) طبعة ربيع.

---

(١) قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووقت إبداره هي الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها ليلة الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فالقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي.

والهلال يستسر آخر الشهر إما ليلة وإما ليلتين كما يستسر ليلة تسع وعشرين وثلاثين والشمس لا تكسف إلا وقت استسراره (الفتاوى ٢٤/ ٢٥٥).

(٢) أحمد (٢٨٤١) وأبو داود (٣٩٠٥) وابن ماجه (٣٧٢٦). قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (٦٠٧٤) في صحيح الجامع.

(٣) (٣/ ٢١٩) ط. دار ابن عفان.

وأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا، فإن القمر عندهم جسم كثيف مظلم، وفلكه دون فلك الشمس، فإذا كان على مساواة إحدى نقطتي الرأس أو الذنب - يريد ما يسمى العقدة الصاعدة والعقدة النازلة - أو قريبًا، فهي[1] حالة الاجتماع من تحت الشمس حال بيننا وبين نور الشمس كسحابة تمر تحتها إلى أن يتجاوزها من الجانب الآخر... إلخ. ما شرح من ذلك في بيان كونه كليًّا أو جزئيًّا. فراجعه إن شئت.

ثم قال: وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس حتى يصير القمر ممنوعًا من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض في ممرِّه؛ لأن القمر لا ضوء له أبدًا، وإنما يكتسب الضوء من الشمس. ثم أطال الكلام في بيان الشروط التي يكون عليها الخسوف كليًّا أو جزئيًّا، فطالعه إن شئت يشرح لك المسألة عما يغنيك عن مطولات علم الفلك.

ثم قال (ص ٥٥٤): وإنما ذكرنا هذا الفصل ولم يكن من غرضنا؛ لأن كثيرًا من هؤلاء الأحكاميين - يعني المنجمين - يموهون على الجهال بأمر الكسوف ويوهمونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف؛ فيصدق بذلك الأغمار والرعاع، ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما وذلك أمر قد أجرى الله تعالى العادة المطردة به كما أجراها في الإبدار والسرار والهلال، فمن علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وسببه إلخ ما أطال به من ضرر، أو ما قالوه من حق وباطل والظن أن من ضرورة تصديق الرسل أو ما علمه هؤلاء بالعقل الضروري الذي علمت مقدماته بالحس، وإبطال ذلك بمقومات لا تغني من الحق شيئًا، والجناية على الدين بإضافة ذلك إليه وإلى الرسل، حتى ساء ظن الملاحدة بالرسل وبالدين...

(١) في «مفتاح دار السعادة»: «منهما».

إلى أن قال: والذي سلطهم على ذلك هو جحد هؤلاء لحقهم ومكابرتهم إياهم على ما لا يمكن المكابرة عليه مما هو معلوم لهم بالضرورة، كمكابرتهم إياهم في كون الأفلاك كرية الشكل والأرض كذلك، وأن نور القمر مستفاد من نور الشمس، وأن الكسوف القمري عبارة عن إغماء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث إنه يكتسب نوره منها، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب، فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس كما قدمناه، وكقولهم: إن الكسوف الشمسي معناه: وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة... إلخ ما أطال به؛ يعد مكابرة وتنفيرًا للعقلاء من الدين.

ثم أورد حديث: «إذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له»[1]. وتكلم على سنده ومتنه بكلام نفيس (ص ٥٥٨، ص ٥٥٩) لا يحتمله هذا المقال، فراجعه إن شئت[2] هذا الإمام، ما جمع من تحقيق علمي في الدين وعلومه والدنيا وما ينصاع بها من مصالح العباد.

هذا، وقد اهتم بحادث الكسوف الماضي دول الحضارة فأوفد كثير منها بعوثًا إلى حيث يقع كليًّا بتصويره، واستنتاج ما يدل عليه من تحقيق ما هم في حاجة إليه من تأثيره على المغناطيسية الأرضية والأمواج اللاسلكية ونظرية النسبية إلى غير ذلك مما يفيد في علوم البشر الكونية وينفعهم في حياتهم الدنيوية، والحمد لله على ما قمنا به من أداء ما شرع الله لنا عنده والسلام.

* * *

(١) النسائي في الكبرى (١٨٧٠)، وابن ماجه (١٢٦٢) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في ضعيف السنن.

(٢) كلمة غير واضحة.

الطواف والتطويف[1]

حول بيت الله الحرام

الطواف حول الكعبة المشرفة، بيت الله الحرام، نسك من مناسك الحج والعمرة، يعرفه حجاج بيت الله الحرام وعماره من عهد إبراهيم الخليل؛ خليل الرحمن؛ أبي الأنبياء من بعده وإمام الموحدين من عصره إلى اليوم رغم أنف عمي البصائر والأبصار من ملاحدة سائر الأمصار.

هذا الطواف الذي يتسابق الطائفون بالتقرب به إلى ربهم؛ يستنزلون به رحمة الله، ويتوسلون به إلى مرضاته تعالى، ويتسببون إلى غفران الذنوب وستر العيوب ودفع الغضب ورفع السخط وجلب الرضوان، فتراهم آناء الليل وأطراف النهار دائبين دائرين حول بيت ربهم وبناء نبيهم إبراهيم وولده إسماعيل؛ خاشعين خاضعين باكين أو متباكين في أدب وحشمة وخشية وخوف، في رجاء وطمع، لا تلهيهم تجارة ولا بيع، لا يعوقهم حر وقيظ، ولا تقعد بهم سنة أو نوم، فلله هذه الخطوات المأجورة وفي مرضاته هذا السعي المشكور ولغفران الذنوب هذا النصب المحبوب.

ألا يملأ قلبك إيمانًا ما تراه في الطواف من طوائف الناس، فهؤلاء الشيوخ وأولئك الفتيان، وأولاء رجال وهاته نساء متحشمات وترى العربي والعجمي والبدوي والحضري والأبيض والأحمر، أزياء مختلفة وألوان متباينة وأشكال متعددة وألسن متفاوتة ولغات متباينة، الجميع في عمل واحد؛ لغاية واحدة، أمام بيت واحد يعبدون ربًّا واحدًا؛ يرجون رحمته ويخافون عذابه.

فما هذا التوحيد في تلك الكثرة؟ ما هذا الاتفاق بين تلك المباينات؟ ما

---

(١) مجلة أم القرى – العدد ١٠٣ – الجمعة ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ.

هذا الإجماع من تلك الجموع العديدة؟ هذا هو الطواف حول بيت الله الحرام.

أما التطويف فسل عنه بعض المطوفين بمكة المكرمة، فإن لم يجيبوك حوارا فستجيبك أحوالهم اعتبارًا بأن التطويف مورد من موارد الرزق، وصناعة بلا أدوات ولا عناء، وحرفة بلا نصب، وتجارة بلا رأس مال.

إني لا أحسد هؤلاء على ما رزقهم الله من مال الناس، ولا أتعرض لما ينفقونه من مال الناس ووجهة إنفاقه، ولا أذكر رحلتهم إلى الأقطار النائية في تكميل جباياتهم، فمالي ولهذا؟.

إنما الذي لا يسع مسلمًا السكوت عليه هو ما يعرفه بعضهم من جعلهم أحكام المناسك التي نصبوا أنفسهم لتعليمها للناس، وهجومهم على هذه المناسك بلا أدب ولا خشوع؛ بلا خشية ولا خوف، وتلقينهم الناس أذكارًا مبتدعة ملحونة، مشوهة الإلقاء عقيمة التأثير خالية من روح العبادة والضراعة والابتهال.

إني أذكر في مقالي هذا مجملًا من حال بعض رجال هذه الطائفة أما التفاصيل والوقائع والحوادث فقد أذكرها بعد.

وحبذا لو أرشد عالمهم جاهلهم؛ لأنهم القدوة في هذا الباب، وما قصدت في مقالي تحقير أحد ولا السخرية بمسلم، وإنما أكتب ما أكتب نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

* * *

كيف نشأت مكة المكرمة[1]

والحديث عن مكة المكرمة؛ ذلك البلد الذي يقدسه فوق أكثر من أربعمائة مليون مسلم، ويتوجهون إليه خمس مرات كل يوم في صلواتهم الخمس، ويحج منهم مئات الألوف سنويًّا، ويحترمه جمهور العالم المتمدن، فالحديث عن نشأته لذيذ وطريف يسر من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

والحديث عن نشأة ذلك البلد الأقدس يرجع بنا إلى وراء في التاريخ بنحو أربعة آلاف سنة؛ حتى نستطلع الطلعة البهية للخليل إبراهيم خليل الرحمن أبي إسماعيل الذبيح، وهما اللذان وضعا الحجر الأساس لعمران مكة المكرمة بين جبال فاران على حد تسمية التوراة، فنقف غير طويل على نبذة صالحة من تاريخ مؤسس الحنيفية السمحة؛ مجذذ الأصنام وخائض النيران ومطفئها ببرد إيمانه ورضوان الله حتى صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

إبراهيم العراقي الأشوري البابلي الفلسطيني، جواب البلاد في الله تعالى من الفرات إلى النيل إلى جبال فاران بجوف الجزيرة عن وطن العز والسيادة، وفرارًا من المهانة والذل والاستعباد، وبعدًا للقوم الظالمين.

نشأ إبراهيم بن آزر في العراق من أب كان سادن الأصنام وناحت الأوثان، فأراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين بأن رب السموات والأرض ورب العالمين هو الإله الحق الذي لا تجوز العبادة إلا له ولا تعنو الوجوه إلا إليه، وأن ما عليه أبوه وقومه ضلال وباطل، فناظر أباه وقومه في بطلان عبادة الأصنام قائلًا لهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

(١) مجلة «الحج» - جمادى الأولى والآخرة - ١٣٦٩هـ.

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٢-٤٥]، فأجاب شيخ الأصنام وناحت الأوثان: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦]، قال الفتى لأبيه في حشمة ووقار: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٧-٤٨].

أي أن قوم إبراهيم الذين برعوا في رصد السماء وحساب الأفلاك والهواء؛ نجومها وشمسها وقمرها وكواكبها وبنوا لها تماثيل ومعابد تحمل أرواحها عند غيابها بزعمهم، ونشروا في العالمين علومًا فلكية صحيحة وخرافية وأرصادًا مضبوطة وقريبة من الضبط فضلًا عن براعتهم في الصنائع والزراعة وفنون الحرب، فلم يكن يسهل عليهم ترك ما توارثوه أجيالًا عن أجيال من حب أجرام السماء وعبادتها.

ولقد ناظرهم الفتى إبراهيم في إبطال تأليهها بأفولها وغيابها: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

[الأنعام: ٧٦-٨١]

وأما الأصنام فقد عزم الفتى المغامر أن يضحي في سبيل هدمها، واهتبل أحسن الفرص لتنفيذ خطة الهجوم، فأمهل حتى يخرج القوم إلى لهوهم في

عيدهم؛ إذ يخرجون فيه إلى الصحراء ليتم لهم اللهو واللعب والسباق والرقص والزمر، ولقد دعوه إلى صحبتهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٨٨- ٩٤]، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧- ٩٨].

وقعت المغامرة، وكسر الفتى إبراهيم أصنام القوم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] فأبقى كبير الأصنام معلقًا في رقبته فأس التكسير ليتندر بهذا الكبير أمام عابديه، أو ليسخر منهم أمام آلهتهم؛ إمعانًا في إقامة الحجة وإغراقًا في السخرية بمعتقد القوم وآلهتهم ودينهم.

رجعوا من عيدهم وآبوا من لهوهم إلى الهيكل والمعبد ليقوموا بفريضة الدين ليكفروا خطايا اللهو والباطل وما عسى أن يكونوا ركبوا في لعبهم من عبث ومجون وخلاعة، فإذا الأصنام مهشمة والآلهة جذاذًا إلا كبيرًا لهم لا يبدي حراكًا ولا ينوح على زملائه ولا ينعي رفاقه ولا يبكيهم ولا تدمع له عين عليهم. يا للفجيعة؟!! أصنام تكسرت وآلهة تهشمت وكبيرهم أصم وأبكم لا يبدي ولا يعيد ولا يتكلم.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩- ٦١]. وانعقدت المحاكمة، وجلسوا على منصة القضاء، وكان السؤال والجواب والنطق بالحكم القاسي الذي لا هوادة ولا رحمة فيه: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] قال متنفرًا ساخرًا من عقولهم وعقيدتهم وآلهتهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. فيشكوا إليكم ممن كسرهم! فهل يعجزون عن النطق كما عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم؟

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]. لقد ظلمتم الفتى في جلبه مشقوقًا عليه ليعاقب على جرم ارتكبته الأصنام بعضهم مع بعض،

آلهة تهاوشت وتهارشت، وطغى بعضها على بعضها، فكان صدام وكان تهشيم وتكسير وتدمير وتبتير بعضهم البعض، فما ذنب الفتى إبراهيم؟ وإن كان ذكرهم أحيانًا بسوء فذلك حرية الرأي التي لم تقترن بسوء العمل، ففي الناس من قد يقول ولا يعمل.

ثم صاح بهم شيطان الفكر وتنبه منهم نائم العقل؛ هل هي حقًا بحيث إذا سألناها عمن جعلها حصيدًا خامدين؟ ومتى عهدتها تتكلم أو تجيب؟ هل أردت يا إبراهيم أن تجمع إلى جنايتك على الأصنام السخرية بنا وبها؟ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

فقامت لإبراهيم الحجة واستقامت المحجة، أصنام لا تتكلم، فهي صماء بكماء عاجزة تكسر وتهشم فلا تدافع عن نفسها، ولا هي تخبر عمن هشمها فكيف إذن تعبد؟ ولماذا تؤله ولها يسجد؟ وواجه قومه بالحق المرير عليهم معلنا دينه القويم. ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

هنالك صبوا الحكم العرفي والقضاء العسكري إذ قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

وجمع القوم قواهم وكيدهم وما أوتوا من حول وطول ومال وقوة، واشترك الجميع في اشتداد الجحيم؛ انتصارًا للآلهة، حتى العجوز فيهم باعت غزلها لتشتري حطب الجحيم لنار إبراهيم؛ مجذذِ الآلهة ومهدم الأصنام، ولم تبخل العذارى وذوات الخدور عليهم فضلًا عن سراة القوم وكبرائهم.

وأوقدوا الجحيم حتى طار لهبه إلى عنان السماء، وانتشر وهجه وسعيره أميالًا وأميالًا، فأنى لهم بالقرب من هذا الجحيم لتنفيذ الحكم القاسي الظالم في الفتى إبراهيم.

حينئذٍ نتق لهم شيطان الحيلة ومردة الاختراع صنعة المنجنيق، كما أوحى إلى إخوانهم من شياطين العصر اختراع مقوضات العمران من ذريات وهيدروجينات وصواريخ وعقبان جوية تسير بالرادار، إلى غير ذلك من

مدمرات المدنية والحياة.

أوثقوا الفتى كتافًا وأقعدوه في كفة المنجنيق، وطيروا المنجنيق رميًا في الهواء إلى الجحيم. تفتحت السماء والأرض، واستأذنت السحب والبحار في إغاثة الخليل وإطفاء نار جحيمه، فقيل لهم بلسان التدبير الرباني: إن كان استغاث بكم فأغيثوه.

وروت الآثار أن جبريل عرض عليه المعونة فأباها؛ اكتفاء بعين الله وسمعه وعلمه وحماية ربه.

وجاء عن الحبر ابن عباس[1] أن إبراهيم حين ألقي في النار قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وأرادوا به كيدًا فجعلهم الله الأخسرين، الأسفلين، الفاشلين.

وإلى هنا يسدل الستار على حيلة إبراهيم في العراق، وينتهي فصل من تاريخه مع قومه ببابل وأشور؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فهداه الله وهاجر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين؛ بلاد فلسطين ضحية المطامع الظالمة، وغصبية الفئة الرذيلة الذليلة الطريدة الشريدة، فأخذها وطنًا يقوم فيها بدينه ويؤسس قواعد الملة الحنيفية بإذن ربه.

وهاجر معه زوجه سارة؛ هاجرة وطنها وعزة قومها وشرف حسبها، فزار بها إبراهيم مصر هبة النيل، وأحزمها ملك مصر سبيئة من بيت الملك والسيادة، أعني بها هاجر التي نشأت في عز الملك زمانًا، وإن عدا عليها الزمان بزوال ملك أبيها، فالزمان دول، والدهر قلب، والأيام غير.

رجع إبراهيم مع زوجه سارة وجارية زوجه هاجر من الزيارة المصرية والنزهة النيلية.

وساح فيما بين النيل والفرات؛ البلاد التي سيعمرها بنوه، ويقطنها المؤمنون به، فتوسط بينهما حيث (أورشليم) وقد نيف على الثمانين،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٣).

وأكرمته زوجه سارة بإهداء جاريتها هاجر إليه، لعل الله يرزقه منها الولد، وقد كان رجاؤها حقًا، فحملت الجارية المصرية هاجر من الخليل العراقي بأبي العرب الذبيح إسماعيل.

ومن هنا يبدأ الفصل الثالث من تاريخ إبراهيم ويرفع الستار عن الخليل.

يمشي في صحراء بلاد العرب مع سريته المصرية هاجر وابنه إسماعيل طفلًا رضيعًا، إذ يذهب بهما إلى جبال فاران؛ ليضع نواة أساس مكة المكرمة بعد ذلك؛ حملها بأمر الله من بلاد فلسطين؛ ليسكنها بأمر الله تعالى في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي يبنيه بعد ذلك إبراهيم وإسماعيل.

وشب الرضيع إسماعيل في حجر أمه هاجر، وبين أفراد قبيلة جرهم التي ساقها الظمأ لتشرب من زمزم التي أنبعها الله لهاجر وإسماعيل، وسكنوا حولها بإذن هاجر، وشب الغلام الفتى إسماعيل بينهم وترعرع وتزوج منهم امرأة بعد أخرى، وماتت أمه هاجر المصرية بعد هذه الحياة الحافلة بعظائم الأمور، فمن نشأة ملكية في فجر حياتها إلى عدوان الدهر بزوال ملك أبيها إلى سبي إلى رق لدى خير الناس سارة زوج إبراهيم إلى تسرى خليل الرحمن بها إلى أم لأبي العرب إسماعيل وقيام بتنشئته نشأة صالحة في صحراء الجبال بين قوم لا تمت لهم بقرابة، وإنما ينزلون ضيوفًا على مائها بئر زمزم حتى تموت، ويكبر الغلام، ويجيء الخليل الشيخ الوقور فيقوم إليه إسماعيل ويتعانقان عناق الوالد للولد، ويقول له: يا إسماعيل، إن الله أمرني أن أبني له بيتًا هنا. فيقول الغلام: أطع ربك. فيقول الخليل: وتعينني؟ فيقول الغلام: وأعينك. وحينئذ يبدأ الخليل بمعونة ولده إسماعيل بوضع أساس عمران مكة برفع بيت الله الحرام كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهنا تبدأ عمارة مكة المكرمة بإسماعيل وذريته وأصهاره من جرهم، ثم قريش، ثم من شاء الله تعالى من خلقه.

وللكلام على ما تطور عليه هذا البلد الحرام إلى الآن حديث آخر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[(١)]..... وقفنا في الحديث السابق في نشأة مكة المكرمة على وصول الخليل إبراهيم بابنه إسماعيل وسريته هاجر إلى جبال فاران، بين الأخشبين: أبي قبيس وقعيقعان، ذلك الوادي الخالي من كل حياة مادية؛ من ماء وزرع، فضلًا عن حيوان أو إنسان، سوى ما أودعه الله فيه من سر إلهي وحياة روحية، ستكون في الأجيال المقبلة مطلع شمس الهداية لبني الإنسان، ومشرق نور العالم والرشد والعرفان لبني آدم جميعًا، وتتربى فيه خير أمة أخرجت للناس.

أودع الخليل تركته إسماعيل وهاجر بأمر الله في هذا الوادي القفر من كل حياة إلا من روحانية السماء، فلا خيام ولا بنيان ولا اجتماع ولا عمران ولا عيون ولا أنهار، ولقد كان عندما يمر في طريقه من الشام على واحة حية بعيونها ورياضها وغياضها يسأل جبريل: أهنا محطة الرحل؟ فيجاب: لا، سر، ليس هنا المنزل. حتى ألق عصا التسيار بإذن الله في سفح جبل أبي قبيس الجدب القاحل، الخراب من زخرف الحياة الدنيا، العامر بالمعاني السامية والمبادئ الفاضلة وأصول الخير والدين، وكنز علوم العمران والاجتماع، ومهبط وحي الله على خير خلقه فيما بعد.

أودعهما الخليل بلا زاد ولا متاع سوى شنة بالية فيها وشل من ماء؛ إن كفى صباح يوم لم تبق منه باقية لمسائه.

وولى الشيخ راجعًا تاركًا فلذة كبده الرضيع ووحيده على الكبر بين الجبال والصخور، فنادته أم إسماعيل: إلى من تتركنا يا إبراهيم؟ أتترك امرأة مرضعًا أجهدها السفر الطويل مع طفل رضيع في واد قفر؟.

فقال في سره: إلى الله تعالى.

---

(١) تتمة مقال «كيف نشأت مكة المكرمة» - مجلة «الحج» - رجب - ١٣٦٩هـ.

فقالت: آلله أمرك بهذا؟.

فأجابها جهارًا: نعم.

فقالت أم إسماعيل: إذن لا يضيعنا الله.

وصدقت وصدَّق رجاءها؛ فكانت جدة العرب وراسمة تصميم مكة.

ما هذا الإيمان العظيم عند امرأة تترك بين الجبال؛ حيث لا ناس ولا أنيس ولا ماء ولا طعام؛ حيث الوحوش والذئاب ومن لا يؤمن شره من أهل البادية، عندما تخبر أن هذا الأمر لله فتؤمن بالله وتطمئن إلى حمايته ورعايته بلا درع ولا سيف ولا رمح ولا جنود ولا حامية إلا الثقة بالله ورعايته.

فعندما يعد الأبطال المغامرون فأم إسماعيل في رأس القائمة منهم، وإذا ذكر المؤمنون بالله الواثقون برعايته ولطفه؛ الموقنون بقيوم السموات والأرض فهاجر أم إسماعيل جوهرة وعقد نظامهم، ولؤلؤة درية في صدر تاريخهم.

وإن تعجب فعجب أمر ذلك الشيخ الوقور إبراهيم الخليل؛ إذ يدع فلذة كبده الرضيع بين الجبال والقفار مع أمه في واد ضواء تحيط به جبال موحشة، فلم يزعجه عليهما خوف ذئب أو ضبع أو وحش، ولا توقع عدوان أو بغي أو سلب أو نهب، فأين الحامي والمدافع والجار والمجير لهما سوى الإيمان بالله الذي يأتي بالخراق والعجائب، ويقع منه ما لا يتصوره الخيال فمرحى للإيمان بالله.

شربت هاجر ما تبقى من وشل ماء القربة حتى نفد، وجابت جوانب الوادي تبحث عن الماء؛ أول شروط الحياة، حتى صعدت على الصفا تنظر من بعيد ومن قريب لعل الرحمة الإلهية تسوق إليها حامل ماء فلم تر شيئًا، ثم نزلت إلى الوادي سعيًا على قدميها إلى المروة لعلها تجد عندها ما لم تجده عند الصفا، وجرت بين الصفا والمروة سبعة أشواط؛ كانت هي مبدأ الطواف بين الصفا والمروة في الحج بعد ذلك كما في الأثر للساعين: «هذا ما أورثتكم أمكم هاجر».

فأيتنا إذ نسعى نتذكر جهود تلك الساعية الجاهدة بحثًا عن الماء (أم إسماعيل).

ثم تسمعت صوت الرجاء يصيح من قلبها فأصغت إليه وقالت: أغث إن كان عندك غواث، ثم قالت: أرجع للغلام فأراه كيف يموت من العطش والجوع، فإن لفظ نفسه الأخير بين يدي جوعًا وعطشًا واريته التراب، واحتسبت فيه الأجر والثواب من واهبه والمحسن به أرحم الراحمين.

رجعت إلى حيث كان الغلام إذ خلفته يتلوى عطشًا وجوعًا بين الحصا والجنادل ومرتع الوحوش والهوام، فإذا جبريل الروح الأمين روح القدس الذي أرسله الله إلى مريم بعد ذلك ليبشرها بعيسى ابن مريم أرسله الله قبل ذلك إلى أم إسماعيل ليطمئنها على نفسها وعلى ابنها إسماعيل قائلًا لها لا تخافي الضيعة عليك ولا على ابنك إسماعيل فإن لله بيتًا سيبنيه هذا الغلام مع أبيه، وفحص الأرض بعقبه فخرجت زمزم؛ هزمة جبريل، وسقيا إسماعيل، وطعام الطعم، وشفاء السقم، فشربت وأرضعت رضيعها، وجعلت تحوط زمزم وتحصره، فرحم الله أم إسماعيل لو لم تحجز زمزم لكانت عينًا معينًا فائضة على وجه الأرض كما جاء ذلك الحديث الصحيح(١).

علمت أم إسماعيل من بشارة أمين السماء – روح القدس – لها ما كانت آمنت به أن الله لا يضيعها، كما علمت حكمة الله في ترك وضع إبراهيم لها ولولدها بواد غير ذي زرع، أنه سيعمر بعد ذلك وأنه بالإيمان والتقوى وعبادة الله تعالى، فألفت الوادي وشربت من زمزم طاعمة مرتوية، فعرفت فيه طعام طعم وشفاء سقم، كما أيد التاريخ والواقع ذلك على طويل الأيام، فقد عاش على زمزم أبو ذر الغفاري في فجر إسلامه ثلاثين بين يوم وليلة لا يطعم فيها غير زمزم حتى سمنت عليه طيات بطنه، والتجربة أم العلم الصحيح في كل زمان ومكان.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٦٤).

مرت قبيلة جرهم بأسفل الوادي فرأوا طيرًا عائفًا[1] على الوادي فقالوا: سبحان الله عهدنا بذلك الوادي لا ماء فيه فكيف بهذا الطير العائف ولا طير إذ لا ماء؟.

هكذا تحاورت جرهم فيما بينهم سؤالًا وجوابًا، وكان أن قر رأيهم على الوقوف على ما جد بهذا الوادي فقالوا لرائدهم: اذهب أيها الرائد وانظر طوية الوادي. فسبحان من يعمر الخراب ويحيي الأرض بعد موتها. ذهب الرائد؛ فإذا بعين زمزم وإذا الأنثى الفريدة الوحيدة ولا أنيس لها إلا الله ثم رضيعها وإيمانها بالله، فرجع الرائد إلى قومه جرهم يخبرهم خبر ما رأى؛ ويا نعم ما رأى، رأى الخير جاثمًا مجسمًا على صدر أم إسماعيل وولدها إسماعيل، فمالوا إلى الوادي واستأذنوا أم إسماعيل، وكانت تحب الأنس أن ينزلوا على الماء، فأذنت لهم على شريطة أنه لا حق لهم في الماء بتملك واحتكار فضلًا عن البيع والإيجار، وإنما لهم الإنفاق والانتفاع؛ لتبقى زمزم وقفًا لله على من سكن هذا الوادي بأمر الله تعالى ليعبد الله ويقيم الصلاة على مر الأجيال الآتية.

ترعرع الغلام إسماعيل وشب بين جرهم وتعلم منهم الفروسية ورمي النبال وصيد الغزال؛ شجاعة العرب وصراحة القول وفصيح العربية، علاوة على ما ورث من أبيه إبراهيم من قوة الجسد الأشورية وصفاء القلب الفراتي، ومن أمه هاجر رقة الطبع المصرية وعذوبة الكلام كعذوبة النيل، ونضج ذلك بحرِّ الصحراء، فإسماعيل وارث صفات الفرات والنيل المصفى بحرارة الصحراء والد العرب المستعربة.

وماتت أم إسماعيل؛ أم الأمة العربية بعد حياة عجب عجاب من رفاهة الحياة المصرية حيث النيل والجنات والرياض وعزة الملك؛ إلى خدمة الأكابر سارة وإبراهيم؛ إلى أم رؤوم تعيش مع ابنها في صحراء جرداء حارة يابسة خشنة

---

(١) العائف الذي يتردد على الماء ويَحُوم ولا يمضي. «غريب الحديث» لابن سلام (٤/ ٢١٨).

لا يلينها إلا الإيمان والرجاء وبرد اليقين؛ إلى عطش وجهد في طلب الماء سعيًا على الأقدام عطشانة كديدة مجهودة وحيدة فريدة، حيث يسعى الناس اليوم بين الدكاكين والظلال في قرقعة أكواب الشراب الحلو والماء المثلج وغناء الباعة وشخشة ورنين الدنانير والدراهم! فكأنما قدت أعصاب هاجر وأعضاؤها من حديد فولاذ، حتى يستثقل كثير منهم السعي على الأقدام في ظلال وأمان واطمئنان، بينما صور الناس اليوم من شمع وعجين.

وكانت خاتمة مطاف حياتها رؤية روح القدس أمين السماء والمكين عند ذي العرش جبريل ساقيًا ومبشرًا.

فهذه حياة عظيمة من امرأة عظيمة أهمل الكتاب والمثالون روايتها، ولم نر كاتبًا بليغًا أخرج قصتها الطريفة على صفحات تقرأ أو على شاشة بيضاء تشاهد بدلًا من خيالات قصتهم.

عدنا إلى الغلام إسماعيل وارث كمالات آشور من أبيه، ودماثه أخلاق مصر من أمه، المنشأ بين العرب الخلص من جرهم، المتغذي بآدابهم وأحوالهم الاجتماعية المنشأ بينهم، فقد ترعرع في جرهم حتى بلغ أشده، وتزوج منهم لينجب ذرية تحمل صفات الفرات والنيل والصحراء.

وجاء الخليل ليزور ابنه فإذا هو في الصيد وتقابله كنته[1] الجرهمية بلا عناية ولا ترحيب، وسألها عن زوجها إسماعيل؟ فتقول: ذهب يمتار لنا من صيد الصحراء. وسألها عن حالهم. فتقول: شر حال - والأنبياء لا يحبون تسخط الأقدار ولا التذمر من جشب العيش وخشونته - فيقول حموها الخليل. إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام، وقولي له: غير عتبة دارك[2].

رجع إسماعيل من صيده إلى داره وتوسم أثر زائر فقال: هل زارنا اليوم أحد.

---

(١) الكَنَّة: امرأة الابن. «لسان العرب» (كنن).

(٢) البخاري (٣٣٦٤)، وقد تقدم قريبًا جدًّا.

فقالت زوجه الجرهمية: نعم شيخ وقور قال لي كذا وقلت له كذا، وسألني عن عيشنا، فقلت: شر عيش، ويسلم عليك ويقول: غير عتبة دارك.

فقال إسماعيل: أنت عتبة الدار وحجر العثار، إلحقي بأهلك.

وما أحسن الفراق عند تخالف الطباع، فالفراق علاج داء الشقاق، وهو خير من عشرة النفاق المتزملة بالرياء المتدثرة بالشحناء والبغضاء، فهذه هي سنة الفطرة ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

وتزوج إسماعيل بأخرى من جرهم بعد فراق الأولى، وغاب الخليل ما شاء الله أن يغيب، وعاد لزيارة الابن الوحيد، فكان حظه من لقائه ثانيًا كحظه في المرة الأولى؛ غياب لامتراء العيش من صيد القفار، غير أن الجرهمية الثانية قابلت حماها الشيخ الوقور بوجه غير وجه سابقتها، ولعلها اعتبرت بما جرى على سالفتها، والتاريخ عبر والعاقل من اعتبر، فأهلت وسهلت ورحبت ورجت الشيخ أن ينزل عن دابته لينال راحة وكرامة فأبى، فغسلت له رأسه وسألها عن عيشهم؟ فأثنت خيرًا. وسألها عن طعامهم؟ فقالت: اللحم والماء، فدعا لهما بالبركة فيهما – فلحم مكة مبارك بدعوة الخليل خلافًا لما يشيعه عنه من لم يعرف سوى كلمات ناقصة عن تجارب ناقصة من أنظار طب ناقص عن قوم قاصري الأنظار – سر الخليل من كنته وزوج ولده ولقائها الباش وترحيبها الكريم ورضاها عن الله وأقداره ورضاها عن حال عيشها مع زوجها فقال لها أقرئي زوجك السلام وقولي له: ثبت عتبة دارك، وكانت هي العتبة، فاحتفظ بها إسماعيل للخلق الكريم منها والوصية الحنون من أبيه.

ثم كانت بعد ذلك قصة الذبيح وقصة بناء البيت مما ينبغي أن يفرد ذلك بحديث ممتع بعد ذلك إن شاء الله تعالى، فإلى اللقاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

طرائف من حياة الإمام عبد العزيز بن سعود[1]

رحمه الله تعالى رحمة واسعة

إن حياة باعث الأمة العربية في القرن العشرين من رقدتها الذي اهتزت أمواج الأثير بخبر وفاته يوم الاثنين ٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٣ - ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٣ وتسارعت الإذاعات العالمية بنشر الخبر، وتأبين الفقيد بالتآبين المؤثرة، وعد مآثره وباهر أعماله التي قالت فيها: إنها تشبه الأساطير لغرابتها وعبقريتها، لولا أنها الواقع الذي سجله التاريخ وسار بذكره الركبان، تلك الحياة الحافلة بأنواع لا تحصى لجهات كثيرة من العظمة والسمو يكاد يؤود تصورها بالوهم والخيال، بله العقل والوجدان عند العقلاء، فما بالك بالدهماء.

فمن إصلاح لحال البادية والحاضرة في الأمة العربية إصلاحًا يعم الدين والدنيا؛ من التعليم وإنشاء المدارس وجلب وفود العلم والمعلمين، وتشجيع النهضة العلمية والأدبية والدينية، وطبع الكتب النافعة دينًا ودنيا إلى إصلاح الزراعة والصناعة والمواصلات ومعدات النقل وتسهيل الأسفار، والانتقال من شرق الجزيرة إلى غربها وسائر أنحائها إلى الأقطار الخارجية على شتى وسائل النقل؛ من سيارات وطائرات وسكك حديد وسفن وبواخر وإنشاء مراسي للسفن والبواخر في ثغور المملكة ومرافئها على أحدث ما عرفه الإنشاء والتعمير، وتأمين الطرق والسبل حتى صار الأمان في عموم بقاع الجزيرة من أدناها إلى أقصاها مضرب الأمثال وحديث القاصي والداني، وحسبك أداء الحجاج حجهم وعمرتهم، من سائر أجناس المسلمين، وسائر ألوانهم على اختلاف لغاتهم وتباين أممهم من الراحة والأمان على الأنفس والأرواح والأموال، ومع الرفاهية والعناية الصحية

---

(١) مجلة اليمامة – العدد ٤ – في ٣/ ١٣٧٣هـ.

والإسعاف الطبي وإكثار موارد الماء في المدن وطرق الحاج، حتى يعودوا إلى بلادهم بألسنة الشكر لله تعالى على ما يسر لهم الحج في هذا العهد الذهبي الميمون المبارك المنقطع النظير.

ولا تنس سقاية الحاج والأهالي عذب الماء الفرات في مكة وجدة والمدينة وعرفات ومنى وعلى مسافات متقاربة في الطرق، بعد قحط الماء قبل ذلك.

حتى يرى العمران يركض في تلك المدن في عماراتها الشاهقة وأسواق تجاراتها وضجيج سياراتها، حتى ليخيل إليك وأنت في شارع من شوارعها أنك في عاصمة من العواصم الكبرى بأوربا أو أمريكا بما يدهشك من ازدحامها بالناس والسيارات واكتظاظ دكاكينها بشتى أنواع البضائع من العالمين؛ الجديد في أمريكا والقديم في أوربا وآسيا وأفريقيا وأندونسيا.

إن القلم ليكل والجهد يتلاشى والذهن يتبلد إذا حاول الإنسان إحصاء مآثر هذا الإمام الراحل على البلاد العربية عامة وحجاج بيت الله الحرام، وزوار مسجد نبيه عليه الصلاة والسلام خاصة.

ولقد كتبت في ذلك الكتب الكبار عربية وأعجمية، وخطبت الخطب ونظمت القصائد مما يستوعب العمر الإحاطة به والإتيان عليه والوقوف على جمهرته أو بعضه مما حفظه وسيحفظه التاريخ في سجلاته.

وإن يكن لابد لي من الإدلاء بدلو للاغتراف من نمير تلك الحياة الشاذة الفاذة الفريدة فليكن بعض الطرائف التي رأتها العين ووعاها القلب وسجلتها المشاهدة؛ بدون حاجة إلى رواية راو ولا سند محدث ولا نقل ناقل، وأسوقها مرقمة بالحروف الأبجدية على طريقة العلماء القدماء أصحاب الفهارس والمعاجم السابقين:

(أ) أول ما قدمنا جدة أنا والشيخ أبو السمح رحمه الله تعالى بأسرتينا في أول هذا العصر الذهبي؛ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ خريف سنة ١٩٢٦ تشرفنا

بلقاء هذا الإمام الذي نسأل الله تعالى له الغفران وواسع الرحمة في دار الوجيه الشيخ محمد نصيف التي كان ينزلها إذا جدة أول الأمر، وكنا بلباس الإحرام، فرحب بنا وسهل وهش وبش لنا، وحضرت صلاة المغرب فقدم أبا السمح رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقتئذ إمامًا وصففت أنا بجانبه حتى صلينا المغرب بلباس الإحرام وسمرنا معه وقتًا لطيفًا ذكر لنا فيه أنه ذاهب إلى المدينة النبوية للصلاة في مسجد الرسول الأعظم ﷺ وروضة مسجده والسلام على النبي ﷺ، وقال: إن الجيش - يعني الإبل براكبيها هم حرسه حينئذ - سبقنا إلى رابغ، ونريد أن لا يجهد الجيش في السفر لأنه عزيز علينا، فلذا تخلفنا عنه ليأخذ راحته في السفر، وكان من يمن ذلك أن تشرفنا بالسلام عليه حينئذ.

وسألنا عن رفيق ثالث طُلب معنا هو الشيخ أبو حجر المغربي الجزائري رحمه الله تعالى الذي هاجر إلى السودان ثم مصر ثم الحجاز فأخبرناه أنه قادم على أثرنا قريبًا، وسألنا الإمام عنه وعن علمه، فأثنينا عليه خيرًا.

ثم قال: إن إخواننا؛ أهل... كذا فيهم شدة وحرارة لا نريدها للحجاز، ونريد منهم أخذ الأمور بالهوادة وباللين والحكمة؛ حكمة فسرتها أيامه المباركة وتصرفاته وأناته وصبره الذي لا ينفد، وإن كنا قد غلطنا أحيانًا في بعض تأويلات لهذه المكارم.

وذكرت له وقتئذ استشفاع رجل من أهل شقراء[1] في لسانه ذرب وبذاء وحدة؛ يريد المعاونة على السفر إلى المدينة، ويسب من يقف في وجهه بالمنع منها من أنواع النظام ورجال الإدارة. فقال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك الرجل: الشقراوي: ذلك السباب البذئ الذي في لسانه فحش وقحة؟! ومع هذا لم ينس تلك الشفاعة فأرسل له ما يعاونه على السفر إلى المدينة؛ كسوة ونقدًا.

(ب) حدثني الأديب حسين نصيف رحمه الله تعالى عن طريفة ظريفة عن فقيد العرب الإمام رحمه الله تعالى: أنه نزل عندهم على جاري عادته

---

(١) في الأصل «شقره».

سابقًا، وكان يخلي له الطابق الثاني من دارهم وتختصر أسرة آل نصيف بأعلى الدار.

فطلع طفل صغير من عيال الشيوخ إلى حيث الحريم فرأى عجوزًا - سماها لي حسين رَحِمَهُ اللَّهُ - تشرب الجراك أو التمباك في شيشة، فقال الطفل: تشربين الخاسي؟! لأشكونك إلى أبي.

قال محدثي المرحوم الأديب: فكان إذا لقينا الملك بعد ذلك عني بالسؤال عن حال العجوز الجدة مع التبسم والرضى وسهولة الخلق وحسنه.

ولا يفتك أيها القارئ ما سردت عليك من سفره إلى المدينة النبوية في أول عهده المبارك بالحجاز؛ لتلقم المرجفين بجحد زيارته النبوية أحجار الحق في أفواههم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

واسمع ثانية المرات لزيارته رَحِمَهُ اللَّهُ للمدينة النبوية فيما سأقص من اللطائف بعد لترمي المكابر بشهب الحق وصواعق البرهان.

(جـ) جاء رحمه الله تعالى إلى المدينة النبوية بعد انتصاره في وقائع السبلة المعروفة قبل حج سنة ١٣٤٧هـ وكنت حينئذٍ بالمدينة إمامًا وخطيبًا في المسجد النبوي، فصلى ورائي صلاة المغرب في المسجد النبوي وسلم على النبي ﷺ وزار قبره الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدع ولا رفع صوت، بل كلها أدب شرعي ممتاز وسمرنا معه بدار وكيل الإمارة حينئذ عبد العزيز بن إبراهيم رحمه الله تعالى، وجاء ذكر الشيخ صالح التونسي الذي انتقل من الشام ولا رغبة منه في الهجرة إلى المدينة، فسألني عنه، فقلت: لا أعرفه. فدخل المهاجر المذكور وشربنا جميعًا القهوة، فأفاض رحمه الله تعالى في مدح الإخلاص لله تعالى وصفاء النية والنصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم سرًا وعلنًا، وذم النفاق والتلون ومراءاة الناس، ومما قال: إن شر الأدواء والأمراض ما كان باطنيًّا.

ثم حضرنا معه أدبة الضيافة بعد الظهر؛ ظهر يوم وصوله، وكان ذلك في

بهو محطة السكة الحديد الذي أنشأه العالم الإسلامي أيام العهد العثماني. فأفاض رحمه الله تعالى في شرح توحيد العبادة ووجوبه على الناس، وكان يستشهد حمزة غوث من حين لآخر؛ كأنه ينبهه والحاضرين إلى سماع ما يقول والإصغاء إليه، في حفل حافل من وجهاء المدينة وأعيانها وساداتها.

ومما قاله يومئذ: والله وبالله وتالله أن عبدة - يعني أمة - فدعة، بلشة، عمشة، عمية، راعية توحيد، أحب إليَّ من أعظم ملوك الدنيا بغير توحيد...

وسألنا من يعرف معنى (فدعة، بلشة، عمشة، عمية) من أهل نجد. فأفادونا أنها الملتوية أصابعها من الخدمة والشقاء الممطة أشفار عينيها حتى عميت للعجز والهرم.

لقد كان لخطابه البليغ المؤثر يومئذ من الأثر ما حرمنا لذيذ الطعام الشهي في تلك المأدبة الملكية الفخمة، فقمنا جياعًا من ذلك اللحم الوفير في تلك الشياه والخراف التي توضع بكاملها نضيجة فوق أطباق الأرز المحلي بالزبيب والسمن، و[illegible] عنك صحون المرق، واللحم والخضار والفاكهة، قمنا جياعًا من الطعام ش[illegible] ا تأثرنا به من موعظة وذكرى تنفع المؤمنين، نفعنا الله بها... آمين، هذه ثاني[illegible] زيارات الملكية للمسجد النبوي لقطع لسان الجاحدين.

فإن عوى عاوٍ بأن الملك رَحِمَهُ اللَّهُ لم يسرف إسراف الغلاة في تكرار المرات الكثار في الزيارة.

فحسب الجواب أن الله تعالى فرض الحج مرة في العمر وأن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ قبره عيدًا، وحسب الإمام رحمه الله تعالى حفظ الله تعالى من الغلو في سنة الزيارة التي رفعتها الغلاة فوق أوجب الواجبات، واعتقد جهالهم وقالوا: إنهم لم يتكلفوا المشاق من الأقطار الساحقة إلا لها، فلله در الإنصاف والاعتدال والبعد عن الغلو الذي أهلك من هلك به.

(د) ذهبت إلى الرياض لإيصال بنتيَّ إلى زوجيهما بها سنة ١٣٦٠ بصحبة الشيخ أبي السمح الذي استأذن الإمام في السلام عليه بالرياض،

فرحب به وسهل، ونزلنا دارًا من دور الرياض، كره الشيخ طول المقام بها لعدم تعوده مكان القضاء بها وأسلوبه، فعلم بذلك الشيخ محمد بن عبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ كبير آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورأسهم في ذلك الوقت، فذهب إلى الإمام وحكى له ضيق الشيخ أبي السمح بمنزله، فأمر بانتقالنا إلى دار الضيافة الكبرى حيث ينزل الأمراء والوزراء يومئذ، فبقينا بها عشرة أيام في كرم وضيافة.

وكنا ليلًا بعد العشاء نحضر مجلس الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان يُبتدأ دائمًا بدرس ديني في كتاب من كتب التفسير أو الحديث أو الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية، ثم يؤتي بصورة البرقيات والإذاعات فتقرأ الإذاعات علنًا، ويعلق عليها تعليق الفهيم الذكي الفطن، ثم بأطباق الفاكهة، وكانت حينئذ بطيخًا، يؤتي به من الخرج؛ من النوع الأمريكي؛ حمرة الورد وحلاء العسل وكثرة، كالكرم العربي، لا سيما في دار ملك العرب وسيدهم كرمًا وحلمًا.

من لطيف ذلك أن الناس جلسوا على الأرض حول مائدة البطيخ قبلي ولم يبق لي مجلس إلا أمام كرسي الإمام الذي يجلس عليه، فاحتشمت أن أجلس أمام كرسيه ويكون ظهري إليه. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ حينئذ: اجلس يا محمد ولا عليك مني، أعطني ظهرك، أو ما هذا معناه، فجلست وكان فرحي بانتهاء الجلسة يعادل لذتي بالبطيخ الأمريكي ليلتئذ.

ولا أنسى قول يوسف ياسين للشيخ أبي السمح: لا تنس يا شيخ قوله ﷺ: «**سيروا بسير ضعفائكم - أو اقتداوا بأضعفكم**»[1]. ولكن يوسف ياسين ليلتئذ كان أسرع القوم بلفٍ؛ وازدراد لقطع البطيخ؛ يسابق أشعب الطماع في ذلك، فيسبقه يوسف ياسين! والإمام يبتسم ويحدث ضيوفه جالسًا على كرسيه، وفي الضيوف الأمراء وكبار الحاشية وغيرهم.

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ.

(هـ) عندما التقينا بالإمام رحمة الله تعالى للسلام عليه في تلك السفرة، وكانت العالمية الثانية في أشدها وقدها؛ جمت ألمانيا الهتلرية روسيا الشيوعية، واستبشرنا كسائر الناس للانتقام للأديان من روسيا، فقلت: أبشر يا جلالة الملك بانهزام شر دولة على وجه الأرض؛ أريد روسيا الاستالينية.

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له: اعلم يا محمد أن شر الدول من تريد استعبادنا وإذلالنا؛ هؤلاء هم أعداء الإسلام وأعداؤنا – يريد دولتي المحور ألمانيا وإيطاليا – فعرفت غلطي وبعد نظره وسلمت لعارك السياسة وخابزها.

(و) عندما أزاحت دولتا المحور ألمانيا وإيطاليا والإنكليز وحلفاءهم إلى وراء العلمين إلى جهة الإسكندرية، ظن عالم البرقيات الذي كان أول سامع لهذا النبأ أن ذلك مما يسر جلالة الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فاتصل به تلفونيًّا مبشرًا جلالته بهذا الخبر.

فانفلت عليه الملك سبًا وشتمًا وقال: أتبشرني بضياع بلاد العرب؟ إذا ضاعت مصر فماذا يبقى بعدها؟.

والمعتاد في نوع هذا السباب: خمة، هيس، أربد... إلخ.

(ز) سألنا جلالته هل أنتم مواعدون اليوم أحدًا على العشاء؟ إذ قد كان يدعونا في تلك السفرة كبار آل الشيخ ابن عبد الوهاب؛ مثل الشيخ محمد بن عبد اللطيف وأبناء أخوته الشيخ محمد بن إبراهيم ومحمد بن عبد الله ونحوهم وبعض الأمراء كمساعد ابن عبد الرحمن.

فقلنا: لا. ليس عندنا وعد اليوم.

فقال: دعاني سعود بن عبد العزيز الكبير، وهو ابن عم له وزوج أخته نورة التي كان أحيانًا ينتخي بها على عادة العرب: أنا أخو نورة، حتى نبه أن ذلك من عوائد الجاهلية، فاستبدل بها: أنا أخو من أطاع الله.

ذهبنا إلى تلك الدعوة التي كانت ذبائح الشياه بينها فصيل الإبل، يقصد وسطها، فكف جلالته عن لحم الفصيل، وهو يشتهيه؛ لأنه كان غاسلا –

متوضئًا - والعصر قريب فلم يشأ أن تؤخر شهوته الصلاة عن أول وقتها.

واستذكر جلالته رَحِمَهُ اللَّهُ آية من كتاب الله تعالى، فذكرتها له، فحرك ذلك أضغان حقود لا يرد أن يعرف الملك غيره، وأراد أن يغير قلب الشيخ أبي السمح بوشاية رخيصة، فالله حسيبه، وأحمد الله تعالى الذي عافاني من مرض العبودية لكرسي الوظيفة التي لو طرد عابدوها منها شر طردة توسلوا إلى مراجعتها بشتى الوسائل، ولو كانت غير مشرفة، والحمد لله على الإيمان بالآخرة التي هي خير وأبقى.

(ح) ذهبنا مرة للمعايدة على الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في منى، وكان وقت طعامه مع الحاشية والأمراء، فجلسنا على المائدة وأكلنا ما قسم لنا، وخرجنا لغسل الأيدي، وبعدها أشار لي رحمه الله تعالى مادًا يده، فظننت ذلك مصافحة، فمسح عطر يده وكان عودًا في يده رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فما أجمل تواضع الملوك وإسلامهم ومكارم أخلاقهم.

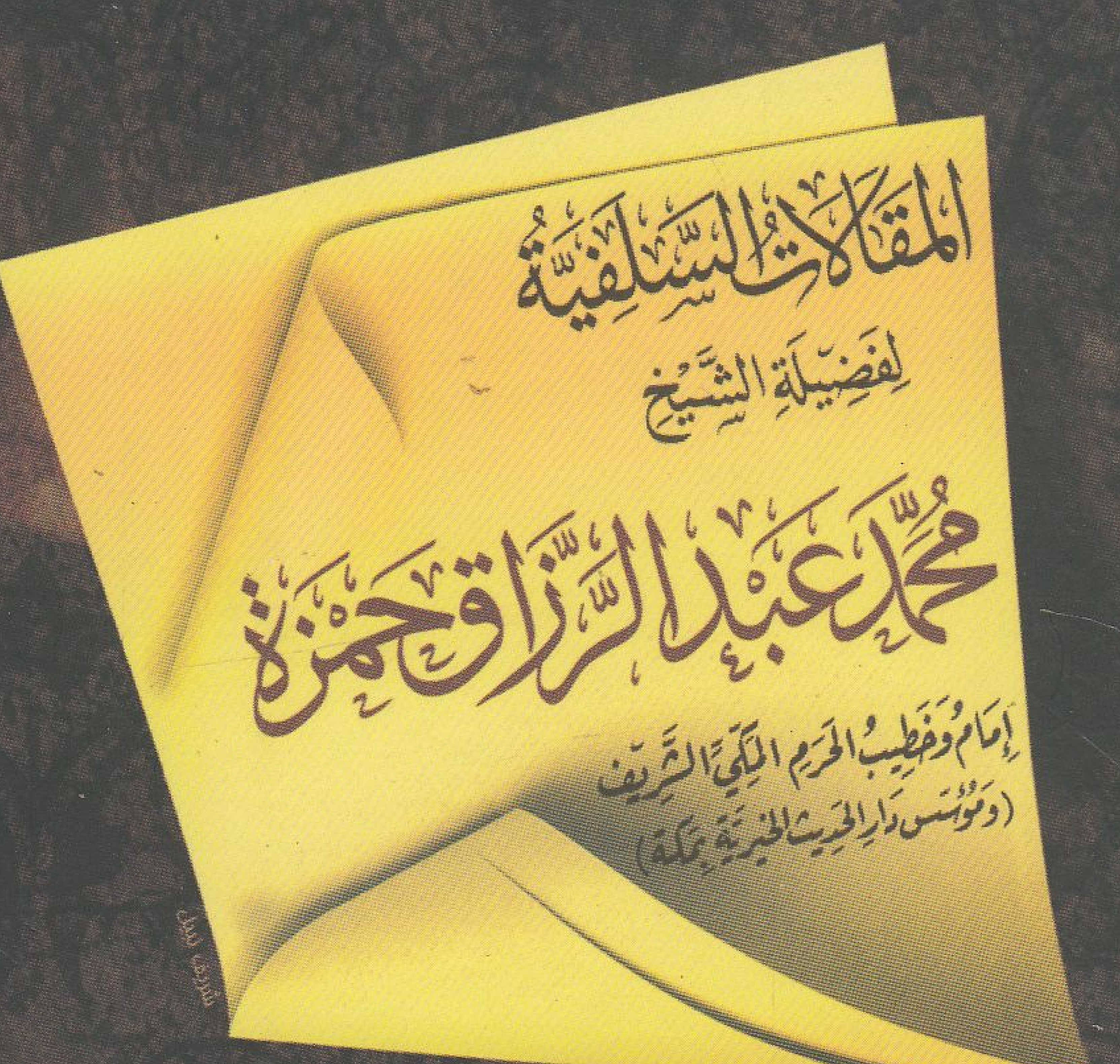
(ط) ذهبت مرة للسلام عليه بمخيمه بحوية، التي هي بضواحي الطائف في صيف من الصيوف، فبعد شرب القهوة قال لي: أين أنت نازل؟ قلت له رحمه الله تعالى: لي أهل بالطائف، وكان سؤاله ليأمر لي بالضيافة أن يهمل مأموز الضيافة أو يسهو.

لو ذهبت أعدد أمثال هذه الوقائع التي ينتظم منها عقد من جواهر أخلاقه لملأت صفحات وصفحات وصفحات، وطغى القلم على حظوظ من هم أولى بهذه الصفحات مني، فأكبح جماح القلم لفرصة أخرى والسلام على الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ حيًّا وميتًا، وسبحان الحي الذي لا يموت، وعباده جميعًا يموتون وإليه المرجع والمنتهى.

* * *

فهرس الموضوعات

من تراث أعلام الدعوة السلفية بمصر



دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع





عين شمس - القاهرة - جمهورية مصر العربية
جوال / ٠٠٢٠١٠٧٦١٠٠٠٩٩
www.darsabilelmomnen.com
E-mail : Dar_Sabilelmomnen@yahoo.com
E-mail: Dar_Sabilelmomnen@hotmail.com